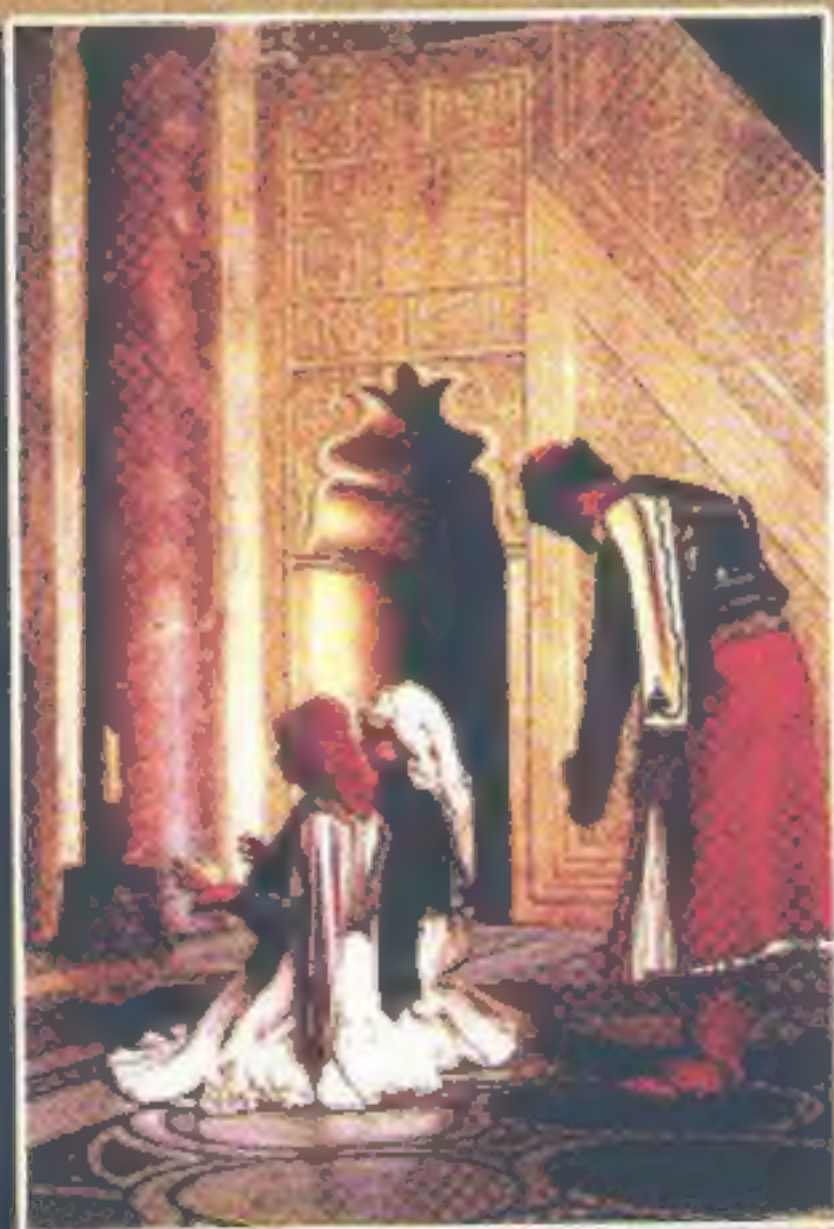




دكتور قاسم عباس قاسم

# المسلمون و أوروبا

التطور التاريخي لصورة الآخر





# المسلمون وأوروبا

## التطور التاريخي لصورة الآخر

دكتور

قاسم عبده قاسم

الطبعة الأولى

١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م



عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

— EEN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

بطاقة فهرسة	المستشارون
<p>قاسم : قاسم عبده المسلمون وأوربا : التطور التاريخي لصورة الآخر / قاسم عبده قاسم - ط ١ - الجيزة : دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٨ ٢٤٠ ص : ٢٠ سم تدملك ٥ ٢٣٦ ٢٢٢ ٩٧٧ ١- الإسلام والعلاقات الخارجية أ. العنوان ٢١٤ ، ٣٢٧</p>	<p>د . أحمد إبراهيم الهواري د . شوقي عبد القوى حبيب د . قاسم عبده قاسم المشرف العام : د . قاسم عبده قاسم المدير التنفيذي : شريف قاسم مدير الإنتاج : جمال عابد تصميم الغلاف: عمرو قاسم</p>

حقوق النشر محفوظة ©

الناشر: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

٥ شارع ترعة المرويطية - الهرم - ج.م.ع تليفون وفاكس ٢٨٧١٦٩٢

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Elkharam - A.R.E. Tel : 3871693

web site: WWW.Dar-Ein.com / E-mail : dar\_Ein@hotmail.com



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## المقدمة

حوار الحضارات ، أم صدام الحضارات ؟ حوار أديان أم حوار ثقافات ؟

أسئلة تثور في الأجواء السياسية والثقافية في عالم اليوم الذي تشتعل فيه الحروب والمنازعات في كل أركان الدنيا، تبحث عن الإجابة المناسبة وسط ضجيج الأيديولوجيا الجديدة التي تحاول السيطرة على العالم من خلال رفع شعارات العولمة ، وصراع الحضارات ، ومحاربة الإرهاب الإسلامي ... وما إلى ذلك .

ولأننا نؤمن بوحدة الحضارة الإنسانية ، التي امتدت حلقاتها منذ بداية البداية في رحلة الإنسان ، التي لم تتم بعد، عبر الزمان، فإننا نقدم هذه الدراسة الأولية ، بشقيها ، عن صورة الآخر لدى كل من الأوروبيين والمسلمين في تطورها التاريخي حتى نهاية العصور الوسطى (القرن السادس عشر الميلادي تقريبا) ومفهوم «التسامح» وتطوره التاريخي أيضا في الفترة نفسها .

فالحضارة الإنسانية التي نصيا في ظلها اليوم تدين بالكثير لإنجازات الحضارات السابقة زمتيا من ناحية، كما أن جميع الحضارات كانت تدين للحضارات السابقة عليها من ناحية أخرى؛ وهو ما يعني أن جميع البشر ينهلون من منبع واحد وإن تغيرت مواقعه الجغرافية . فالحضارات القديمة

(المصرية- وحضارة العراق القديمة- وحضارة الصين وحضارة الهند القديمة) أثرت بشكل أو بآخر في الحضارات التي جاءت بعدها (مثل اليونانية ، والهلينستية والرومانية) التي تركت بصماتها على الحضارة العربية الإسلامية التي استغابت أيضا من موروثة الفرس والسوريين والهنود والصين؛ فضلا عن الحضارات الأقدم عمراً . وحين بدأت أوربا تنفض عن نفسها غبار التخلف الذي عانت منه في العصور الوسطى، اتجهت إلى الحضارة العربية الإسلامية تتهل من معينها حتى قوى مودها، وصارت الحضارة العالمية بإنجازاتها التي كفلت لها التفوق والسيادة والريادة في عالمنا المعاصر لاسيما بعد أن تعززت بثقلها الأمريكى.

خلاصة القول إن هناك وحدة حضارية حقيقية تجمع البشر ؛ وأن مصالحهم الحقيقية تكمن في إدراك هذه الحقيقة، ونبذ صيحات الحرب التي يطلقها الرأسماليون المتوحشون الذين يريدون السيطرة على العالم؛ موارد الطاقة ، والأسواق ، والعمالة الرخيصة ، ويمهدون لهذا بدعاوى إيديولوجية باطلة عن صدام الحضارات ، أو الأديان ، أو الثقافات . وفي ظنى أن العالم بدأ ينقسم إلى قسمين رئيسيين ؛ يفضى النظر عن الحدود الجغرافية والتقسيمات السياسية والقومية والعرقية: نواة الحرب وقارعر طبول الصدام والصراع من أجل أطماعهم الرأسمالية الجشعة ، والبشر العاديين الذين يريدون العيش في سلام تظله الأخوة الإنسانية. وقد تجلى هذا واضحا في أثناء الحرب على العراق ، وفي مظاهر مقاومة الحرب والعملة والتسلح ... وغيرها .

وهذه الدراسة تحاول أن تلقى أضواء كاشفة على جانب من الموضوع ؛  
 إذ تتناول في شق منها موقف المصيحيين الشرقيين عامة من حركة الفتوح  
 الإسلامية، والتعامل مع الدين الإسلامي والمسلمين، وفي هذا السياق  
 حرصنا على أن نضع نصوصاً كاملة، أو شبه كاملة، لكي نقف على ملامح  
 الصورة التي كانت لدى الذين كتبوا آنذاك. ومن المهم أن نلاحظ أن هذه  
 النصوص تعبر عن آراء رجال الكنيسة ولا أظنها تعبر عن النفسية  
 الجمعية والتصورات العامة لدى الناس العاديين الذين لانعكس من المصادر  
 والأدلة ما يرشدنا إلى موقفهم الحقيقي. وفي الشق الثاني من هذه  
 الدراسة نتناول التطور التاريخي لصورة الآخر في كل من أوروبا والعالم  
 المسلم. فتمة علاقة متعددة الجوانب بين العالم الإسلامي وأوروبا تغيرت على  
 مرّ القرون حسب الظروف وتركزت بصمات على صورة «الآخر» لدى كل  
 منهما. ومن ناحية ثالثة، فإن الدراسة تحاول أن تبرز الاختلاف بين مفهوم  
 «التسامح» في الثقافة الغربية عموماً ، وفي الثقافة العربية الإسلامية قديماً  
 وحديثاً ، موضحة كيف أن اختلاف مفهوم التسامح على هذا النحو قد ترك  
 تأثيراً واضحاً على صورة الآخر في كل من الثقافتين ، وكيف أنه ما يزال  
 يحكم موقف كل منهما من الآخر في أيامنا هذه أيضاً .

والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

٦ أكتوبر - مايو ٢٠٠٨م





القسم الأول

## المسيحيون والفتوح الإسلامية

بيزنطة وشرق المتوسط



## مقدمة

في البداية كانوا مجموعة من الفرسان يملأهم البسطة ، على  
خيولهم النحيلة ، خرجوا من شبه الجزيرة العربية بأسلحتهم التي كان  
السيف أهمها ، يحدوهم إيمان قوي ، وتميزهم صلابة نادرة. ولم تكن  
أعدادهم كبيرة ، ولم تكن جيوشهم جرارة ؛ ولكنهم في غضون قرن من  
الزمان كانوا قد هزموا القوتين العظيمين في عالمهم المعاصر، ويات الوجود  
السياسي لدولة المسلمين من الحقائق الكبرى في دنيا القرن الثامن  
الميلادي ، وفيما بين النصف الأول من القرن السابع الميلادي وم منتصف  
القرن الثامن الميلادي كانت حدود «دار الإسلام» تمتد من الصين شرقا  
حتى جبل طارق ومياه الأطلنطي غربا ، ومن مناطق الاستبس وبحر مرمرة  
والبحر المتوسط شمالاً حتى شبه القارة الهندية في آسيا والصحراء  
الكبرى في أفريقيا جنوباً .

والدهش أن الجيوش التي أنجزت الفتوح الإسلامية لم تكن تزيد من  
عشرة آلاف مقاتل في غالب الأحيان ، ولم تصل إلى أكثر من عشرين ألفا  
سوى في أحيان نادرة. والأكثر إثارة للدهشة أن معظم هذه «الفتوح» تمت  
«صلحاء» ؛ أي بطريقة سلمية في كثير من الأحيان. وكان القتال محدوداً ،  
وحول المدن والقلاع، على الرغم من أن الفتوح الإسلامية ضمت مساحات  
شاسعة . وفي أماكن عديدة تولت الجيوش التي تكونت من أبناء البلاد  
المفتوحة مهمة «فتح» بلاد أخرى على نحو ما حدث في المغرب والأندلس ،  
وما حدث في قنوج الشرق وبلاد ما وراء النهر والسند.

ولم يحدث في تاريخ البشرية أن تم فتح مثل هذه المناطق الشاسعة في مثل هذه الفترة الوجيزة ، ولم يحدث أن بقيت نتائج أية فتوح على مدى القرون حتى الآن مثلما هو الحال في نتائج حركة الفتوح الإسلامية. هذه الظاهرة التاريخية الفذة كانت وراء كثير من الأسئلة المدهشة التي طرحها المؤرخون والباحثون في جميع العصور حول الفتوح الإسلامية.

هذا السؤال الذي يحمل طعم الدهشة طرحه على نفسه راهب نسطوري في بيرة المنعزل في المنطقة الجبلية بشمال شرق تركيا الحالية، بالقرب من مجرى نهر دجلة سريع الجريان. لقد سأل الراهب يوحنا بارينكاوي نفسه، وهو يكتب تاريخاً مختصراً للعالم بعد خمسة عقود من بدء حركة الفتوح الإسلامية التي قضت في غضون سنوات قليلة على الامبراطورية الساسانية وانتزعت القسطنطين الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط من الإمبراطورية البيزنطية. سأل وأجاب سأل السؤال للمدهش وأجاب الإجابة المريضة : **«لا يجوز لنا أن نفكر في قدوم أبناء هاجر (المسلمين) على أنه أمر عادي، بل إنه نتيجة عمل الرب، فقد كان الرب قد أعطهم من قبل لتكريم النصراني ... والآن عاد هؤلاء بئس الرب، واستولوا على كلتي الملكتين (الفارسية والبيزنطية) كما هو واضح، لا بالحرب والقتال وإنما بأسلوب بسيط مثل استخراج جمرة من النار، ودون استخدام أسلحة قتال أو أساليب بشرية. لقد وضع الرب النصر في أيديهم بشكل يدل على أن ما حدث منهم يمكن أن يكون أمراً مقضياً ... وإلا ، فكيف يمكن لقوم عراة ، يمتطون خيولهم دونما درع أو ترس ، أن**

ينتصروا بدون العون الإلهي ؟ لقد دعاهم الرب من أطراف العالم لكي يتم  
تعميره على أيديهم....».

هكذا وجد الراهب النسطوري في تسعينيات القرن السابع الميلادي  
الإجابة المريحة على دهشته التي اتخذت شكل السؤال : لقد كان الأمر  
برمته تدبيراً من الرب. ولكن السؤال الذي طرحه منذ أربعة عشر قرناً ما  
يزال يكبح في طلب الإجابة حتى الآن؛ لأسباب تتعلق بالحاضر، وتتصل  
بالمستقبل . فقد غيرت الفتوح الإسلامية وجه الدنيا ، مرة وإلى الأبد. وما  
تزال آثار ما جرى في تلك العقود القليلة من القرن السابع والنصف الأول  
من القرن الثامن الميلادي توجه حياة ملايين البشر في عالم اليوم. ولا شك  
في أن رؤية مسيحي ذلك الزمان للإسلام وحركة الفتوح الإسلامية كانت  
أساس الرؤية المسيحية ، الشرقية والغربية، للمسلمين على مدى القرون  
التالية. وربما يكون هذا ما يضلّى على هذه الدراسة المشروعية العلمية  
الواجبة.

لقد كان السؤال / الدهشة ، والإجابة المريحة التي تنسب ما حدث إلى  
الإرادة الربانية، على نحو ما كتب الراهب النسطوري في القرن السابع  
الميلادي ، بمثابة القاسم المشترك في كتابات نصارى الدولة البيزنطية  
ومنطقة شرق المتوسط في أعقاب حركة الفتوح الإسلامية. وكانت تلك  
الإجابة ترضى هؤلاء الكتاب الذين كان معظمهم مستعنين للتعامل مع  
المسلمين، ويرفضون التفاهم مع أتباع المذاهب المسيحية المخالفة ويرون  
فيهم سبباً جوهرياً من أسباب غضب الرب الذي سلط عليهم المسلمين  
عقاباً لهم على هرطقتهم وخطاياهم.

وقد نقل المسيحيون في غرب أوروبا الكثير من ملامح الصورة التي رسمها الكتاب البيزنطيون للإسلام والمسلمين ؛ ولكن الغربيين لأسباب تاريخية عديدة، زانوا عن ملامح الصورة البشعة والرؤية الهستيرية التي رسموها للإسلام والمسلمين. وقد تناولات هذا الموضوع في دراسة أخرى. وفي العصور الحديثة حاول المؤرخون والباحثون الغربيون أن يتوصلوا إلى الإجابة المريحة طمياً على السؤال الذي أطلق ذلك الراهب النسطوري في دير الجبلى المنعزل منذ عدة قرون ، بيد أن الكتابات الغربية ، في معظمها تبدو «بعيدة» وخارجية، وهي تتناول أى جانب من جوانب الحضارة الإسلامية، أو التاريخ الإسلامى. ذلك أن هذه الكتابات الغربية تفتقر في معظم الأحيان إلى الفهم الداخلى للفكر والثقافة الإسلامية، وتفشل في أحيان كثيرة في الاعتراف بدور النوافع غير المادية في حركة الناس والمجتمعات داخل الإطار الإسلامى العام. ومن ناحية أخرى، فإن الكتاب الغربيين محكومون بتراثهم الفكرى والثقافى، وخيرتهم التاريخية بالمسلمين؛ وهي خبرة مستمدة من علاقات متبادلة بين المسلمين وأوروبا الغربية على مدى ما يقرب من أربعة عشر قرناً من الزمان وتراوحت ما بين العداوة الحريجة ، والصراع العسكرى، والتنافس الاقتصادى، والتعاون والتفاعل المتبادل على كافة المستويات، وفضلاً عن ذلك، فإن الباحثين الغربيين ليسوا من المؤمنين بالإسلام بطبيعة الحال ، وهو ما يجعلهم غير قادرين على تصور قوة النوافع الإيمانية في سلوك المسلمين التاريخى، ويجعل رؤيتهم للأمور والأحداث التاريخية «خارجية» في أفضل الأحوال . وليس من العدل، على أية حال، أن نطلب من الباحث الغربى أن



يخلع جلده الثقافي، ويتنازل عن تراثه المعرفي وخبرته التاريخية لكي يكتب ما يريحنا أو يرضينا .

وليس معنى هذا أن هذه الكتابات الغربية «منحازة» ، ولكن بعضها يبدو منحازاً ضد الإسلام والمسلمين على الرغم من التميز العلمي والقدرة البحثية لأصحابها . حقاً ، هناك كتابات منحازة بشكل واضح لكنها تخرج من نطاق البحث العلمي إلى مجال الدعاية السياسية والمواقف التي تحمل عداء إيديولوجيا ضد الإسلام والمسلمين .

وعلى الرغم من أن هذه الدراسة تهتم برصد مواقف المؤرخين والكتاب المسيحيين الشرقيين ورؤيتهم للإسلام والمسلمين زمن حركة الفتوح الإسلامية فقد كان من الضروري أن نشير بسرعة إلى كتابات الباحثين الغربيين في الموضوع نفسه من حيث الكيفية لا من الناحية الكمية . ومن ناحية أخرى فإننا هنا نحاول طرح وجهة نظر الكتاب المسيحيين الشرقيين في إطارها التاريخي الموضوعي، وسوف تكون النصوص التي تحصل رنود أفعال النخبة المسيحية في العالم البيزنطي وعالم شرق المتوسط غداة الفتوح الإسلامية في هذه المناطق وسيلتنا لمحاولة فهم الأسس التي شكلت طبيعة العلاقات بين المسلمين والنصارى في هذا الجزء من العالم، ومن ثم، فإن النصارى من أتباع الكنائس الشرقية المختلفة هم الذين تهتم هذه الدراسة برصد مواقفهم . وهنا ستكون هناك بعض الفروق بين رؤية المسيحيين الذين دخلوا تحت الحكم الإسلامي والمسيحيين الذين بقوا في الأراضي البيزنطية.

وإذا كان المجال الجغرافى للدراسة يشمل الحوض الشرقى للبحر المتوسط وصولاً إلى الجزيرة وأعلى العراق، إلى جانب أراضي الدولة البيزنطية، فإن المدى الزمنى سيكون محصوراً فيما بين بداية حركة الفتوح الإسلامية فى ثلاثينيات القرن السابع الميلادى ومنتصف القرن الثامن الميلادى .

وعندما ظهر الإسلام لم يكن العالم المسيحى موحداً ، وإنما كان غارقاً فى نزاعات مذهبية مزقتة بدرجة كبيرة، ويرجع السبب فى ذلك إلى التطورات القاريحية التى جعلت المسيحية بيانة سرية فى بادئ الأمر حتى حظيت بعبداً حرية العقيدة على يدى قنسطنطين الكبير وهريكة فى حكم الإمبراطورية «إيكينيس». وبعدها بدأ بحث مشكلة طبيعة السيد المسيح ، والعلاقات داخل الثالوث المقدس؛ وهو ما أدى هذا الإنقسام داخل المسيحية.

## ( ١ )

**المشهد المسيحي قبيل الفتوح الإسلامية**

فعندما ظهرت المسيحية للمرة الأولى داخل الإمبراطورية الرومانية، لم تعرفها السلطات اهتماماً كبيراً، وربما تصور البعض أنها مذهب يهودى جديد من المذاهب المنشقة . وقد أثبت البحث التاريخى أن الأساطير اللاحقة وسير القديسين قد بالغت كثيراً فى أعداد الشهداء المسيحيين؛ إذ كان اضطهاد المسيحيين محدوداً ، ويحدث فى نطاق محلى محدود غالباً ، وعلى الرغم من أن الدولة الرومانية لم تعترف فى هذا الدور الباكر بالمسيحية بديانة مفروعة ؛ فإنها كانت متسامحة - بشكل عام - إزاء المسيحيين ولم تكن تتدخل فى شئونهم كثيراً . وفى هذا الدور كان رؤساء الجماعات المسيحية فى كل مكان يحاولون الحفاظ على كيان جماعاتهم ، ولم يكن الجدل حول طبيعة السيد المسيح، أو الثالوث المقدس ، قد خرج إلى العلن.

ثم تغير موقف السلطات الإمبراطورية من المسيحيين بشكل جذرى فى عهد الإمبراطور الرومانى ثيودوسيوس (٢٨٤-٣٠٦م) الذى حاول ترميم بناء الإمبراطورية المتداعى وإقامة نظم سياسى جديد، ولكنه اصطدم بالكثيعة التى رفض أتباعها مبدأ عبادة الإمبراطور، ونجح الوثنيون فى بلطه فى حمله على شن حملة اضطهادات قاسية ضد المسيحيين . وعلى مدى عشر

سنوات بذلت الحكومة الرومانية جهوداً منظمة للقضاء على المسيحية، وكان مسيحيو مصر والشام من أكثر رعايا الامبراطورية معاناة من هذه الاضطهادات. ثم اعتزل قنطرياتوس عرش الإمبراطورية سنة ٢٠٦م وعلى عروشها عدد من الرجال يدعى كل منهم أنه صاحب الحق في العرش الإمبراطوري. وفي خضم الحروب الأهلية التي نجمت عن ذلك أعلن الإمبراطور قنستانتين الكبير (إمبراطور الغرب) وشريكه ليكينيوس (إمبراطور الشرق) مبدأ حرية العقيدة، وصارت المسيحية ديانة مرخصة بمقتضى ذلك الخطاب الذي أرسله إلى حاكم الشرق، والذي يعرف عادة باسم مرسوم ميلانو، عام ٣١٣م - وفي سنة ٣٢٤م هزم قنستانتين حليفه الأمس ليكينيوس لينفرد بحكم الإمبراطورية.

وحين خرجت الجماعات المسيحية إلى العلن بدأ النقاش حول طبيعة الإله الذي تجسد بشراً حسب اعتقادهم، وكانت للموارث الثقافية المختلفة للمسيحيين في الشرق والغرب تأثيراتها على صياغة المذاهب المسيحية المختلفة منذ البداية. ومنذ البداية أيضاً، تلقت المسيحية مساعدات قيمة من الإمبراطور قنستانتين الكبير. وقد تولى بنفسه رئاسة أولى المجمع الكنسية، وهو مجمع نيقية الذي عقد سنة ٣٢٥م لمناقشة طبيعة المسيح والعلاقة بين أقانيم الثالوث المقدس. ومناقشة المشكلة الأريوسية. وقد كان هذا المجمع بداية الإنشقاقات التي قسمت العالم المسيحي إلى طوائف مذهبية متعددة، كما كان بداية الإنشقاق الديني بين الشرق والغرب. فقد انقسم العالم المسيحي آنذاك ما بين الأريوسية والاثناసిوسية، وأدان المجمع المذهب الأريوسي (الذي قال إن الإله الابن مخلوق بواسطة الإله

الأب ولذلك فإنه بونه في المشيئة والقدرة) واعتبره نوعاً من الإيمان يتعدد الآلهة ، ثم حدثت تطورات سياسية ولاهوتية كثيرة في الشرق والغرب، كان أبرزها أن الإمبراطور البيزنطي ثيوديسيوس الكبير اعتبر أن المسيحية الدين الرسمي للدولة. وعندما عُقد مجمع خلقيدونية الكنسي سنة ٤٥١م أدت نتائجه إلى انفصال المزيد من الكنائس المسيحية؛ فقد تبني هذا المجمع رؤية البابا الكاثوليكي ليو الثالث (٤٤٠-٤٦١م) الثالث المقدس مما أثار غضب الكنيسة المصرية وكنائس الشام التي اعتنقت مذهب الطبيعة الواحدة (الإلهية) للسيد المسيح.

وقد أدى هذا الانشقاق المذهبي بين كنائس مصر والشام من جهة، وكنيسة الدولة البيزنطية من جهة ثانية ، إلى اضطهادات دسوية ، واسعة النطاق عانى منها أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتي) على المستوى الاجتماعي والسياسي والديني. وعندما اعتلى الإمبراطور جستنيان الأول عرش الإمبراطورية البيزنطية (٥٢٧-٥٦٥م) كانت جمهرة السكان في مصر والشام يدينون بالمذهب المونوفيزيتي. وكان جستنيان عالماً باللاهوت إلى جانب كونه إمبراطوراً ، ولكن طموحاته الاستردادية التي كانت تهدف إلى إعادة ضم المناطق التي احتلها الجرمان إلى الكيان الإمبراطوري وإعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية القديمة ، جعلته في وضع حرج للغاية . فقد كان لابد له من استرداد إيطاليا من الأوستروقوط لأن الإمبراطورية الرومانية بدون روما ستكون بلا معنى ، ولأن روما موجودة في إيطاليا ، ولأن البابا موجود في روما، ولأن البابا كاثوليكي . وكان لابد من استرضاء البابا حتى لا يفشل مشروع الإمبراطور الاستردادي .

وكانت النتيجة أن شن الامبراطور جستنيان حملة اضطهادات قاسية ضد أتباع مذهب الطبيعة الواحدة استمرت طوال حكمه وحكم خلفائه . ولم يكن رجال الكنيسة البيزنطية راضين عن سياسة التقارب التي اتبعها الامبراطور مع روما . وعلى الرغم من أن مشروع جستنيان الاستردادى كلف الامبراطورية ثمنًا غاليًا على المستوى السياسى والاقتصادى؛ فضلاً عن نفقاته العسكرية، فقد كانت نتيجته إخفاقاً تاماً على الصعيد الخارجى وعلى الصعيد الداخلى أيضاً . بيد أن ما يهمنا هنا أن السخط ساد فى أنحاء مصر وشرق المتوسط عامة؛ وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن زاد نفور سكان هذه المناطق من السلطة والكنيسة البيزنطية على حد سواء، وياتوا يرون فى الامبراطورية البيزنطية وحشاً لا يستحق الإنقاذ .

وفى الوقت نفسه كان فشل مشروع جستنيان الاستردادى قد جعل الغرب يتخلى تماماً عن فكرة التبعية للإمبراطور القابع بعيداً فى مقره الحصين فى القسطنطينية، وكان عليه أن يبحث عن زعاماته من بين أبنائه . ولم يكن هناك من هو مؤهل لهذه الزعامة سوى الكنيسة الكاثوليكية . فبعد سقوط الامبراطورية الرومانية فى الغرب سنة ٤٧٦م وفشل مشروع جستنيان الاستردادى فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى، انتقلت زعامة الغرب الأوروبى من النوبة الرومانية إلى البابوية فى روما على أساس ما عُرف فى تلك الفترة باسم «المذهب البطررسى» الذى يزعم أن المسيح جعل القديس بطرس نائبه على الأرض؛ ومن ثم فإن كل من يجلس على عرش القديس بطرس فى روما من بعده يكون بدوره نائباً للرب على الأرض . أى أن بابا روما صاحب سلطة الحل والعقد على الأرض بوصفه نائب الرب.



وبطبيعة الحال، لم يلق هذا الرأي قبولاً من الكنائس الأخرى. وعندما بدأت حركة الفتوح الإسلامية في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، كانت هناك خمس كنائس ، أو خمس طوائف مسيحية، تزعم كل منها أنها الطائفة «القويمة» : ففي شمال أفريقيا، الموطن الأصلي لأوغسطين المعلم الأول للكنيسة الكاثوليكية، كانت الكنيسة تابعة لكرسي روما. وفي القسطنطينية نفسها كانت الكنيسة الملاكانية (الروم الأرثوذكس) تحاول فرض نفوذها على الكنائس الأخرى في أراضى الامبراطورية البيزنطية، وفي الكنائس التي تبين بمتب الطبيعة الواحدة في مصر والشام، أما الكنيسة النسطورية التي كان مؤسسها وأتباعها قد طردوا من الأراضى البيزنطية، فقد كان أتباعها في العراق ومنهم الراهب يوحنا بارينكايس الذي تحدثنا عنه من قبل . وكان السريان الأرثوذكس من أهم الطوائف المسيحية التي تعاملت مع المسلمين، بعد الفتوح ، بشكل مباشر . وقد حاول الإمبراطور هرقل الأول ، الذي كان عليه عبء مواجهة الجيوش الإسلامية، أن يفرض على الكنائس في إمبراطوريته صيغة توفيقية (المونوليثية)، واجأ إلى استخدام القوة لفرض هذه الصيغة . وكانت النتيجة، بطبيعة الحال ، أن دخل أتباع الكنائس الأخرى في صراع مذهبي عنيف سمى ضد السلطة الإمبراطورية ومذهبها .

كانت هذه ، بشكل هام ، ملامح صورة العالم المسيحي عشية حركة الفتوح الإسلامية . فقد كان هناك ميراث ضخم من المرارة والشك المتبادل بين أتباع الكنائس المسيحية. وكانت الطوائف التي تتبع مذهب كنيسة الدولة تحظى بمسانبتها بطبيعة الحال، وعلى الجانب الآخر كانت الكنائس

المخالفة تلقى الاضطهادات العموية للعنفية، وتعانى من مصائرهم أملاكها ،  
وقتل أتباعها (مثلما حدث لشقيق بنيامين بطريرك الأقباط في مصر).

وعن الطبيبعى أن تكون رؤية المؤرخين المسيحيين الذين كتبوا عن  
الإسلام والمسلمين زمن الفتوح الإسلامية ملونة بألوان صورة العالم  
المسيحي آنذاك. لاسيما في الجزء الشرقى من هذا العالم. ومن المهم أن  
نلاحظ أيضا أنهم جميعاً كانوا من رجال الكنيسة. صحيح أن كتاباتهم  
كانت سلبية بتأثير خسارتهم التي تعطلت في تحول أتباعهم إلى الدين  
الإسلامي بشكل متزايد خلال القرنين التاليين لظهور الإسلام: بيد أننا  
ينبغي أن نضع في اعتبارنا أمرين غاية في الأهمية: أولهما ، أن غالبية  
هؤلاء الكتاب الذين كانوا من رجال الكنيسة المسيحية كما أسلفنا وكانوا  
يخطبون أقرانهم من رجال الكنيسة، كتبوا في مصطلحات مسيحية  
لتاريخية . وقد كانت الإنعيازات البيئية العاطفية مسة غالبة على كتاباتهم  
، كما أنهم فشلوا في التعرف على حقيقة الإسلام والفكر الإسلامي، أو  
عزلوا عن معرفته ، وكان قصدهم تشويه صورته أمام أتباعهم وحجب  
الحقيقة عنهم . وثانيهما، أن معرفة هؤلاء الكتاب بالمقائق الواقعية في  
عالم المسلمين الداخلي كانت محدودة وضئيلة من ناحية ، كما أن خطابهم  
كان دينياً ولم يكن رصداً لمقائق تاريخية في كثير من الأحيان.

ومع هذه التحفظات تبقى النصوص التي كتبها أولئك الكتاب  
المسيحيون عن الإسلام والمسلمين تحمل أصداء الحقيقة ، وبعض ملامح  
الصورة التاريخية. وربما يساعداً تطيل النصوص ومحاولة فهمها على  
فهم النفسية العامة للتخبة المسيحية، على الأقل إبان الفترة التي جرت

فيها وقائع الاحتكاكات والاتصالات الأولى بين المسلمين والمسيحيين في هذه المنطقة. ذلك أن اقتضارات المسلمين السريعة المذهلة على الجبهة الساسانية وعلى الجبهة البيزنطية في آن معاً ، والتي أدت إلى الاختفاء التاريخي لإمبراطورية الساسانيين وانتزاع معظم ممتلكات الإمبراطورية البيزنطية في حوض المتوسط، وتشيتت جيوش بيزنطة ، أثارت في عقول بعض المعاصرين تساؤلات مهمة حول مصير الإمبراطورية، والعون الرباني بل وصحة العقيدة المسيحية نفسها. ومن المناسب أن نقسم هذه النصوص تقسيماً يتماشى مع وجود كاتبها المكاني ؛ سواء في المناطق التي كانت ما تزال خاضعة للبيزنطيين ، أو في المناطق التي فتحها المسلمون، مع مراعاة أن نجمع ما كتبه أبناء كل طائفة مسيحية على هذه.

لقد كانت النصوص البيزنطية، أو التي كتبها المؤرخون ورجال الكنيسة البيزنطية، تختلف في نغمتها عن تلك النصوص التي كتبها الأرثوذكس من السريان، أو الأقباط ، ومن النصوص التي كتبها الأرمن ، ولكن تلك النصوص القليلة التي حفظها الزمن منذ ثلاثينيات القرن السابع الميلادي، تكاد تتفق جميعاً على تفسير الهزائم التي حلت بالبيزنطيين أمام جيوش المسلمين على أنها عقاب من الرب بسبب خطايا أتباع المذاهب المسيحية الأخرى، بل إن عدداً كبيراً من هذه الكتابات تلقى باليوم على هرقل وسياساته الكنعية والعسكرية في هذه الهزائم ، ولا ترقى في المسلمين سوى أداة الرب في إنزال هذا العقاب بالمسيحيين.

( ٢ )

## البيزنطيون

وأقدم الكتابات البيزنطية التي وصلتنا من ثلاثيات القرن السابع الميلادي هي تلك العظة الكنسية التي كتبها «صفرونيوس» أسقف بيت المقدس، وكان هذا الراهب من أهل دمشق حيث تعلم في صباه الفلسفة اليونانية والبلافة ، ثم سافر إلى الاسكندرية من سنة ٥٧٨م حتى سنة ٥٨٣م، حيث واصل دراسته في ظل التوجه الأخير للتعليم الكلاسيكي، وبعد أن أتم دراسته عاد إلى فلسطين حيث صار راهباً في دير سان ثيودوسيوس بالقرب من القدس . وبعد الغزو الفارسي لفلسطين هرب «صفرونيوس» إلى روما سنة ٦١٥م، كما أمضى بعض الوقت في شمال أفريقيا ليحوز إلى القدس بعد أن استعادها الإمبراطور هرقل من الفرس، ثم تمت رسامته بطريرك على مدينة بيت المقدس منذ سنة ٦٢٢م.

وبهذه الصفة واجه «صفرونيوس» المسلمين، وتفاوض مع عمر بن الخطاب على تسليم المدينة، وشهد بنفسه من سلوك الخليفة والمسلمين ما يتناقض مع كلماته المذمورة التي كتبها في موعظة عيد الميلاد سنة ٦٢٤م، ولكنه كان ما يزال على ثقة من أن الإمبراطور هرقل سوف يقدم لنجدة البلاد، ويتمكن من «... كسر غرور البرابرة جميعاً ، وخاصة السراكنة (المسلمين) الذين ظهروا الآن ضللتنا على غير انتظار نتيجة خطايانا،

فخربوا كل شئ بخطة قاسية وحشية، وفي وقاحة لاتعرف ديناً ، ولارب لها...» ففي عيد الميلاد لم يتمكن رجال الكنيسة في القدس من السير بموكبهم الديني إلى بيت لحم حسبما جرت العادة خوفاً من المسلمين، كما يقول صغرونيوس : «... ومثلما حدث ذات مرة من قبل جيش من الفلسطينيين ، استولى جيش السراكة الذين لايعرفون الرب على مدينة بيت لحم المقدسة، ومنعوا مرورنا إلى هناك وهددونا بالذبح والدمار إذا ما قاربنا هذه المدينة المقدسة...» ومع هذا كله كان صغرونيوس ما يزال على تفاؤله على الرغم من أن المسلمين منعوه من الاقتراب من بيت لحم «... فإذا لبنا ، وكفرنا من خطايانا، فإننا سوف نضحك على زوال أعدائنا المسلمين، وفي فترة زمنية وجيزة سنشهد بمارهم وهلاكهم التام. لأن سيوفهم النمرية سوف تنغرس في قلوبهم ، كما أن قسبهم سوف تنكسر ، أما سهامهم فسنبقي ملتصقة بهم، وسوف يفتحون الطريق أمامنا إلى بيت لحم...».

ولكن تفاؤل صغرونيوس تخطى من مكانه لدمر حقيقي عندما كتب موعظته سنة ٦٢٧م مشيراً إلى أن الهزائم البيزنطية كانت نتيجة غضب الرب بسبب خطايا البيزنطيين وإعمالهم : فلماذا يتم شن الصروب علينا ؟ لماذا تتضاعف حملات البرابرة ؟ لماذا تقوم جماعات العرب ضدنا ؟ لماذا يتزايد الخراب والصومسية ؟ لماذا تعميل الدماء يوماً انقطاع ؟ لماذا تلتهم جوارح السماء أجساد البشر؟ لماذا يتعرض الصليب للسخرية ؟ لماذا يهين البراهمة المسيح نفسه ، وهو الواهب لكل الأمور الحسنة ، ومأنح النور لنا؟ ومثل يوحنا يارينكاوي، وجد صغرونيوس لنفسه الإجابة المريحة على

أُسئلته الحيرى المنعورة : «... ما كان لهؤلاء للتسعين أن يحققوا ذلك، أو يقولوا على فعل مثل هذه الأمور، أو التفتوه بها، لولا أننا نحن بأنفسنا ننسنا للمقاصد ، وأسألتنا بذلك إلى المسيح الذى وهبنا النعم فجلبتنا على أنفسنا هذه النعمة...». ومرة أخرى كان رأى صفرونيوس مثل رأى الراهب النسطورى أن المسلمين (المسراكنة) كانوا أداة الرب لعقاب النصراني جزاء خطاياهم وأثامهم «... فقد همروا كل شئ فى حلق واندفاع حيوانى ، بهجة شريرة ألמה...».

وكان هناك رجل كنيسة آخر معاصراً لصفرونيوس ، وهو صديقه مكسيموس المعترف الذى كان قد قابلته فى شمال أفريقيا أثناء فترة هروبه من الغزو الفارسى للقسطنطين، سنة ٦١٥م. وكانت العبارات التى وصف بها مكسيموس هذا انتصارات المسلمين على جيوش الإمبراطورية البيزنطية عبارات مذعورة من قبيل وصفه لما حدث بأنه أمر «خطير» و«رهيب»، «ومخيف» ، «ويبعث على الرثاء».

ومما يلفت النظر أن ما كتبه هذان الراهبان كان تعبيراً عن الذعر الذى انتاب كلاهما وهو يشهد العالم الذى ينتمى إليه يتلاشى فى ضباب المجهول على حين يتشكل عالم جديد لا يعرف أى منهما شيئاً عنه . كما أن ما كتبه لم يحمل أية صورة «تاريخية» لما حدث وإنما كان رثاء «دينيا» وعاطفياً للعالم الذى عاشا فى رحابه . لقد كان ذلك العالم المسيحى فى حوض البحر المتوسط بمنهجه الأرثوذكسى، ولغته اليونانية الطنانة، ينكسر ويتبعثر أشلاقه تحت وطأة الفتوح الإسلامية؛ فلم يلبث صفرونيوس أن



سلم مدينة القدس بنفسه إلى الخليفة عمر بن الخطاب . ولم يكن أمامه  
بديل سوى التفاوض مع المسلمين، وأصر على تسليم المدينة إلى الخليفة  
نفسه .

ومن المهم أن نشير إلى أن فتح مدينة القدس كانت له قيمة رمزية  
ودينية، ولم تكن له قيمة عسكرية كبيرة؛ فضلاً عن أنه كان «فتحاً سلمياً» ؛  
فلم يكن ثمة قتال ولكن القدس فتحت صلحاً . والقدس ذات أهمية فائقة  
بالنسبة للمسيحيين لارتباطها بقصة المسيح على الأرض، كما أنها ذات  
أهمية عظمى بالنسبة للمسلمين باعتبارها أولى القبلتين وثالث الحرمين من  
ناحية ، ولارتباطها بقصة الإسراء الإعجازية التي ورد ذكرها في القرآن  
الكريم من ناحية أخرى. كما أن قبة الصخرة التي ترتبط بقصة الإسراء  
والمعراج تعتبر ثالث الأماكن المقدسة بعد مكة المكرمة والمدينة المنورة في  
الحجاز.

وتحكي المصادر التاريخية العربية أنه بعد أن تم الاتفاق على تسليم  
القدس «صكحاً» أعطى الخليفة عمر بن الخطاب الأمان لأهل القدس، وفي  
هذا العهد الذي نسب للخليفة العظيم تم وضع أسس التعامل بين المسلمين  
والنصارى فيما يعرف باسم «العهد العمرى». وقد أورد الطبري نص ذلك  
العهد على النحو التالي:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

هذا ما أعطى عبدالله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان: أعطاهم  
أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم ، ومعقيهم ويزيئهم وسائر

ملتها، أنه لا يمكن كتمانهم ولا تهم ، ولا ينتقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن يبليلاء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منهم الروم واللصوت (الصوحى) فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومن أقام منهم فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بينهم وسكبتهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وسكبتهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قمعوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية . ومن شاء صار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصى حصادهم، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله ونهية رسوله ونهية الخلفاء ونهية المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية . شهد على ذلك خالد بن الوليد ومرو بن الحارث وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة خمس عشرة.

وليس هناك وسيلة ، أو مصدر تاريخى ، حتى الآن يمكننا من معرفة ما إذا كان هذا هو النص الحقيقى لعهد عمر أم لا . ولكن الثابت على أية حال ، ويفض النظر عن التصوص، أن الخليفة قد أعطى عهداً بالأمان لسكان القدس من النصارى، وقد تكررت عهود الأمان التى أعطاهم الفاتحون المسلمون لأهل البلاد التى فتحت صلحاً . ولكن هذا العهد

يكتسب أهمية خاصة لأنه كان قائماً على سلطة الخليفة العظيم عمر بن الخطاب؛ وهي سلطة لا يمكن لأحد أن يشكك فيها بطبيعة الحال. وقد ظلت هذه الوثيقة ، بصيغاتها المختلفة التي اصطلح المؤرخون والفقهاء على تسميتها «الشروط العمرية» فيما بعد ، تحكم العلاقات بين المسلمين والمسيحيين بشكل أو بآخر طوال القرون التالية.

وعلى أية حال، كان سلوك صفرونيوس بطريرك بيت المقدس تجاه الخليفة عمر بن الخطاب والمسلمين وبداً بطريقة تثير الدهشة من أفكاره التي هبرت منها عظام العدائية وتطورت السوداوية تجاه المسلمين؛ لقد كتب أنهم قوم بلا رب ، ونعاسي عن حقيقة أنهم أصحاب دين جديد ومع ذلك تعامل معهم بمودة ربما كانت نوحاً من النفاق والمداينة تحت وطأة الظروف العسكرية والسياسية غير المواتية.

ويبدو أن المؤرخ والراهب البيزنطي ثيوفانيس Theophanes ، الذي كتب في مطلع القرن التاسع الميلادي/ الثالث الهجري، كان يعرف شيئاً عن أحوال الإسلام والمسلمين ، ويغض النظر عن إنكاره

لنبوة النبي محمد عليه الصلاة والسلام، وانتماءاته التي كساها ثوب التاريخ، فإنه كان يعرف الخطوط العريضة لسيرة النبي؛ فقد كتب في مؤرخته عن سنة ٦٢٩م - ٦٣٠م : «... في هذه السنة مات محمد ، زعيم السراكنة، وتديهم المزيقه بعد أن حل محله في الرئاسة أبويكر. وفي بداية ظهوره ظن اليهود الضالون أنه هو المسيح الذي ينتظرونه ، لدرجة أن بعض قائلتهم انضموا إليه، وقبلوا بليانته وتخلوا عن بيانة موسى الذي

رأى الرب . وكان الذين فطوا هذا عشرة عدااء ، وقد بقوا معه حتى اغتياه ، ولكنه عندما رأوه يتكل لحم الجمل أنركوا أنه ليس من حسبهم مخلصهم... وقد طعمه أولئك الرجال الأشرار أموراً محظورة موجهة ضدنا نحن المسيحيين ، وظلوا معه...»

ومن الواضح تماماً أن ثيوفانيس كان يعرف قدرًا كبيراً من حقيقة الدين الإسلامي وسيرة النبي عليه الصلاة والسلام، وأحداث التاريخ الإسلامي ، ولكنه كان أيضاً يستثير عداوة من يكتب لهم ضد الإسلام والمسلمين بما يطرحه من أكاذيب وتهم باطلة ، وليس من المتصور أن يكون هذا الراهب المتعلم جاهلاً بحقيقة أن النبي جاء بدين جديد، وأن هذا الدين لم يكن سوى ضلالة خدعت اليهود. ولكن الراجح أن ثيوفانيس كان يتجاهل ما بات معروفا بالضرورة في زمانه عن حقائق الإسلام بعد أن زادت أعداد المسلمين بحيث صاروا أغلبية سكان شرق المتوسط . بل إنه يقحم اليهود في الصورة التي يرسمها بقلمه لكي يزيد من حدة العداة للإسلام؛ ويواصل الراهب البيزنطي كلامه:

« ... وأرى من الضروري أن أقدم تقريراً عن أصل هذا الرجل؛ فقد كان ينتمي إلى قبيلة كبيرة واسعة الانتشار، هي قبيلة اسماعيل من نسل إبراهيم، لأن نزار من نسل اسماعيل هو الأب الذي يعترفون به أباً لهم جميعاً، وقد أنجب ولدين هما مضر وربيعة، ومن أبناء مضر قريش (كوراسوس) ... وسكنوا صحراء مدين حيث كانوا يرهون أغنامهم ويعيشون في القيام ... ولأن محمداً كان معدماً ويتيماً ، قرر الالتحاق بخدمة امرأة ثرية اسمها خبيجة ليتولى تجارتها في مصر وفلسطين

يقوافل الجمال ، ثم اتخذها زوجة واستولى على أملاكها . وكان كلما جاء إلى فلسطين يجتمع بالنصارى واليهود ويسألهم عن مسائل روحية معينة . وكان مصاباً بالصرع ، وحزنت زوجته ، واستمر يخدمها بقوله إنه يرى ملاكاً اسمه جبريل ، ويقول لها إننى لا أتحمل رؤيته فيبقى على . وكان لها صديق محروم من الكنيسة بسبب عقيدته الخاطئة ، فعكست له كل شئ ، وأراد أن يرضيها فقال لها إنه يقول الحق . وعندما سمعت ما قاله الراهب الزائف كانت أول من آمن بمحمد وأخبرت بقية نساء القبيلة إنه نبي . وهكذا انتظر الخير من النساء إلى الرجال وأولهم أبوبكر الذى تركه خليفة له . وقد ساءت هذه الهرطقة فى إقليم إثريوس بالحرب فى نهاية المطاف : فى البداية سرّاً على مدى عشر سنوات ، ثم بالحرب على مدى عشر سنوات أخرى ، وعلمنا على امتداد تسع سنوات . وقد حلم رعاياه أن من يقتل عدواً ، أو يقتله عدو ، يذهب إلى القديس ؛ وقال إن هذا القديس يهنا فيه المرء بالطعام والشراب ومضاجعة النساء ، وبه نهر من الخمر ، ونهر من العسل ونهر من اللبن ، كما أن النساء فيه لسن مثل النساء فى هذه الدنيا ولكنهن مختلفات والجماع يستمر فترة طويلة ، وذكر أموراً أخرى كثيرة مليئة بالخلامة والبلاهة ؛ كما قال إنه ينبغي على الرجال أيضاً أن يتعاطفوا ويتواصموا فيما بينهم ، وطيهم مساعدة الذين أخطأوا .

هكذا عبر ثيوفانيس الراهب البيزنطى عن التصورات التى حكمت رجال الكنيسة البيزنطية ، كما كشف عن انحيازاتهم بعد مرور أكثر من

قرن ونصف قرن على ظهور الإسلام. فقد كان ذلك الراهب الذي عاش معظم حياته في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي (مات سنة ٨١٨م) يحاول إبعاد رعايا كنيسة عن معرفة الإسلام بما كتبه عن النبي وعن الإسلام. وعلى الرغم من أن ما كتبه يشي بمعرفته الجيدة بالإسلام وبسيرة النبي، فإنه لم يتورع عن التشويه العمدى. ولكن هذا الراهب، من ناحية أخرى، يختلف بشكل واضح عن صفرونيوس أسقف بيت المقدس وصديقه مكسيموس المعترف اللذين عاشا في النصف الأول من القرن السابع الميلادي، وحاصرا ظهور الإسلام وحركة الفتوح الإسلامية المبكرة؛ فقد كان هذان الإثنين يتعيان عليهما النى عاشا في رحابه، وكان يتلاشى أمام ناظريهما. ولكن ثيوفانس كان يعيش في عالم مختلف كان الوجود الإسلامى أحد معالمه الأساسية على المستوى السياسى والعسكرى والاجتماعى. وكان المسلمون آنذاك (تحت حكم الدولة العباسية) جارا قويا غنيا ومهابا بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية التى كان ذلك الراهب من رعاياها؛ ومن جاءت كتابات ثيوفانيس عن الإسلام والمسلمين، على الرغم من لهجتها العدائية، أقرب ما تكون إلى لغة الاعتراف بالأمر الواقع والتعايش معه. والدليل على هذا يتجسد فى حقيقة أن ثيوفانيس يبدأ نكروايات كل سنة من سنوات مؤرخته، بنكر إسم الإمبراطور القائم على عرش الإمبراطورية البيزنطية، ثم إسم الخليفة المسلم (زعيم العرب) يليه اسم أسقف القسطنطينية الموجود.

ومن الواضح أن ثيوفانيس اعتمد فى كتابة تاريخ الفترة السابقة على عصره على مصادر عربية أو سريانية تمت ترجمتها إلى اللغة اليونانية،



وربما يكون قد اعتمد أيضا على التراث الشفوي المتداول عن الفترة  
الباكرة في تاريخ المسلمين وحركة الفتوح الإسلامية ؛ وهو أمر يمكن أن  
نفهمه بشكل مريح إذا ما وضعنا في اعتبارنا كيفية تأليف كتاب الطبرى  
منهم ، وكتاب عبد الرحمن بن عبد الحكم عن فتوح مصر والمغرب ، وغيرهما  
، وعلى أية حال ، كان ثيوفانيس يعكس موقف رجال الكنيسة البيزنطية  
الذين ساعهم انتشار الدين الإسلامى على حساب كنائسهم من ناحية ، ولم  
يتقبلوا فكرة انهيار سلطة كنيستهم على الكنائس التى دخلت فى رحاب  
الدولة الإسلامية من ناحية ثانية ، فضلا عن الإحباط الذى نالهم من جراء  
تقلص مساحة دولتهم من ناحية ثالثة. بيد أن كتاباته بشكل عام معتدلة  
نسبياً ، ولم تكن تحمل ذلك الطابع الهيستيري الذى نجده فى كتابات  
الأوربيين الغربيين عن الإسلام والمسلمين .

وتكشف كتاباته عن معرفة جيدة وإطلاع واسع على أخبار الدولة  
العربية الإسلامية ؛ فهو يتحدث عن خالد بن الوليد ، مثلا ، بقوله : «... كان  
منهم أمير اسمه خالد يسمى سيف الله...» فى إشارة إلى اللقب الذى  
أطلقه الرسول عليه الصلاة والسلام على ذلك القائد الفذ. وتبدو فى رواية  
ثيوفانيس أصداء رواية أوربما الطبرى عن حوار جرى بين خالد بن الوليد  
والقائد الأرمنى المنصور «جرجة» (جوريا) قبيل معركة اليرموك مباشرة «...  
قال إن الله عز وجل بعث فينا نبيا، صلى الله عليه وسلم ، قدامنا فنفرنا  
عنه... ثم إن الله أخذ بقلوبنا وتواصيتنا فهدانا به فتابعناه ، فقال أنت  
سيف من سيوف الله ملء على المشركين ودعا لى بالنصر ؛ فسميت سيف  
الله بذلك ، قلنا من أشد المسلمين على المشركين...».

وهو يتابع أخبار المسلمين بشكل مستمر ومتواصل منذ خلافة أبي بكر الصديق الذي يسميه «أيووخاروس» وعمر بن الخطاب الذي يسميه «أوفاروس» . ويحدثنا عن تسليم بيت المقدس ولكنه يحكى أن الخليفة دخل المدينة المقدسة بثياب بسيطة من وير الجمال ، وعندما عرض عليه صفرونيوس ثياباً فاخرة أبى أن يلبسها ، ثم قبل أن يتخذ من صفرونيوس ثياباً يضعها ريثما يغسل ثوبه ، وأعادها إليه ثانية بعدما ارتدى ثوبه الأصلي. ومن ناحية أخرى ربط ثيوفانيس، بأسلوب النبوة، بين الفتح الإسلامية وظهور علامة في السماء على شكل سيف زعم أنها كانت تتحرك من الجنوب صوب الشمال. وربما يكون مناصباً في هذه النقطة أن نورد نصاً لثيوفانيس كتبه من حوادث سنة ٨٠٦م عن الحملة التي شنّها الخليفة العباسي هارون الرشيد ضد الإمبراطورية البيزنطية ردّاً على خطاب مهين تلقاه من الإمبراطور نقفوروس . وهذه الفقرة التي كتبها ثيوفانيس تكشف عن أنه كان يكتب بلغة التعامش مع الأمر الواقع ورصد أحداثه التاريخية ، فالنص يخلو من الأوصاف العدائية المعتادة في كتابات المؤرخين البيزنطيين آنذاك:

«... في هذه السنة نفسها قام أرون (هارون الرشيد) ، زعيم العرب ، بغزو البلاد الرومانية بقوات كبيرة ... وفي بيتا لعبادته المنحرفة (مسجداً) ، واستولى على قلعة هرقليا الحصينة جداً بعد فترة من الحصار ... وأرسل تقفوروس التي تملكه النعر أحد رجال الكنييسة إلى هارون الرشيد ... يطلب الصلح... ويعد مفاوضات كثيرة تم عقد الصلح

بشرط دفع جزية سنوية قدرها ثلاثين ألف نوميسماتا للعرب ، وضريبة رأس قدرها ثلاث نوميسمات عن كل من الإمبراطور وابنه ... ولما قبلت هذه الشروط قرع هارون على نحو أكبر مما كان يمكن أن يحدث لو أخذ عشرة آلاف تالنت ، لأنه أخضع الإمبراطورية الرومانية..».

هنا تحدث ثيوفانيس بوصفه مؤرخاً يرقى مسجوح الرهبان ولكنه يسجل الحوادث التاريخية التي كان شاهد عيان عليها. ولكن المصادر البيزنطية التي تتحدث عن الفترة الباكرة من تاريخ العلاقات بين الإمبراطورية البيزنطية والقوة الإسلامية البازغة ، ولاسيما في عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠-٦٤١م) قليلة، وأكثرها كتبت في وقت لاحق وتلونت بلون العصر الذي كتبت فيه مثل ثيوفانيس وزانوراس الذي كتب في القرن التاسع أيضا . وقد خلط زانوراس خلطاً كبيراً في رواية الأحداث التاريخية، كما أن العداء كان واضحاً فيما كتبه عن الإسلام والمسلمين، وقد زعم أن النبي عليه الصلاة والسلام قد تفاوض مع الإمبراطور هرقل لعقد معاهدة تضمن حرية التجارة والترحال فيما بين شبه الجزيرة العربية والأراضي البيزنطية.

لقد اتسمت الكتابات البيزنطية بشكل عام ، في تناولها للإسلام وأحداث الفتح الإسلامية بالعاطفية والانحياز ، كما أنه لا يمكن الاعتماد عليها في المعرفة الموضوعية لما حدث تاريخياً . صحيح أنها تزودنا ببعض المعلومات عن الانطباعات لدى أبناء النخبة البيزنطية عن الإسلام، ولكنها لا توفر لنا أي قدر من المعرفة بموقف عامة الناس من جماهير المدن أو

عامة الفلاحين ، أو حتى عامة جنود الجيوش البيزنطية ورأيهم فيما كان يجري أمامهم. ومن المؤلم أننا لانملك وسيلة أخرى غير الاستنباط والقياس لمعرفة ما يتعلق بمواقف الناس العاديين واتجاهاتهم . فقد كانوا ، كما هو الحال دائماً ، الأغلبية الصامتة التي لم يهتم المؤرخون الكنسيون ، أو غيرهم ، بتسجيل مواقفها . وعلى العموم ، كانت الكتابات البيزنطية تحمل رنة العداء والجهل التي ميزت مواقف رجال الكنيسة الذين كتبوها . بيد أن العالم الحقيقي ، الذي لم يكتب عنه الرهبان والقساوسة ، كان هاماً مختلفاً تحكمه الحقائق التاريخية على أرض الواقع لا التصورات والانصيافات التي حكمت رجال الكنيسة سواء في العظات التي ألقوها على مسامع رعاياهم ، أو في المراثي الشعرية التي كتبوها عن مدنهم وعالمهم الذي اختلف من الوجود. ويمكن لنا أن نتأكد من إيجابية هذا الاستنباط إذا ما فكرنا في أن الأسلمة والتعريب قد حققا نجاحاً سريعاً ومذهلاً ، وباقياً ، في غضون قرنين أو ثلاثة قرون. ولم تذكر المصادر التاريخية ، والمسيحية منها خاصة ، أن المسلمين قد ضغطوا على أبناء البلاد التي فتحوها لكي يعتنقوا الإسلام ، أو أنهم حتى كانوا يشجعونهم على ذلك ، وهو ما يعنى في التحليل الأخير أن الناس العاديين الذين عاشوا في العالم الحقيقي كانت لهم مواقف وآراء تختلف بالضرورة عن عالم كتابات رجال الكنيسة الذين كانوا يدافعون في هذه الكتابات عن مصالحهم ؛ بل كانوا يدافعون عن مبرر وجوبهم. وقد تجلت هذه المواقف والآراء في إقبالهم على اعتناق الإسلام واتخاذ اللغة العربية لغة للفكر والأدب والعلم ، والحياة اليومية أيضاً .

## ( ٣ )

## السُريان

أما المصادر السُريانية ، فكانت تحمل نفحة عدااء واضحة تجاه الإسلام والمسلمين. ولاغربة في هذا ؛ إذ كان مؤلفوها أيضاً من رجال الكنيسة ، وهي تشترك مع المصادر البيزنطية في طابعها العاطفي المتحصب وفي رؤية ظهور الإسلام والفتوح الإسلامية على أنها عقاب أنزله الرب بالنصارى من أبناء الطوائف الأخرى بسبب خطاياهم . وعلى الرغم من أن المصادر السُريانية بشكل عام تحمل قدراً وافراً من المطومات عن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في ذلك النور الباكر من تاريخها ، وأوضاع النصارى في المناطق التي خضعت للحكم العربي الإسلامي فإنها تحمل رؤية كنسية صارخة تشوش الكثير من ملامح الصورة. وفي رأى بعض الباحثين أن رجال الدين المسيحي من السُريان كانوا يتعمدون إخفاء حقيقة الإسلام عن رعاياهم. ولعل هذا يفسر لنا السبب في عدم إشارة أولئك الكتاب إلى أن الدين الإسلامي كان شيئاً جديداً بالفعل، واكتفائهم بوصف المسلمين باعتبارهم أدوات غضب الرب الذي أنزله على أولئك الذين خالفوه .

وفي محاولة لتبرير ظهور الإسلام على هذا النحو لجأ أحد الكتاب من رجال الكنيسة السُريانية إلى صيغة «التبوء» المتطرفة بتهاية العالم (وهي صيغة انتشرت كثيراً في كتابات رجال الكنائس الشرقية استجابة لظهور

الإسلام وانتصار المسلمين) . وهذه النبوة كتبها مجهول انتحل اسم «ميثوديوس» أسقف الأوليمب الذي قتل سنة ٢١٢م ، أى قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون تقريباً؛ ولهذا تعرف باسم «نبوة ميثوديوس» المزيف . ومن المرجح أن يكون الراهب المجهول فى أثناء الجيلين اللذين تلبا الفتح الإسلامية، أى فى أواخر القرن السابع الميلادى، وقد كتبت النبوة أصلاً باللغة السريانية ، ثم ترجمت فى وقت لاحق إلى اليونانية واللاتينية؛ وهو ما يدل على أن هذه «النبوة» كانت تلقى رواجاً فى الأوساط الكنسية. وربما كان إفراطها فى التنكيل اللفظى والخيالى بالمسلمين وراء هذا الرواج.

ويدور نص هذه «النبوة» بآثر رجعى، حول أن نهاية العالم «سوف» تبدو قريبة عندما يظهر الإسماعيليون (العرب) الذين «سوف» يهزمون مملكة الروم. لقد كان مؤلف هذا النص يتحدث عما حدث فى القرن السابع الميلادى وكأنه يتنبأ بها فى المستقبل ؛ ومن ثم كان غريباً أن يحكى ما حدث فى الماضى بلغة المستقبل، وعلى أية حال، كانت مثل هذه الكتابات التى تحمل شكل النبوة شائعة فى الألب الدينى المسيحى الذى كتبه الرهبان والقساوسة من أتباع الكنائس الشرقية . ولم تكن هذه الكتابات «تاريخية» بآى معنى من المعانى؛ ولكن قيمتها تتمثل فى أنها تعكس لنا وجهات نظر رجال الكنائس الشرقية ونوعية استجاباتهم تجاه ظهور الإسلام ونجاح المسلمين العسكرى والسياسى.

لقد كانت هذه النبوة المصطنعة تصف بخيال شرير ما تصور كاتبها المذمور أنه يمكن أن يتصيه إلى المسلمين من وحشية وضراوة ؛ ولما كانت حقائق التاريخ لاتسعه ، فقد لجأ إلى خياله السقيم:

« ... سيكون طريق تقصمهم من بحر إلى بحر ، ومن الشرق إلى الغرب ، ومن الشمال حتى صحراء يثرب . ستكون طريق قولجوع وميسير عليها المسنون رجالاً وتسما ، أفتياء وفقراء ، على حين يقاسى الجميع من الجوع والعطش ، ويرسفون في القيود الثقيلة إلى المنطقة التي يصلون فيها على الموتى . لأن هذه هي العقوبات التي تحدث عنها الرسول ... هذا العقاب لن يحل بالبشر وحدهم ؛ وإنما سيطول أيضاً كافة ما هو على سطح الأرض - الرجال والنسوة والأطفال ، والحيوانات والناشية والطيور . وسوف يتعذب الناس بهذا العقاب - الأزواج وزوجاتهم وأطفالهم ، النباتات والمزروعات والممتلكات ؛ المعوز والضعيف ، والمريض والقوى ، والفقير والغنى لأن الرب سمي جدهم الأعلى اسماعيل «جشش البرية الوحشي» . وسوف تعاني الفزلان ، ومعها كل الحيوانات البرية ، أو في الأرض المزروعة ، وسوف يطول بالناس ظلم الاضطهاد ، وموت الحيوانات الأليفة والبرية ، وسوف يحرق النمار بأجمل نباتات الجبال ، وتخرب المن الزاهرة . وتبقى الأقاليم خاوية موحشة لا يجتازها أحد : وسوف تلوث الأرض ، وتحرم من نتائجها .

«لأن هؤلاء الطفلة ليسوا رجالاً ، إنما هم أبناء الخراب ، فإنهم يقجهون إلى التدمير ، لأنهم منمررون ... إنهم هم النمار وسوف يتطلقون لتدمير كل شئ . فهم ملوثون يحيون التلوث . وعند انطلاقهم من البرية سوف يخطفون الأطفال من أحضان أمهاتهم لكي يضرروهم في الأحجار ، كما لو كانوا حيوانات قنرة ...

«وسوف يضحون بخدام الساحة المقدسة، بل إنهم سوف يضاجعون نساءهم وسباياهم داخل الساحة المقدسة، وسوف يأخذون الأربية المقدسة لأنفسهم ولبنينهم ، وسوف يربطون ماشيتهم إلى تواييت الشهداء ، وقبور القديسين . إنهم سفاحون متفطرسون ، مخربون يسفكون الدماء : إنهم قادمون لكي يكونوا بوتقة الاختيار لكافة النصارى...» .

ثم تحدث النبوة المصطنعة عن الوفاء القادم، والمصاعب التي «سوف» تجم عنه، والمتاعب التي «سوف» تتسبب فيها الضرائب بحيث «... يبيع الناس نحاسهم وحديدهم وأكفانهم...» ولكن النص يحمى ليقول إن الفرج سوف يأتي بصورة إجازية عندما يهاجم ملك الروم الإسماعيليين، فتقلب الآية، ويحى دور العرب في المعاناة. وهنا يعن كاتب هذه النبوة في «التنبؤ» بالمتاعب والشدائد التي سوف تحل بالعرب ، ويتلذذ وهو يتصور معاناتهم الخيالية ثم يقول إن ملك الروم سوف يترك حرشه ليعيش في بيت المقدس بعد أن يقوم أحد ملائكة الرب بتدمير المسلمين في لحظة واحدة. ثم يحى المسيح لينهى وجود «ابن الهلاك» أو المسيح الدجال في فلسطين ... ثم تنتهى النبوة.

وإذا كنا قد عرضنا لهذه «النبوة» المصطنعة بالتفصيل ، فإن هدفنا أن نوضح أن كاتبها ، الذي يرجع أنه كان راهباً منعزلاً يعيش في دير شمال الشام ، كان يعيش عالماً من اصطلاح خياله الشرير بعيداً عن التاريخ ؛ ولم يكن يقامر على أن يكتب هذا العبث الواهي سوى في صيغة النبوة ليكتب ما يحلو له ، وايشتم ويسب ويفحش في القول على هذا النحو الفج. وعلى الرغم من أن بعض الباحثين الغربيين يرى أن هذه



الكتابة ربما كانت تعكس صورت النصارى فى المناطق الخاضعة لحكم الدولة العربية الإسلامية، فإن الأدلة التاريخية المتوافرة تثبت أن صاحب هذا الخيال السقيم كان أسير بنياه الخاصة ، وعالمه الفكرى الضيق . وقد راعه ما حدث من انهيار لعالم المسيحية الشرقية بصفة عامة على المستوى العسكرى والسياسى والدينى، كما أصابه الضر من فقدان مكانته ، واضطراره إلى دفع الضرائب مثل سائر الناس (على الرغم من أن الرهبان كانوا يعمون من دفع الجزية بشرط انقطاعهم فى أديرتهم بإجماع الفقهاء المسلمين) ، ومن ناحية أخرى، ليست لدينا رواية واحدة تتحدث عن أن المسلمين فعلوا هذه الفظائع التى تحدث عنها هذا الراهب فى نبؤته ، أو شيئاً قريباً منها . لقد كان العكس هو الصحيح باستمرار، ونجمع المصادر على أن نصارى الشرق إجمالاً رأوا فى قدوم العرب نوماً من الخلاص من الحكم البيزنطى الكريه، والتسلط الظقونى المقيت ، كما سنرى فى الصفحات القادمة . لقد كان «ثيوفوسيوس المزيف» هذا يعيش فى دنياه الخاصة التى كانت تختلف بالضرورة من دنيا الناس الحقيقية .

بيد أن هذا النص، بلفظه الهيستيرية ، يعتبر فى الحقيقة خروجاً على النعمة المعتدلة نسبياً التى ميزت كتابات رجال الكنائس الشرقية من الإسلام والمسلمين، فقد كانت المصادر السريانية ، التى كان كتابها من رجال الكنيسة كما أشرنا من قبله تتخذ موقفاً معادياً من الإسلام والمسلمين بطبيعة الحال، ولكنها لم تكن هيستيرية عنيفة على هذا النحو . وفى محاولة لتبرير ظهور الإسلام تحدثت بعض المصادر السريانية عن أن نجوماً ظهرت فى السماء تنذر بأن كارثة سوف تحل على العالم، وأن الرب

عاقب النصارى بظهور الإسلام لأنهم لم يلتزموا بدينهم وسانت بينهم شريعة الغاب حسبيما يقول ميخائيل السرياني مثلاً ، وهو يطلق على الفاتحين إسم «العرب» ولا يسميهم «المسلمين» ؛ ربما في إشارة واضحة على عدم اعترافه هو وغيره من الكتاب السريان بأن المسلمين أصحاب دين جديد. ويؤكد الكتاب المسيحيون السريان عامة على أن العرب جُبلوا على الغيرة وحدة الطبع ويتهمونهم بالظلم والشراسة . ومن الطبيعي أن يركزوا في كتاباتهم على الحالات التي كان سلوك الخلفاء والولاة تجاه رعاياهم عنيفاً . وهو أمر لم يحدث سوى في القرن الهجري الثالث/ التاسع الميلادي في بعض الأماكن ونتيجة ظروف سياسية معينة على أية حال.

ولكن فيما يتعلق بالفتوح الإسلامية اهتمت المصادر السريانية عمومًا بتسجيل الحوادث العنيفة التي تنجم عن الحروب عادة. وقد رجعت الممارك التي دارت بين المسلمين والبيزنطيين وعلى الرغم من العداء المذهبي مع الكنيسة البيزنطية فإن الكتابات السريانية حرصت على أن تصور البيزنطيين في صورة المصلحين الذين يهاجمهم المسلمون ويشنون الحرب عليهم بهدف قتل النصارى، وسلب أموالهم، واسترقاقهم ، وحرق مزارعهم ... وما إلى ذلك. وكان طبيعيًا ألا يحاول رجال الدين السريان في كتاباتهم بحث العلاقة السببية الموضوعية في الحوادث التاريخية . ولأن تقاليد الكتابة «التاريخية» المسيحية في ذلك الحين كانت قائمة على أساس أن الرب هو كاتب قصة الخليقة ؛ ومن ثم فهو يعرف بداية القصة ونهايتها فإن أولئك «المؤرخون» حاولوا قولبة الحوادث داخل السياق الإلهي لا

الفعاليات البشرية ؛ ولذلك ففسروا كل الحوادث في ضوء فكرة الإرادة الربانية . فانتصار المسلمين وانكسار المسيحيين «مشيئة الرب» . والحروب الأهلية التي نشبت بين المسلمين عقب مقتل الخليفة عثمان بن عفان عقاب من الرب أنزله عليهم جزاء ظلمهم للبشرية ، وانتهاكهم الحرمات.

بيد أن هذا الموقف الذي ميز كتابات المؤرخين السريان الذين كتبوا في فترة زمنية متأخرة ، مثل ميخائيل السرياني ، بطريرك أنطاكية (٥٦٢-٥٩٣ هـ / ١١٦٦-١١٩٦ م) ، يوضح أنهم تأثروا بلجواء الحروب الصليبية وعكسوا مشاعرهم على ما سجلوه عن الأحداث التي كانت قد جرت قبل خمسة قرون من زمانهم ، فإن السريان الذين عاشوا زمن الفتح الإسلامية أو قريباً منها كان لهم رأي آخر، وموقف آخر، بسبب عدائهم المذهبي لكنيسة الدولة البيزنطية. فهناك راهب سرياني اسمه «مار جبريل» مات سنة ٦٦٧ م ، وكان مقدم الرهبان في دير قرطمين بجبال طورابدين، جنوب شرق تركيا الحالية، قرب أهالي المراق (وما يزال هذا الدير القديم موجوداً ويحظى بتبجيل المسيحيين الشرقيين حتى يومنا هذا) . وقد كانت قرطمين أحد معاقل الأرثوذكس السريان الراضين لمذهب الكنيسة البيزنطية الترفيقي مما عرضهم للاضطهاد والأذى . وكان «جبريل» هذا يرى أن الحكم الإسلامي فرصة بالنسبة لقومه ، وليس كارثة . ويحكي كاتب سيرته هذه الرواية:

«... فضل مار جبريل مجيء العرب على اضطهادات الروم؛ ولذلك قدم لهم العون ومساعدتهم . ثم ذهب يعد ذلك للقاء أميرهم في الجزيرة (أعالي

العراق) ، فاستقبله بفرح كبير، وأكرمه كثيراً بسبب ما قطعه لصالحهم وأعطاه مرسوماً وقعه بيده يأمر بتنفيذ كل ما طلبه. وفى هذا المرسوم منع السريان الأرثوذكس جميعاً حرية ممارسة عبادتهم وشعائهم فى كنائسهم- وطرق العمائد (أى اللوح الخشبي الذى يثبت عليه فى الكنائس الشرقية لدعوة المسيحيين إلى الصلاة) ، واحتفالات المهرجان ، ومواكب الجنائز وبناء الكنائس والأديرة ، كما ألقى القساوسة والشمامسة والرهبان من الجزية ، على حين ثبت الجزية على الآخرين عند أربعة نراهم (وهو مبلغ زهيد) . وأصدر تعليماته إلى العرب بالحفاظ تماماً على أرواح السريان الأرثوذكس....».

هذا نجد تناقضاً صارخاً مع ما كتبه الراهب صاحب «النبوءة» المزيفة؛ فقد كتب مؤلف سيرة مار جبريل مما حدث بالفعل على حين تحدثت «النبوءة» عن تصورات لم تحدث سوى فى خيال مؤلفها . وربما كانت سيرة هذا الراهب السريانى ثانياً قوياً على أن السريان ساعدوا المسلمين فى فتح هذه المناطق ؛ وهو أمر ينكره بعض الباحثين الغربيين المحدثين مثلما رفض بتر ، فى كتابه عن «فتح العرب لمصر» أن يعترف بما قدمه أقباط مصر من مساعدات لجيش عمرو بن العاص ضد البيزنطيين إنطلاقاً من حماسته الغربية لتبرئتهم من هذه «الخيانة» . وهو موقف يدعو إلى الدهشة حقاً بسبب جنوحه العاطفى من ثلحية ، والرغبة فى الانتقام من التاريخ بأثر رجعى من ثلحية أخرى.

وعلى أية حال، فإن هذه السيرة تكشف أيضاً عن أن المعاملة الطيبة التى لقيها أبناء البلاد المفتوحة من جانب الفاتحين المسلمين أفرزت نتائج

طبية على الصعيد العلمى وربما كان تأثيرها أقوى فى أوساط العلمانيين، وعامة الناس الذين لم يكونوا واقعين تحت ضغوط الوظائف الدينية مثل القساوسة والرهبان. ومن ناحية ثانية، تقابلت مواقف رجال الكنيسة النسطورية مع مواقف السريان واتجاهاتهم إزاء المسلمين بسبب حال العداء المذهبى مع كنيسة بيزنطة، وما نتج عن هذا العداء من اضطهادات ومضايقات لهم. وقد جعلهم هذا يتخذون من الإسلام والمسلمين موقفاً مشابهاً لمواقف الكتائس الشرقية التى عانت من الاضطهادات البيزنطية.

ومع مرور الزمن أخذت المصادر السريانية تهتم بالسلوك السياسى للحكام المسلمين ، ونسبت إليهم تهمة كثيرة بمصادرة أموال الناس وضياعهم . وبلغت النظر أن الكتاب السريان تحدثوا عن عمليات الإحصاء التى قامت بها السلطات الإسلامية للنصارى وممتلكاتهم وربطت بين عمليات الإحصاء التى جرت فى أعالي العراق وجباية الجزية وفبرها من الضرائب ، وقد أكدت المصادر العربية هذا بدورها .

ومن الجدير أن الكتاب السريان الأرثوذكس لا يمتدحون نبوة النبى عليه الصلاة والسلام ، أو بحقيقة الفين الإسلامى ؛ ولذلك فإنها تسمى النبى والخلفاء الراشدين «ملوك العرب» وقد تحدثت هذه المصادر عن «عهد عمر» الذى أعطاه الخليفة العظيم للنصارى من أهل القدس، كما تحدثت عن تجديد عمر بن عبد العزيز ، الخليفة الأموى، لهذه «الشروط العمرية». ومن المعلوم أن مثل هذه الشروط عادة ما تكون ذات لهجة قوية على الورق، متهاففة على مستوى التطبيق العلمى فى الواقع اليومى.

وعلى مستوى الحياة الاجتماعية تشير بعض المصادر السريانية بقدر من التأكيد إلى أن للمسلمين والنصارى في منطقة الجزيرة بالعراق عاشوا بمعزل عن كل منهما الآخر وهو الأمر الذي ربما يكون قد حدث في العقود الباكرة من الوجود الإسلامي ؛ ولكن تحول المسلمين إلى أغلبية فيما بعد يكذب الروايات التي كتبها رجال الكنيسة السريانية الذين كانوا يحرصون على عدم الاختلاط بين أتباع الديانتين . فقد كانت الكنيسة السريانية الأرثوذكسية تحرم على المرأة المسيحية الزواج من رجل مسلم وإلا وقعت تحت طائلة عقوبة الحرمان الكنسي، كما حرمت هذه الكنيسة على أتباعها تناول لحوم أضراسي المسلمين. بيد أن هذا المنع كان نظرياً في كثير من الأحيان، ولم يكن يطبق كثيراً على مستوى الممارسة الفعلية.

ومن ناحية أخرى ، كان الخلفاء هم الذين يمينون رؤساء الطوائف المسيحية في البلاد الإسلامية بعد أن يتم انتخابهم على أيدي رعاياهم. فقد ذكر كل من ثيوفانيس وميخائيل السرياني وابن العبري أن الخليفة الأموي، مروان بن عبد الملك (١٢٧-١٣٢ هـ / ٧٤٤-٧٥٠ م) وافق على أن يقوم النصارى بانتخاب البطريرك الذي يريدونه ، وعندهما انتخبوا إيوانيس بطريركاً لنصارى الشرق (١٢٧-١٣٧ هـ / ٧٤٤-٧٥٤ م) وافق الخليفة الأموي على تعيينه، ثم كتب إلى ولاة الأمصار باحترام البطريرك الجديد وتبجيله .

وعلى الرغم من أن ميخائيل السرياني عاش زمن الحروب الصليبية، ويعتبر ما كتبه عنها من أهم مصادر لراستها ، فإنه كتب تاريخاً عاماً

بدأه منذ الخليقة حتى أحداث سنة ١١٩٢م / ٥٩٠هـ ، واعتمد على مصادر تاريخية أقدم زمنياً. وكان من رأيه أن ظهور الإسلام كان بداية إنقاذ النصارى أتباع مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزيتيين) من الاستبداد البيزنطي، وأن الرب عاقب البيزنطيين على خطاياهم وأثامهم بإيدى المسلمين. وكان من رأى هذا البطريك أن التخريب والدمار الذي صاحب الفتوح الإسلامية أمر طبيعي يحدث في كل حرب ، وبعد نهاية حروب الفتوح ، التي لم تستمر طويلاً ، عانت الأمور إلى ماجرياتها العادية بل إنه يقول إن أحوال النصارى الاقتصادية انتعشت في ظل الحرية الكاملة التي نعموا بها في ظل الحكم الإسلامي:

«... لما رأى الرب شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة، فتهبوا الكنائس والأديرة التي فملكها في كافة أراضيتهم ، وأنزلوا بنا العقاب دونما رحمة أو شفقة ، أرسل أبناء إسماعيل من الجنوب ليخلصنا من قبضة الروم على أيديهم، والحق أننا إذا كنا قد تحملنا بعض الخسارة بسبب انتزاع كنائسنا وإعطائها لأهل خلقونية ، فقد بقيت تلك الكنائس بحوزتهم . ولما استسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدوها في حوزتهم... ومع ذلك فإن القطن من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وحماستهم العنيفة ضلنا، بحيث نجد أنفسنا قمتين ، لم يكن مكسباً بسيطاً...».

وتزودنا روايات ميخائيل السرياني بصورة واضحة عن ربود أفعال أتباع مذهب الطبيعة الواحدة في القرن السابع الميلادي تجاه الفتوح الإسلامية . كما يحكى ، مثلاً ، قصة تكشف عن شماعة المسيحيين اليعاقبة

(المونوقيزيتيين) في الروم يعد هزيمتهم ؛ ومؤداها أن أخا هرقل المدعو «ثيودور» وعد أحد الرهيان البيزنطيين بأنه سوف يلاحق اليعاقبة بعد أن يقضى على الغزاة العرب، ويعد هزيمته المخجلة على أيدي العرب سخر منه جندي بيزنطي من أتباع مذهب الطبيعة الواحدة وقد سجل ميخائيل السرياني الكثير من جوانب العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في منطقة شمال الشام قرب مدينة أنطاكية (في تركيا الحالية) .

وكان هناك مؤرخ مسيحي يعقوبي آخر عاش بعد ميخائيل السرياني، هو ابن العبري (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) الذي عاش بعد قرن من الزمان تقريباً . وقد كتب هذا الرجل معظم ما كتبه بالسريانية، ومن بينها كتاب تاريخ عالمي مطول باللغة السريانية ، وطلب بعض وجهاء العرب أن ينقل إلى اللغة العربية كتاب التاريخ الذي ألفه بالسريانية . وقد اختصره في كتاب باللغة العربية بعنوان «تاريخ مختصر الدول» وفيه الكثير مما لم يرد في التاريخ السرياني المطول، كما أنه حذف منه الانتقادات التي سماها ضد الإسلام في الكتاب السرياني .

والاسم الكامل لهذا المؤرخ «جريجوريوس بن أهارون الملقب المعروف بابن العبري» وقد جاءت كتابته معايمة تماماً ، ومنما كتب عن النبي عليه الصلاة والسلام حرص على تفادي إثارة غضب الوجهاء الذين طلبوا منه تأليف الكتاب، وحرص على أن يبين أن نسيه يرتقى إلى «... اسماعيل بن ابراهيم الخليل الذي ولدت له «هاجر» أمه «سارة» وزوجته ...» . وتحدث عن أنه لما كان صبياً يخرج مع قافلة الشام حدث «... لما نزلوا بصرى



خرج إليهم راهب عارف اسمه بحيرا من صومعته ، وجعل يتنخل القوم حتى انتهى إليه فلخذه بيده وقال : سيكون من هذا الصبي أمر عظيم ينتشر ذكره في مشارق الأرض ومغاربها ، فلبته حيث أقبل وعليه غمامة تظله ... ثم يواصل ، باختصار ، حكاية مسيرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى وفاته.

ومن الواضح أن ابن العبري كتب ما يرقى للمسلمين ولم يكتب ما يؤمن به فعلاً ، بيد أن المصادر السريانية بصفة عامة اتخذت موقفاً معتدلاً من الإسلام والمسلمين بالقياص إلى مواقف المصادر البيزنطية؛ وربما كانت حقيقة أن السريان عاشوا غالباً تحت الحكم الإسلامي قد جطت أمثال هؤلاء الكتاب يتحزون لأنفسهم في كتاباتهم ، وربما كانت هذه الحقيقة نفسها قد أتاح لهم أن يعيشوا تجربة مباشرة مع المسلمين بعيداً عن الإنهيايات المسبقة. ومن الواضح أن السريان لم يروا بأساً في استبدال سيد بسيد آخر ؛ لاسيما أنهم عانوا الكثير من بطش الروم بسبب الاختلاف المذهبي، وهو الأمر الذي يهيم رجال الكنيسة السريانية الأرثوذكسية أكثر من أي أمر آخر.

وعلى العموم ، تبرز المصادر السريانية ، التي كتبها رجال الكنيسة ، التاريخ بالأساطير وسير القديسين (الهاجيوجرافيا) وما تحمله من خيال وإنهيايات دينية. وليس في هذا ما يثير الدهشة لأن التدوين التاريخي السرياني في تلك الفترة جاء في أغلبه من خلفية كنسية ؛ إذ كان معظم الكتاب من الرهبان والقساوسة الذين كللت اهتماماتهم بتقريب أولاد على

الدير، والعالم الذي يحيط بالدير ؛ من حيث مظاهر الطقس ، أو صعوبات الحياة في الريف من حيث تأثيرها على الحياة في الدير، وفي الوقت نفسه اهتموا بالحروب ، وتوزيع الملوك وحيلهم ، فضلاً عن اهتمامهم بالممارسات الدينية والأعياد التي يتم الاحتفال بها داخل الدير والشئون الكنسية، والمناقشات حول المناصب الكنسية ، والتمرير التي يرتكبها الفاسدون، خاصة أتباع الكنائس الهرطقية.

وكانت هذه الخلفية التي تصورت منها الكتابات السريانية أن ظهور الإسلام علق أنزله الرب على النصارى كما كررنا من قبل؛ ولكن الكتابات السريانية لم تغل من الهجوم العنيف، أحيانا ، على الإسلام والمسلمين .

( ٤ )

## التسطوريون

وهنا يجب أن نشير مرة أخرى إلى موقف الراهب التسطوري «يوحنا بارينكايس» الذي أشرنا إليه في بداية هذه الدراسة؛ فقد فسر هذا الرجل انتصارات المسلمين على أنها غضب إلهي كما أشرنا من قبل:

«لا يجوز لنا أن نفكر في قنوم أولاد هاجر على أنه أمر عادي، وإنما هو نتيجة عمل الرب. قبل دعوتهم كان قد أعدهم مصيباً لاحترام المسيحيين، وكان لديهم أمر من الرب فيما يتعلق بمركز الرهينة، يجب عليهم أن تكون نظرتهم إليه باحترام. أما الآن وقد جاء هؤلاء القوم بأمر الرب، واستولوا على كل من المملكتين على ما هو بين، لا ينشأ حرب ولا ينشأ معركة، بل بأسلوب بسيط، على نحو ما يحدث عندما تخرج خشبة من النار، دون استعمال أسلحة حرب أو أساليب بشرية، فقد وضع الرب النصر في أيديهم على نحو يدل على أن ما جاء عنهم يمكن أن يكون أمراً مقتضياً أي: «إن رجلاً واحداً تعقب ألفاً واثنين هزما عشرة آلاف» - وإلا، فكيف يمكن قوما عراة، يمتطون الخيول من نون سلاح أو توس، أن يربحوا لولا العون الإلهي، إذ دعاهم الرب من أطراف العالم لكي يُحمر على أيديهم، «مملكة شريفة» وليؤدى إلى القضاء، على أيديهم، على روح الفرس المرفوعة».

هذا الراهب النسطوري يرثي الامبراطورية الساسانية التي احتضنت طائفته بعد أن طرحت السلطات البيزنطية الطائفة ومؤسسها نسطورس إلى العراق ؛ وهو لا يتحدث عن أخطاء أبناء الطوائف والمذاهب المسيحية الأخرى، ولا يذكر أن المسلمين جاؤا بدين جديد إلى البلاد التي فتحوها ؛ إنهم في نظره مجرد أدوات يُنزل بها الرب عقابه : «... كانت جماعات اللصوص منهم تذهب سنويا إلى أساكن بعيدة وإلى الجزر ، ويعودون بأسرى من جميع الشعوب التي تقطعها السماء...» وهو لا يتحدث عن أحداث حقيقية ، أو يسرد تاريخاً ، أو يرصد أحداثاً ؛ إنه فقط يلقي إلينا برأيه في المسلمين، «... يمكن أن نقص أخبار المجازر التي قاموا بها في أرض اليونان، وفي كوش، وإسبانيا ، وسواها من المناطق القاصية ، حاملين معهم الأسرى من أبناء هؤلاء وبناتهم، وأخضعوهم للاسترقاق والعبودية . إن أولئك الذين لم يتورعوا عن مخاصمة خالقهم، أيام السلم والثراء، أرسل عليهم قوماً من البرابرة الذين لم تكن في قلوبهم شفقة عليهم...»

ومرة أخرى يؤكد الراهب النسطوري على أنهم أدوات الرب في الانتقام، ولكن يزعم أنهم بلا دين ولا إله لهم «... وهكذا لما رأى الرب أنه لم يحدث أي تصسن ، وجه نحونا المملكة البربرية وأهلها الذين لا سبيل لهم لقبول أي معتقد ، والذين لا يعترفون بمهادنة أو اتفاقية ، والذين لا يقبلون تملقاً أو مداينة ، والذين ترقح نفوسهم إلى الدم الذي يراق دون سبب، والذين يرون السرور في السيطرة على الجميع، والذين يرغبون في إلقاء القبض على الأسرى وفي النفي. إن الضغينة والغضب غذاؤهم ، لا يرضون بما يقسم لهم...» هذه الآراء السوداء تعكس فكر راهب منعزل في نيره بمنطقة جبالية، ولا تحمل أي معلومات تاريخية راسخة؛ وهو يكيل التهم

للمسلمين فيما يشبه الموعظة الكتسية دون أن يقيم عليها دليلاً ولحداً .  
ومن المدهش أنه مع هذا يقول إن المسلمين كانوا أيضاً خاضعين للغضب  
الرياني بسبب خطاياهم التي ارتكبوها فانتقسمت مملكتهم إلى مملكتين  
منعزلتين عقب قتل الخليفة عثمان بن عفان ، ثم مقتل علي بن أبي طالب  
سنة ٤٠ هجرية . وبلغت النظر أن هذا الراهب يعتدح معاوية بن أبي  
سفيان (٦٦١-٦٨٠م) مؤسس الخلافة الأموية، فيقول عن فترة حكمه : «...  
انتشر الإسلام في ربوع الدنيا، بحيث أننا لم نسمع إطلاقاً، سواء من  
أبائنا أو من أجداننا ، عن مثل هذا السلام، ولم نر له مثيلاً...».

ولم تنم هذه الحال السعيدة طبعاً لأن الكنيسة تحولت مرة أخرى، في  
هذا الجو من السلام والازدهار، إلى الاتعاب الأخلاقي والهرطقة حسبما  
يزعم الراهب النسطوري. ومرة ثانية استخدم الرب المسلمين لعاقبة  
النصارى جزاء هذا ما اقترفوه من أثام ، فنشبت الحرب الأهلية الثانية  
المدمرة سنة ٦٨٣م ، بعد وفاة يزيد بن معاوية. وبهذه الأحداث أنهى يوحنا  
برينكاى تاريخه من العالم. فقد مات بعد ذلك بقليل . ولم يذكر هذا  
الراهب الذي عاصر أحداث نصف القرن الأول بعد ظهور الإسلام شيئاً  
من علاقات مباشرة مع المسلمين ، ومن الواضح أنه لم تكن له أية صلة  
مباشرة بهم، وأنه كتب ما كتبه عنهم اعتماداً على ما سمعه وعلى التراث  
الشفوي الذي كان متداولاً عن أحداث الفتوح الإسلامية في الأوساط التي  
ينتمي إليها . ولكن موقفه الإيجابي من الخليفة الأموي معاوية بن أبي  
سفيان (٦٦١-٦٨٠م) يثير الدهشة والحيرة معاً . وعلى أية حال ، فإن ما  
كتبه الراهب النسطوري الذي كتب في تسعينيات القرن السابع الميلادي  
جاء متناقضاً مع الكتابات المسيحية الشرقية بوجه عام .

( ٥ )

## الأرمن

وقد أسهم الأرمن بدورهم فى الكتابة عن الفتوح الإسلامية ، ولكن ما وصلنا من هذه الكتابات لم يكن ليخرج عن السياق العام لكتابات رجال الكنائس الشرقية ؛ فقد نسب المؤرخ الأرمنى سيبيوس الذى عاش فى القرن السابع الميلادى ظهور الإسلام إلى نبوءات دانيال التى وردت فى العهد القديم لتنبأ بنهاية العالم :

« ... ولكن من ذا الذى يستطيع وصف الرب الذى سببته هجمات الإسماعيليين التى طغت على البر والبحر؟ إن دانيال المسعيد وفى ذلك، وتنبا بشروق تشبه تلك التى سوف تقع على الأرض، كانت الحيوانات الأربعة عنده رموزا للممالك الأربع التى ستظهر على سطح البسيطة . أولا الحيوان ذو الهيئة البشرية المملكة الفريية ، التى هى مملكة اليونان [ الإمبراطورية البيزنطية ] . وهذا واضح من قوله : «لقد سقطت أجنحتها وأمحت من وجه الأرض» . وهنا هو الحيوان الثانى الذى يشبه الدب . وقد نُصب على وجهة واحدة ، الجهة الشرقية ، هذا يدل على العرب . «وشمة ماله ثلاث وجهاث لغمه» : المقصود مملكة الفرس والميديين والبارثيين . هذا واضح لأنه يقال له فى الحقيقة : «انهض التهم بضعة أجسام» . إضافة إلى ذلك ، فإن العالم يعرف أنه التهمها على نحو بلغ من الدقة الغاية . والحيوان الثالث ، على هيئة فهد وعليه أجنحة طائر وأربعة رؤوس حيوان .

«هذا يعنى مملكة الشمال ياجوج وماجوج وزميليهما اللذين أعطيا قوة الطيران بقوة من الجهة الشمالية» . «والحيوان الرابع مربع ، مخيف ، أسنانه من الحديد ومخالبه من البرونز؛ أكل وطحن بأسنانه، وداس ما تبقى بأقدامه» . إنه يقول : «إن مملكته الرابعة التى ترتفع من الجنوب الشرقى هى مملكة اسماعيل . وكما أوضح كبير الملائكة: «إن حيوان المملكة الرابعة سيقوم، وسيكون أكبر قسوة من كل الممالك، وسيأكل العالم كله . إن قروته العشرة تمثل الملوك العشرة الذين سيحكمون ، وبمدهم سيقوم آخر يتجاوز فى شره كل الذين سبقوه...»

لقد جعل سيببوس المسلمين الوحش الرابع فى نبوة دانيال، أى المملكة التى سوف تقضى على جميع الممالك السابقة . ومن المناسب أن نشير إلى أن رؤيا دانيال أو نبوته ، التى تتحدث عن نهاية العالم تتحدث عن أربعة وحوش مخيفة أربعة تخرج من مياه البحر ، ولكن رابع تلك الوحوش الخرافية هو الأقوى بحيث يلتهم الثلاثة الآخرين ، ثم ينمو فى رأسه عشرة قرون، وبعدها يظهر قرن حادى عشر قضى عليها وفاقها ؛ ولكن «القديم الأيام» ، أى الرب، يثمر بتدمير هذا الوحش بالنيران فى النهاية. وقد حاول مفسرو سفر الرؤيا مماهاة الوحوش الأربعة بتلك الممالك التى عاصرها اليهود؛ ولكن سيببوس هنا يفسر «رؤيا دانيال» تفسيراً مسيحياً يناسب الظروف التى عاصرها فى القرن السابع أثناء حركة الفتح الإسلامية الأولى. وقد أظهر هذا الأسقف الأرمنى شماته واضحة فى سقوط البيزنطيين على اعتبار أن ذلك هو «... القضاء على الفسق الشيطاني».

ومن الواضح أننا هنا لانقرأ تاريخاً ، وإنما نستمع إلى عظة تليق  
 بأسقف أرثوذكسي حائز على بيرتطة ، مرعوب من المسلمين . وهو يفسر  
 الأحداث في ضوء رؤيا دانيال على اعتبار أن ما حدث من تغيير الرب ،  
 وقد كان ذلك الأسقف الأرمني يستقي معلوماته من الجنود الأرمن الذين  
 حاربوا في صفوف القوات البيزنطية ثم هابوا إلى يارهم . وهو أيضاً  
 يرى ، مثل سائر رجال الكنائس الشرقية أن المسلمين هم بنو اسماعيل ،  
 ولا يفرق بين الدين والعرق . وقد وصف النبي عليه الصلاة والسلام بأنه  
 تاجر ، ونكر أنه عارف بالعهد القديم في الكتاب المقدس وبشريعة التوراة ،  
 ويقول إنه علم شعبه الإيمان بإله ابراهيم الولد .

ومن ناحية أخرى ، نذكر سيبيوس أيضاً رواية تقول إن المسلمين طلبوا  
 قبل أن يبدأوا فتح فلسطين وما جاورها من الامبراطور هرقل أن يتنازل  
 عن هذه الأرض بقولهم : «إن الله وهب هذه الأرض إلى أبينا ابراهيم ،  
 ونسله من بعده ، نحن أبناء ابراهيم ، لقد تملكتم بلادنا بما فيه الكفاية ،  
 اتركوها لنا سلماً ، ونحن لن نهجم أرضكم . وإلاً ، فإننا سنسترد منكم  
 ما استوليتم عليه بفائدة باهظة» . وزعم سيبيوس أن الامبراطور البيزنطي  
 رد بقوله : «إن البلاد يلائي ، وما ورثتموه فهو الصحرَاء ، إنهبوا بسلام  
 إلى بلادكم» .

هذه الرواية التي تحمل في ثناياها لوماً ظاهراً للإمبراطور هرقل لأنه  
 تسبب في الحرب وما سببته من مصائب لم يرد لها نكر في المصادر  
 العربية ، وربما كانت نوعاً من التخريف للرواية العربية عن الرسالة التي



أرسلها النبي عليه الصلاة والسلام لدعوة هرقل إلى الإسلام ؛ وهو الأمر الذي يبدو أكثر انساقاً مع الأحداث التاريخية التي وقعت في تلك الأثناء .

وربما كان ذلك الأسقف الأرمني معبراً عن تيار عام مشترك بين رجال الكنائس الشرقية الأرثوذكسية يلوم البيزنطيين على مستويين : أولهما ، باعتبارهم من أنصار المذهب الخلقدوني الكريه بالنسبة لأتباع هذه الكنائس باعتباره هرطقة وفسادا عقيدياً ؛ مما تسبب في غضب الرب ومعاقتهم بالمسلمين ؛ وثانيهما ، عدم الاستجابة لطالب المسلمين السلمية دون القدرة على قتالهم مما تسبب في خضبتهم وشن الحرب.

( ٦ )

## الأقباط

وإذا كانت المصادر البيزنطية والسريانية والنسطورية والأرمنية، قد عكست العلاقات المتوترة بين البيزنطيين وأتباع بقية الكنائس الشرقية من جهة ، وإذا كان معظم كتابها قد كتبوا عن المسلمين بلهجة معتدلة نسبياً من جهة أخرى؛ فإن الكثير منهم رأوا في المسلمين حكماً أفضل كثيراً من الروم ، ومن المثير أن أحد رجال الكنيسة الشرقية ، ممن كتبوا باللغة العربية ؛ وهو سعيد بن البطريق المعروف باسم أوتيسخا الذي عاش في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي قدم رواية متكاملة البناء عن فتح مدينة القدس على يدى الخليفة عمر بن الخطاب ، وهو يحكى عن أن صفرونيوس رهب بالظليقة الذي آمن نصارى القدس، وعندما حان وقت الصلاة اقترح عليه البطريق أن يصلى فى كنيسة القيامة لكن الخليفة رفض قائلاً إنه لو فعل هذا لاتخذها المسلمون مسجداً وسيضرها المسيحيون . والكاتب هنا ، وهو أيضاً من رجال الدين المسيحي، يرسم صورة إيجابية تماماً للمسلمين.

وربما يجدر بنا أن نتأمل ما كتبه رجل كنيسة آخر عاصر أحداث الفتح الإسلامى لمصر وكان من شهود العيان . فقد كان «يوحنا النقيوسى» أسقف مدينة نقيوس (بالقرب من مدينة بعلبك فى محافظة الغربية بمصر

حالياً) ، وقد لعب هذا الرجل دوراً مهماً في شئون الكنيسة المصرية ، كما أنه عاصر عدداً من الولاة المسلمين على مصر ، وكان آخرهم عبد العزيز بن مروان (٦٥ / ٨٦ هـ / ٦٨٤ - ٧٠٥ م) وعاش حتى بداية القرن الثامن الميلادي/ الثاني الهجري . ويرى بعض الباحثين أن يوحنا النقيوس كان أحد أهم إثنين من أساقفة مصر آنذاك.

ولكن ما كتبه يوحنا النقيوس يمثل أهمية خاصة فيما يتعلق بأراء المسيحيين في مصر عن الفتح الإسلامي، وموقفهم من المسلمين . ومع تحفظنا الواجب تجاه هذا الأسقف فإن ما كتبه يبدو هامضاً حافلاً بالتناقض عند النظرة الأولى؛ فهو يدين قسوة المسلمين وغلظتهم، ويتحدث تارة أخرى عن أمانتهم واستقامة عمرو بن العاص، على حين يكيل لهم الشتائم ، دونما مبرر أحيانا . ولكن هذا الغموض والتناقض يتبدد إذ ما عرفنا أن مترجم النص الحبشي لكتاب يوحنا النقيوس - وهو النص الوحيد الذي وصلنا - قد أباح لنفسه أن يعبث بالنص وأن يحمله مشاعره الدينية المتعصبة حسيماً يرى أحد المتخصصين الذي ترجم النص الحبشي إلى العربية.

ففي أول ذكر للمسلمين في النص نكتشف أن الجزء الخاص ببداية قدوم المسلمين مفقود ، كما أن النص مرتبك ومشوش ، ويحمل أوصافاً وتهماً قاسية :

«... ثم أعدوا بعض الفرسان ومجموعة من الجنود وساروا لحرب المسلمين، وفي ظنهم أنهم يمنعون المسلمين، ثم سار المسلمون إلى الصحراء ، وأخذوا الكثير من الخراف والماعز من الجبل . ولم يعرف أهل

مصر هذا ... وسمع تالوسيسيوس الحاكم يقدم الإسماعيليين وكان يسير  
عن مكان لآخر ليرى ما سيكون من هؤلاء الأعداء. ثم جاء الإسماعيليون  
وقتلوا رئيس الجند وجميع من معه نون رحمة، وفي الحال فتحوا المدينة.  
وكل من جاء إليهم قتلوه، ولم يرحموا أحداً ؛ شيخاً كان أو طفلاً أو  
امراًء...

وقدت كررت هذه التهم بالوحشية وعدم التفرقة بين المحاربين وغير  
المحاربين في عدة مواضع أخرى من الكتاب، ولكنه ينسب ما حدث إلى  
سياسة هرقل ، وواليه الخلقونى ، كيروس المكروه من المصريين:

«... وعندما رأى المسلمون متاهب الروم، والكراهية التي تصيب بهم  
بسبب الملك هرقل وما أحدثه من اضطهاد ونفى في مصر كلها للعقيدة  
الحقة على يدى كيروس البابا الخلقونى ، تقووا وتشددوا في الحرب ...»  
«... وكان كيروس البابا قد سلب الكثير من متاع الكنائس أيام  
الاضطهاد... ولكن الرب الذى يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على  
الظالمين لأنهم تجرؤا عليه ، ورسهم إلى الإسماعيليين الذين استولوا على  
مصر كلها . وبعد موت هرقل ، عاد كيروس (فى عهد ابنه) نون أن يتغلى  
عن الغضب واضطهاد شعب الرب؛ بل كان يزداد سوءاً...».

لقد كان هرقل وكيروس هما مصر الغضب الإلهى بسبب ما اقترفوه  
من اضطهاد بحق الكنيسة المصرية، ويتحمل كيروس (الذى تسميه  
المصادر التاريخية العربية المقوقس) دور الشرير فى القصة . فقد كان  
وقوع الروح فى قبضة المسلمين، الذين يسميهم «الإسماعيليين» عقاباً عادلاً  
من الرب . وهو يؤكد على هذا الموقف مرة أخرى:

«.... وظل عمرو رئيس جند المسلمين خارج حصن بابلين، وحاصر الجنود (الروم) الذين كانوا به ... ثم أعطاهم الأمان، على أن يتركوا كل أدوات الحرب، وهي كثيرة . ثم أمرهم بالخروج من الحصن ... وبهذا تسلم حصن بابلين في مصر في اليوم الثاني من عيد القيامة . وعاقبهم الرب لأنهم لم يمجّدوا إلام الخلاص التي عاناها سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح الذي وهب الحياة للمؤمنين به ... وفي يوم عيد القيامة المجيد هذا أطلق (المسلمون) سراح المسجونين الأرثوذكس ، ولم يتركوا أعداء المسيح هؤلاء دون أنى، بل أساموا إليهم وقطعوا أيديهم ... فإنهم لوثروا الكنيسة بالعقيدة النجسة وارتكبوا إحد الطائفة الأريوسية وعصيانها ... وهو الرب الذي يجازى المسيح، كلاً بمثل عمله ، ويقضى بالدينونة على الظالم...»

ويمضى يوحنا النقيوس ليتحدث عن نهاية «الانقسام الذي كان بمصر وبإسكندرية في أيام هرقل ملك الخلقوثيين...» ومن عودة بنيامين بطريك الأقباط الظافرة بعد أن استدعاه عمرو بن العاص وأمنه فخرج من مخبئه:

«.. دخل الأنبا بنيامين بطريك المصريين مدينة إسكندرية بعد هروبه من الروم في السنة الثالثة عشرة، وسار إلى كنائسه وزارها كلها، وكان الناس جميعاً يقولون : هذا النقي وانتصار الإسلام كان بسبب ظلم الملك هرقل، وبسبب اضطهاد الأرثوذكس على يدى البابا كيروس، وهلك الروم لهذا السبب ومباد المسلمون مصر...».

هنا يتفق يوحنا النقيوس مع بقية المصادر المسيحية الشرقية في

تفسير انتصار المسلمين على أنه غضب من الرب فتج عن ظلم هرقل وممارسات كنيسة بيزنطة ضد الكنائس المطية؛ ولكنه من ناحية أخرى يمدح عمرو بن العاص :

«... وكان عمرو يقوى كل يوم في عمله، ويلتزم الخرائث التي حددوها ولم يأخذ من أموال الكنائس شيئاً، ولم يرتكب خطأ، سلباً أو ونهياً، وحافظ عليها طوال الأيام...»

ولفت النظر هنا أن يوحنا لم يحاول الحديث عن الدين الإسلامي أو من حياة النبي عليه الصلاة والسلام ، وربما كان ذلك في الجزء المفقود عن الترجمة الحبشية لنص التقيوسى. وعلى الرغم من تناقض النص بسبب حيث المترجم الحبشي فيما يبدو ؛ فإنه أشار إلى تعاون القبط النصارى مع الفاتحين المسلمين، كما أنه تحدث عن «... المصريين الذين كانوا قد ارتدوا عن المسيحية ولصتقوا بيانة الوحش ...» وذكر أن الموظفين المحليين عملوا في خدمة الحكم الإسلامي.

وهناك مصدر قبطى مسيحي آخر مهم يمسثنا من ربود الفعل الأولى تجاه الفتح الإسلامى لمصر على الرغم من أنه كتب في أواخر القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى؛ وهو كتاب «تاريخ بطاركة كنيسة الاسكندرية» الذى ألفه ساويرس بن المقفع لىتضمن سير عهد من أباء الكنيسة القبطية حتى زمنه . وقد أوضح المؤلف أنه اعتمد فى التراجم التى يضمها كتابه على مصادر يونانية وقبطية قديمة ؛ وربما اعتمد فى كتابه مسيرة البطريك بنيامين (٦٢٢-٦٦١م) على مصادر ترجع إلى القرن السابع الميلادى.

وسيرة بنيامين ذات أهمية خاصة بالتعبئة لموضوع هذه الدراسة لأنها تتناول قصة اللقاء بين المسلمين والتصارى المصريين من وجهة نظر الكنيسة المصرية.

وكان بنيامين قد تولى منصب البطريركية في مصر إبان الاحتلال الفارسي. وعندما صار هرقل إمبراطورا على بيزنطة، ونجح في إخراج الفرس عن كيروس (المقوقس) وألبانيا. وقد أدى تعيين هذا الظفدوني الصارم إلى هرب بنيامين بعد أن حذره ملاك الرب حينما يقول ساويرس، ورتب أمور الكنيسة، وكتب إلى جميع الأساقفة يأمرهم بالاختباء، ثم اختبأ هو نفسه في أحد الأنيرة المجهولة في صعيد مصر.

ويظهر كيروس باعتباره الشرير الحقيقي في القصة؛ لأن عدداً من الأساقفة الذين لم يعملوا بنصيحة بنيامين وقعوا في يديه مثل السمك في شبكة الصياد. وكان كيروس هذا من منطقة «القوقاز» (وربما يكون لهذه الحقيقة علاقة باسم المقوقس الذي أطلقه عليه العرب، فإن اسم المنطقة التي جاء منها في النطق اليوناني Caucasus وربما حرف العرب الاسم بقلب الكاف قافاً على مايتهم في نسبة الأشخاص إلى بلادهم). وقد تم تعيينه بطريرك لكنيسة الاسكندرية ووالياً مدنياً على مصر في الوقت نفسه. وحاول فرض المذهب التوفيقى (المونوثيليتي) الذي وضعه الامبراطور بالقوة، وقاومه المصريون بعنف على الرغم من الاضطهادات الوحشية المنظمة التي كان أحد ضحاياها «ميثا» شقيق بنيامين. وقيل إن الاضطهادات استمرت على مدى عشر سنوات. وعلى الرغم من أننا لا نعرف مقدار الحقيقة في روايات المصادر الكنسية القبطية، فإن رواياتها

تكشف عن مناخ من الخوف والعداوة العميقة الراسخة تجاه السلطات البيزنطية . ويقول ساويرس إن الذين عينهم هرقل لحكم مصر تصرفوا مثل الذئاب المفترسة.

ويتحدث عن المسلمين بلهجة معتدلة تكاد تكون محايدة ! فيقول إن محمداً صلى الله عليه وسلم أعاد من كانوا يعبدون الأصنام إلى معرفة «الله وحده» ، بل إنه قال إن محمداً رسول الله، وقال إن أمته تمارس الختان وتصلى باتجاه الجنوب صوب المكان الذي يسمونه الكعبة.

وهو مثل سائر الكتاب المسيحيين في المناطق التي كانت خاضعة للحكم البيزنطى وتعانى من العداوة المذهبية يرى أن انتصارات المسلمين كانت عقاباً من الرب بسبب فساد البيزنطيين بيتياً؛ فقد تخطى الرب عن جيش الرومان بسبب فسادهم واعتناقهم لمراسيم مجمع خلقدونية.

ويتسم حديث ساويرس عن الغزو العربى بالاختصار والواقعية؛ فهو يصف المعاهدة التي وقعها المسلمون مع المصريين بأنها تتوافق مع نوع المعاهدة التي كان محمد ورئيس العرب قد أوصاهم بعقدها، والتي تقضى بعدم المساس بئية مدينة توافق على دفع الجزية ولكن المدن التي ترفض يتم نهبها وأسر رجالها. ويقول إن المسلمين كفوا أيديهم عن البلاد وسكانها ولكنهم سمروا أمة الروم.

وأهم النتائج التي نجمت عن الفتح الإسلامى، من وجهة نظر ساويرس بن المقفع ، هى عودة بنيامين الظافرة إلى الإسكندرية . وكان أحد أعيان القبط وإسمه ساتوتئوس قد جاء إلى عمرو بن العاص ، بعد فتح الإسكندرية، وأخبره بأمر بنيامين بطريق الأقباط الهارب «... وكتب عمرو



إلى أعمال مصر كتاباً يقول فيه: «الموضع الذى يكون فيه بنيامين بطرك  
النصارى القبط له العهد والأمان والسلامة من الله، فليحضر أمداً مطمئناً،  
ويدير حال بيعته، وصياسته طائفته، فلما سمع القديس بنيامين هذا عاد  
إلى الاسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة ثلاثة عشر سنة منها عشرة سنين  
لهرقل الرومى الكافر، وثلاثة سنين قبل أن يفتعروا المسلمين  
الاسكندرية...».

هنا تبدى كراهية البيزنطيين واضحة صارخة فى عبارة «هرقل الرومى  
الكافر»، وهى عبارة لم يستخدمها ساويرس أبداً فى وصف المسلمين. لقد  
كان قدوم المسلمين بالنسبة لكاتب مغيرة بنيامين فجعراً جديداً لبطك،  
والحقيقة أنه لا يذكر أبداً أن ما حدث كان أمراً طيباً فى عبارات صريحة،  
ولكن الواضح أن الأمور كانت بمثابة راحة عظيمة بعد نهاية حكم كيروس  
الذى تزعم رواية ساويرس أنه انتحر وتجرع السم من خاتمه (وهو ما لم  
يحدث لأن الرجل مات لأسباب طبيعية). ومن ناحية أخرى، فإن ما كتبه  
ساويرس بن المقفع يشير بوضوح إلى الروابط الوثيقة بين النخبة المسلمة  
والنخبة القبطية من خلال تكديده على العلاقات الطيبة التى كانت تجمع بين  
عمرو بن العاص، وبنيامين، وسانوثيوس الذى لعب دور الوساطة بين  
الاثنيين.

كانت آخر أعمال بنيامين تكريس كنيسة الأنبا مقاريوس فى الصحراء  
فعندما جاء جماعة من الرهبان إلى الاسكندرية لهذا الغرض، قال: «...  
فمجدت السيد المسيح الذى جعلنى مستحق دفعة أخرى أن أنظر هذه  
البرية الجليلة وهؤلاء الآباء والأخوة القديسين وإظهار الأمانة الأرثوذكسية  
وخلصنى من اضطهاد المخالفين...».

( ٧ )

## خاتمة

لقد كان من الطبيعي أن تتفاوت ردود فعل رجال الكنيسة في المناطق التي فتحها المسلمون في القرن السابع الميلادي على النحو الذي اتضح في النصفحات السابقة ، وكان طبعياً أيضاً أن تكون مواقفهم نتيجة الجهل بحقيقة الدين الإسلامي، أحياناً، وبرغبتهم في تشويه حقائقه أمام رعاياهم أحياناً أخرى، أو تقلون بحسب مواقفهم من الإمبراطورية البيزنطية أحياناً ثالثة . ويلفت النظر أنهم جميعاً رأوا في قدوم المسلمين عقاباً من الرب جزاء خطايا أصحاب المذاهب المسيحية المخالفة . وقد كان الذين يكتبون من داخل الأراضي البيزنطية أعنف من أولئك الذين كانوا تحت الحكم الإسلامي، باستثناء يوحنا النقيوسي.

ولكن من المهم أن نشير إلى أن هذه الكتابات كانت في التحليل الأخير تعبيراً عن آراء رجال الكنيسة الذين عاشوا بالضرورة في عالم فكري ونفسي منفصل عن العالم الذي كان يعيش فيه عامة الناس. وإذا كانت المصادر التاريخية لم تحفظ لنا ما يساهمنا على فهم هذا العالم الحقيقي، فإن حقائق الأحداث التاريخية قد تشي بما حدث فعلاً . فقد استغرقت حركة الفتوح الإسلامية في مصر والشام عقداً من الزمان ، وبعدها صارت المنطقة بأسرها مركز العالم الإسلامي على مدى ما يزيد على

أربعة عشر قرناً . وفي غضون قرنين أو أكثر قليلاً كان المسلمون قد صاروا غالبية السكان دون أن تكون هناك سياسة لفرض الإسلام بالقوة . وهذه كلها دلائل على أن مواقف العلمانيين من عامة الناس كانت تختلف تماماً عن مواقف من كتبوا المصائر التي عرضنا لها في الصفحات السابقة.

ومن ناحية أخرى، فإن هذه الكتابات على الرغم من انحصارها قد أوضحت بعض الحقائق بطريقة غير مباشرة ؛ مثل مساعدة السكان المحليين للمسلمين ، واعتناق بعضهم الإسلام في السنوات الأولى بعد الفتح الإسلامي بعد الفتح الإسلامي . وهناك مؤشرات على أن المسيحيين المونوفيزيטים في مصر وبلاد الشام كان لديهم بالتأكيد ما يجعلهم يكرهون السلطات البيزنطية وعلى أنهم ساعدوا الفاتحين المسلمين بالفعل. ومن ناحية أخرى، كانت عداوة المسيحيين في هذه البلاد تجاه الطوائف المسيحية الأخرى أقسى وأشدّ وقعاً من عداوتهم تجاه المسلمين .

لقد كانت شروط الاستسلام السهلة نسبياً ، والتي ميزت الفتوح الإسلامية الإسلامية من أهم أسباب نجاح حركة الفتوح الإسلامية ؛ لقد كانت تحفظ لأبناء المناطق المفتوحة أرواحهم وممتلكاتهم ، والمقبول المرتبطة بحرية العقيدة وملكية الكنائس مقابل دفع الجزية والتعهد بعدم مساعدة أعداء المسلمين على نحو ما جاء في عهد عمر بن الخطاب لنصارى القدس. وكانت الضرائب في الفترة الأولى بعد الفتح أقل من تلك التي كان البيزنطيون أو الساسانيون يقرضونها سابقاً على مكان البلاد نفسها .

واستقر العرب بسرعة في المناطق التي فتحوها ؛ ولكنهم كانوا دائماً منفصلين عن السكان المحليين بشكل يكاد يكون تاماً في بداية الأمر. فقد تركزوا في ثلاث مدن جديدة في العراق ؛ هي الكوفة والبصرة والموصل . واستقروا في الفسطاط بمصر أولاً قبل أن ينتشروا بعد استقرار الأحوال، وتم بناء مدينة القيروان الجديدة لتكون مركزاً لهم في شمال أفريقيا ؛ أما في بلاد الشام فإن المسلمين لم يبنوا مدناً جديدة ولكنهم اتجهوا للسكن في ضواحي المدن القديمة؛ مثل قنسرين وحلب . بيد أن الوضع لم يلبث أن تغير بعضى الزمن ؛ فقد زاد عدد المتحولين إلى الإسلام من السكان المحليين كما زاد عدد العرب الذين جاءوا للاستقرار في هذه البلاد ، وكان لابد من الاختلاط والامتزاج الذي أدى إلى التفاعل بين ما جاء به الإسلام واللغة العربية من جهة ، والموروث الثقافي لأبناء البلاد المفتوحة من جهة ثانية . ولم يمارس الفاتحون المسلمون ضغوطاً على أبناء هذه البلاد لكي يمتنعوا الإسلام . ولكن اعتناق الإسلام كان يوفر العديد من الفرص الطيبة للانضمام إلى الطبقة الحاكمة . ومن اللافت للنظر أن السلطات الإسلامية أقامت علاقات ناجحة مع رؤساء الكنائس المحلية التي باتت تحت سلطانهم .

وفي أثناء القرن الأول بعد الفتح الإسلامية كانت أراضى الدولة الإسلامية مجتمعاً مفتوحاً بحق. وكانت النخبة في هذا المجتمع من المسلمين ومن غير المسلمين العاملين في الجهاز المالى والإدارى للدولة. وكانت عضوية هذه النخبة تتعزز باعتناق الإسلام الذى هو دين لكل

البشر. ولم تكن عضوية التّخية حصريّة وقاصرة على فئة معينة مثلما كانت قاصرة على أبناء الأرستقراطية البيزنطية والفارسية، ولم تكن وضعا طبقيّا ممتازا يدافع عنه من يتمتعون به ، وإنما كانت حقا لكل من يعتنق الإسلام ويتفوق في مجاله، فباعثاقي الدين الإسلامي كان يوسع المظلومين من أبناء البلاد المفتوحة أن يهيروا من الفاتحين ، ومن الناحية النظرية على الأقل كانوا مساوين لغيرهم من المسلمين .

ومن ناحية أخرى ، كانت هناك عدة جوانب في الإسلام جعلت التعامل معه ممكنا بالنسبة للنصارى ؛ فقد كان له نبي، وكتاب مقدس، وله أشكال راسخة في الصلاة، والصوم، والحج ؛ كما كانت قوانين الأسرة والميراث واضحة ، وكان الإسلام يعترف بالأنبياء السابقين جميعا، ومنهم عيسى بن مريم عليه السلام ، كما كان يحترمهم جميعا وييجل السيدة مريم العذراء . ومنذ البداية كان الإسلام باعتماره ديناً جاء لكي يكمل الديانات التوحيدية السابقة، لا لكي يدمرها . ولاشك في أن هذا التراث المشترك قد ساعد النصارى على امعتاق الإسلام. ومن جوانب صديدة كان نجاح الحكم الإسلامي نتيجة للسياسة التي اتبعها المسلمون تجاه المظلومين ؛ فقد كان من الأفضل دائما عقد الصلح والاستسلام بدلاً من الحرب والقتال. وهو الأمر الذي أدى إلى بناء أساس سلمي للعلاقات بين الجانبين . ولم يكن ممكنا أن تجرى عملية الأسلمة والتعريب التي حدثت على مدى القرنين أو القرون الثلاثة التالية لو لم يكن الفتح قد نجح على المستوى العسكري والسياسي أولاً.

والحقيقة القائلة بأن الأهل السنة والتعريب كانت عملية تدريجية وسلمية تماماً نتيجة أن مزيداً من الناس أراىوا الاندماج فى الكيان الحضارى الذى يعيشون فى رحابه ، كما أراىوا أن يسهموا فى الثقافة السائدة فى عصرهم ويشاركوا فيها .

ومن ناحية أخرى، فإننا ربما لانبالغ إذا قلنا إن الحكم الإسلامى هو الذى أنقذ هذه الكنائس الأرثوذكسية من الاضطهاد والعداء البيزنطى ، وضمن بقاها حتى وقتنا الحالى؛ وهى حقيقة ربما تتناقض ظاهرياً مع حقيقة أخرى مؤداها أن عدداً كبيراً من أتباع هذه الكنائس الأرثوذكسية تخلوا من كنائسهم واعتنقوا الإسلام لأسباب متعددة . ومن اللافت للنظر أن السلطات الإسلامية أقامت علاقات طيبة وتاجعة مع الكنائس المحلية التى سخلت تحت سلطانهم. وكان الأساس الشرعى لهذه العلاقات قائماً على اعتبار أنهم من «أهل الذمة» الذين تتعهد السلطات بحمايتهم ، وحماية أموالهم وممتلكاتهم ، وضمنان حرية العقيدة وأمن كنائسهم فى مقابل الجزية، والتعهد بعدم مساعدة أعداء المسلمين، أو إيذاء المسلمين .

## القسم الثاني

# أوروبا والعالم الإسلامي

التطور التاريخي لصورة الآخر  
من القرن الأول حتى العاشر الهجري  
من السابع إلى السادس عشر الميلادي





## مدخل

لم يكن الدين السبب في الصراع بين البشر في أى زمان ومكان ؛ وإنما كان دائماً المبرر والغطاء لأطماع الاقتصاد ، وطموحات السياسة ، ونيران الحرب . يصدق هذا على العلاقة بين أوروبا والعالم الإسلامى على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان كما يصدق على العلاقات بين المجتمعات البشرية الأخرى. ومن المثير أيضاً أن هذه العوامل ذاتها تدفع أيضاً إلى التفاهم ، والتفاعل ، بل والتقارب أحياناً . ويصدق هذا أيضاً على تاريخ العلاقة ما بين أوروبا والعالم الإسلامى . إذ كانت العلاقة بين الجانبين نموذجاً للعلاقات بين الجيران حرياً وسلاماً ، ومنافسة وتعاون ، صداوة واعتماداً متبادلاً على الآخر. وهكذا شأن البشر عندما يتجاوزون فى كيانات سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، ولا يكون الدين فى مثل هذه العلاقات التى تمر بالصورى والتفاعل ، سوى نور المبرر والغطاء .

ولسنا بحاجة إلى أن نكرر ما هو معروف بالضرورة من أن إيمان المسلم لا يكتمل سوى بإيمانه بالرسول والأنبياء السابقين على ظهور الإسلام، كما أننا لا نحتاج إلى تكرار ما هو معروف من اشتراك المسلمين والمسيحيين فى ممارسات دينية متشابهة ، فهم يتعبدون فى نفس الأماكن المقدسة بفلسطين ، ويجلون نفس أبطال قصص القرآن الكريم والكتاب المقدس من الرسل والأنبياء. ومع ذلك كانت هناك قوارق أساسية بين الديانتين تشكل حواجز مائعة أمام المؤتمنين بكل منهما فى قبول الآخر:

وربما كان ذلك سبباً من الأسباب التي أُنكثت العداوة المتبادلة بين الطرفين عند خطوط التماس بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي : من إسبانيا عبر جنوب إيطاليا وصولاً إلى الأرض المقدسة في فلسطين شرق البحر المتوسط.

كانت حركة الفتوح الإسلامية الناجحة ، والتي بدأت منذ القرن الهجري الأول / السابع الميلادي، قد قسمت عالم البحر المتوسط إلى ثلاث مناطق حضارية : الحضارة البيزنطية التي تمركزت حول القسطنطينية وشملت ما بقي من أملاكها في آسيا الصغرى والبلقان وتدين بالمسيحية الأرثوذكسية، والحضارة العربية الإسلامية التي ضمت العواصم القديمة في شرق المتوسط وجنوبه ، وعمقها الشرق والجغرافيا المعتد شرقاً صوب الصين ، ثم حضارة أوروبا العصور الوسطى الباكرة التي تمركزت حول الكنيسة الكاثوليكية بزعامة البابا في روما. وكانت خطوط التماس بين الحضارتين المسيختين والحضارة العربية الإسلامية تتمثل في آسيا الصغرى وأعلى بلاد الشام ، وجنوب إيطاليا وجزر البحر المتوسط، ثم إسبانيا في الغرب حيث قامت دولة مسلمة استمرت في الوجود حتى أواخر القرن الخامس عشر الميلادي .

والشير في الأمر أن نقطة التماس الأساسية في الشرق (الدولة البيزنطية) ونقطة التماس في الغرب (الأندلس المسلمة) سقطتا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، إيذاناً ببدء مرحلة جديدة بين العالم الإسلامي والعالم الأوربي . ولم تكن العداوة بين الطرفين مستمرة في كل الأوقات في جميع الأماكن . فمن وجهة النظر الأوربية مرّت العلاقات

الإسلامية المسيحية بثلاث مراحل فيما بين القرن السابع والقرن الخامس عشر الميلاديين. وفي أثناء هذه المراحل الثلاث ، تغيرت المواقف الأوروبية من الرفض إلى المحاولات الواعية المتعاطفة لفهم الإسلام والمسلمين . ومن وجهة نظر للمسلمين مرت العلاقات مع أوروبا بثلاث مراحل أيضاً- ولكنها مختلفة بطبيعة الحال- من الغزو إلى التجاهل والازدراء ، ثم العداوة ، ثم التفاهم والاعتماد .

في أثناء حركة الفتوح الإسلامية (القرنين الأول والثاني للهجرة - السابع والثامن الميلاديين) اجتاحت جيوش المسلمين مناطق شرق المتوسط (سوريا وفلسطين) وجنوبه (مصر وشمال أفريقيا) وعبرت المضيق لتستولي على معظم شبه الجزيرة الأيبيرية، وحوالت البحر المتوسط إلى بحيرة إسلامية ؛ وفيما بعد سقطت صقلية وجنوب إيطاليا تحت الحكم الإسلامي لفترة من الزمان ، ويات الوجود الإسلامي محيطاً بأوروبا بحيث كان هناك في الدوائر الأوروبية دائماً ذلك الشعور المقلق بوجود عدو قوي على الأبواب. وعلى الرغم من أن شارل مارتل قد هزم المسلمين عند تور-بواتييه وأوقف الزحف الإسلامي داخل أوروبا ؛ فإن الدول الجرمانية التي قامت على أرض أوروبا نتيجة الغزوات الجرمانية (القرن الخامس- القرن السابع الميلادي) لم تكن قد وصلت إلى درجة النضج السياسي التي تمكنها من التصدي الحقيقي للمسلمين . ومن ناحية أخرى ، أدرك البيزنطيون مبكراً أن التعايش مع المسلمين يمكن أن يكون حلاً عملياً ومريحاً للطرفين. وكان طبيعياً في هذه المرحلة أن يعبر المسيحيون عن تنويع من الآراء السلبية والإيجابية حول المسلمين وبعائتهم . ولكن مقارنة

الآراء السلبية، في تلك المرحلة الأولى بتلك الآراء الهستيرية التي شهدتها الفترة الثانية (وهي فترة الحروب الصليبية) ، تكشف عن أنها كانت آراء معتدلة متزنة نسبيًا . ثم تلت ذلك فترة محاولة الفهم عن طريق الترجمة والنقل ؛ لتصل إلى ازدهار حركة الاستشراق في خط مواز لنمو حركة الاستعمار الأوربي على حساب العالم المسلم.

وفي رأيي أن مشروعية هذه الدراسة تقوم على أساس محاولة إخماد نيران العداوة والكراهية التي يذججها الآن فريق من القلاة والمتطرفين على كلا الجانبين : المسلم والغربي ؛ وعلى الرغم من أن التاريخ المشترك بينهما امتد منذ القرن الهجري الأول/ السابع الميلادي حتى الآن ، فإن أولئك المتطرفين يتجاهلون الكثير من تفاصيل هذا التراث المشترك ؛ فهم ينظرون إلى الغرب باعتباره كتلة واحدة من ناحية ، وعلى الجانب المقابل ينظرون إلى العالم المسلم باعتباره كتلة واحدة من ناحية ، وعلى الجانب المقابل ينظرون إلى العالم المسلم باعتباره كتلة واحدة سواء بلا تفاصيل من ناحية أخرى.

هذه النظرة السطحية تتجاهل حقائق تاريخ العلاقات بين المسلمين والغرب ؛ فمن الناحية التاريخية كانت العلاقات تتسم بالشد والجذب، وتتراوح بين السلب والإيجاب كما تحكمها التفاعلات الهادئة حيناً والتوترات العنيفة حيناً آخر، ومن الناحية الجغرافية فإن مسرح هذه العلاقات كان عالم البحر المتوسط حتى أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي على أقل تقدير . ثم انتقل المسرح الذي جرى عليه التفاعل بين المسلمين والغرب إلى مناطق جغرافية جديدة ؛ إذ حلت الدولة

العثمانية محل دولة سلاطين المماليك في قيادة العالم المسلم؛ وبذلك انتقلت حدود التماس إلى شرق أوروبا والبلقان ووسط أوروبا . ولم يكن هذا مجرد انتقال جغرافى ؛ وإنما كان تحولاً نوعياً في شكل العلاقات وعنواناً على مرحلة جديدة بخصائص جديدة.

ومن جهة أخرى ، نقلت التحركات الاستعمارية الأوروبية خطوط التماس بين الجانبين إلى مناطق المحيط الهندى، وجنوب شرق آسيا ، بعد معرفة الأوربيين للطريق البحرى حول أفريقيا ليصل بين المناطق الشرق الآسيوية والموانئ الأوروبية . ثم ازداد تشابك هذه الخيوط بعد أن نجحت القوى الاستعمارية الأوروبية في السيطرة على مناطق كثيرة من أراضى المسلمين . وظل الحال كذلك حتى بروز القوة الأمريكية ، ودورها العالمى ، بعد الحرب العالمية الثانية ؛ وتصاعد هذا الدور بالدرجة التى جعلت خيوط العلاقات الإسلامية / الغربية تتشابك وتتقاطع فى كل مكان بالعالم المعاصر بحيث صار العالم كله مسرح التفاعل بين كل من المسلمين والغرب الأوروبى الأمريكى .

ويستدعى البحث فى البعد التاريخى لهذه العلاقات أن تحاول تقسيمها إلى فترات زمنية أحسب أنها سوف تساعدنا على الفهم والإلمام بالحقائق التاريخية المتوارية خلف ضبابية الهجمات ، والهجمات المضادة على كلا الجانبين .

## (١)

## تأثير حركة الفتوح الإسلامية

إذا كانت حركة الفتوح الإسلامية ، التي بدأت في القرن السابع الميلادي ، قد أدت إلى تقسيم عالم البحر المتوسط إلى حضارات ثلاث؛ البيزنطية، والإسلامية ، والأوربية كما أسلفنا القول؛ فقد كان اللقاء والتفاعل بين هذه التجمعات الثقافية ، واللغوية ، والاقتصادية الثلاثة يمثل واحداً من أهم موضوعات تاريخ العصور الوسطى. إذ كانت كل من هذه الحضارات الثلاث وريثة للإمبراطورية الرومانية ، وللفترة الكلاسيكية بشكل عام ، بدرجة أو بآخرى . فقد كانت الإمبراطورية البيزنطية (التي صرفها العرب باسم «الروم» ، وعرفها اللاتين باسم «اليونانيين») تمثل الاستمرارية المباشرة للقانون والإدارة والفكر الروماني والإفريقي ، كما أن أوروبا الغربية الكاثوليكية ورثت الكثير من التراث الروماني ؛ بل ورثت روما ذاتها عاصمة الإمبراطورية الرومانية ورمزها ؛ فضلاً عن اللغة اللاتينية والفكر الروماني، على حين استوعب العالم الإسلامي بعض جوانب التنظيم الروماني ، وتراث الفلسفة والعلوم اليونانية والرومانية.

لقد انتصر المسلمون على الروم وانتزعوا منهم السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط في غضون سنوات قليلة، وتحولت هذه المناطق

التي كانت مسيحية إلى مناطق إسلامية بعد أجيال قليلة. وهنا ينبغي أن نلاحظ أنه على الرغم من أن المسلمين والمسيحيين كانوا يقومون ببعض الممارسات الدينية المتشابهة ، ويشتركون في التعميد في أماكن مقدسة (مثل بيت المقدس) ، ويصلون الأنبياء وأبطال قصص الكتاب المقدس والقرآن الكريم؛ فقد كانت هناك حواجز حقيقية تحول بين اتفاق أتباع كل من هاتين الديانتين تتعلق بالوهية المسيح، والثالوث ، وحادثة الصلب من ناحية . وعدم اعتراف المسيحيين بالإسلام وبالنبي عليه الصلاة والسلام من ناحية أخرى.

وربما كانت حقيقة اشتراك الجانبين في بعض الأمور هي التي أدت ليران العداوة المتبادلة بين الطرفين . وقد اتضحت هذه العداوة بشكل أساسي عند خطوط التماس التي تقابل عندها العالم الإسلامي والعالم المسيحي؛ من إسبانيا عبر جنوب إيطاليا وصقلية إلى الأماكن المقدسة فوق الأرض العربية في فلسطين . ومن المهم أن نشير إلى أن أسباب هذه العداوة لم تكون دينية في جوهرها ؛ لأن نوافعها وأهدافها كانت سياسية واقتصادية وعسكرية وكان الدين غطاء ومبرراً لها على الدوام . ومن المثير أن التشابهات الدينية بين المسلمين والمسيحيين كانت تستثير العداوة بينهما بدلاً من أن تدعو إلى إخمادها . ومن ناحية أخرى كان جهل أوروبا المسيحية بحقيقة الإسلام ، وعدم وضوحه بالنسبة لبيزنطة ، من أهم أسباب تلك العداوة.

ويلفت النظر هنا أن المسيحيين في المرحلة التي امتدت من القرن السابع حتى الحروب الصليبية في القرن الحادي عشر عجزوا عن تنويع

من الآراء السلبية والإيجابية على حد سواء عن الدين الإسلامي، وعن النبي عليه الصلاة والسلام. ولابد للمرء أن يتوقع أن يعود الفعل الأولى من جانب المسيحيين كانت سلبية في المناطق التي شهدت المواجهات بين الإسلام والمسيحية . ولكنها كانت ، على أية حال، آراء متزنة نسبياً إذا ما قورنت بالآراء والمزاعم الهستيرية التي ظهرت في عصر الحروب الصليبية . فعلى سبيل المثال، وصف الأسقف الأرمني سيبيوس Sebeos النبي محمد بأنه تاجر وخبير بالعهد القديم وشرعية التوراة، وأنه هلم شعبه الإيمان بآله إبراهيم الواحد . وتقبل هذا الأسقف فكرة أن المسلمين هم أبناء إسماعيل ، أول أولاد إبراهيم من هاجر المصرية.

ومن ناحية أخرى كانت مصادر تلك الفترة في الغرب الأوربي تستخدم كلمة أبناء هاجر Agarenes لوصف العرب، على الرغم من أن كلمة «سراكنة» Saracens ، كانت شائعة أيضاً، ثم صارت الكلمة الأكثر شيوعاً فيما بعد . وقد جاءت الكلمة اليونانية الأصل Saracens من اشتقاق غير معروف المصدر؛ على الرغم من أن هناك قدراً من الشك في أن تكون مشتقة من اسم «سارة» زوجة إبراهيم، وفي الاستخدام اليوناني قبل الإسلام كانت كلمة «سراكنة» مرادفة لكلمة «عرب» ولكن الاسم «إسماعيليين» الذي استخدم للدلالة على المسلمين فيما بعد ، كان يحصل أيضاً معنى أبناء هاجر Agarenes، على اعتبار أن إسماعيل نفسه ابن «هاجر» زوجة إبراهيم، عليهم السلام جميعاً. بيد أن كلمة سراكنة -Saracens التي شاع استخدامها آنذاك في الغرب الأوربي لكي تدل على المسلمين، كانت تعنى وصف جماعة تضم العرب والأتراك وغيرهم من



المسلمين الذين يتحدثون العربية بغض النظر عن أصولهم العرقية. وقد وجدنا في النصوص التي أوردناها في القسم الأول من هذا الكتاب أن غالبية النصوص تشير إلى المسلمين على أنهم بنو اسماعيل .

ومن المثير أيضاً أن المصادر البيزنطية لم تهتم بالإسلام في تلك الفترة المبكرة ؛ فقد أغفلت ذكر الرسالة التي ذكرت المصادر التاريخية العربية أن النبي عليه الصلاة والسلام قد أرسلها إلى الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) . وعندما كتب زانوراس Zonaras ، في القرن التاسع كان هناك قدر كبير من الخط في رواية الأحداث، فضلاً عن النغمة العدائية الواضحة ضد الإسلام والمسلمين؛ فقد ذكر زانوراس أن النبي نفسه قدفاوض الإمبراطور هرقل لعقد معاهدة تضمن حرية التجارة والسفر بين شبه الجزيرة العربية وأقاليم الإمبراطور البيزنطية . وعلى الرغم من أن هذه المفاوضات لم تحدث بين النبي عليه الصلاة والسلام والإمبراطور، فإن الاتفاق نفسه تم بالفعل بين المسلمين والروم في هذا الدور الباكر من تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية.

ويبدو أن المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس Theophanis ، الذي كتب في مطلع القرن التاسع الميلادي، كان أول من سجل شيئاً عن الرسول ومن المسلمين، وقد اتسمت كتابته بقدر من الحياد والموضوعية النسبية؛ ولكن المؤرخين الذين جاؤا بعده، وأهمهم زانوراس، كانوا أكثر عدائية تجاه المسلمين، وربما لم يكن البيزنطيون يدركون حقيقة الإسلام في هذا الدور الباكر ؛ بل إن بعضهم ظن أن هناك تشابهاً بين الإسلام ومذهب الطبيعة الواحدة (الوثوفيزيتي) في الحياة المسيحية. وربما كان هذا السبب وراء

تجاهل المؤرخين البيزنطيين للأحداث التي جرت في شبه الجزيرة العربية منذ البعثة النبوية حتى بداية حركة الفتوح الإسلامية في القرن السابع الميلادي، وهو ما أثبتناه بقدر كبير من التفصيل في القسم الأول .

كان رجال الكنيسة في المناطق الواقعة على السواحل الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط قد عبروا عن آراء تكشف عن جهل وعميق وعدم معرفة بالإسلام؛ كما تكشف عن عداوة متوحشة للمسلمين مثلما جاء في كتابات صفرونيوس أسقف بيت المقدس الذي عاصر الفتح الإسلامي لفلسطين؛ فقد أنكر بعضهم أن المسلمين موحدون، كما أن يوحنا النقيوسي، الأسقف المصري الذي شهد أحداث الفتح الإسلامي لمصر، كتب عن المسلمين وثبيهم كلاماً يحمل من السباب والشتائم أكثر مما يحمل أي وصف . ومن ناحية أخرى، خلط رجال الكنيسة الشرقية بين العرب والمسلمين؛ فقد وصفوا المسلمين بأنهم أبناء إسماعيل على الرغم من أن المسلمين كانوا من العرب ومن غير العرب، إذ اعتمد أولئك القساوسة المسيحيون على روايات العهد القديم فيما يخص أنساب العرب، وسموا التسمية على المسلمين جميعاً (أنظر القسم الأول من هذا الكتاب) وهناك تقسيم للأنساب العربية لدى العرب أنفسهم لا يجعل العرب جميعاً من نسل إسماعيل وهاجر، وإنما يجعل هذا القسم من العرب المستعمرة على حين يشير إلى قسم أقدم هم العرب العاربة . وعلى سبيل المثال، فإن بنيامين بطريرك الأقباط الأرثوذكس في مصر زمن الفتح الإسلامي، والذي كان هارباً في كهوف الصحراء من الاضطهاد البيزنطي، طلب من أتباعه

مساعدة «الإسماعيليين» لأن مشيئة الرب اقتضت اقتصارهم على الروح.  
كما أن أحد الرهبان التساطرة زعم أن المسلمين أحقاد إسماعيل ، وأنهم  
يعبدون رب إبراهيم الواحد .

هذا الخلط والارتباك الذي ميز كتابات المسيحيين في هذه الفترة  
الباكورة، كان ناجماً من عدم فهم حقيقة الإسلام، وعدم إدراك أنه ديانة  
سماوية جديدة لا تنكر ما سبقها في اليهودية والمسيحية من ناحية، وعدم  
الاهتمام بظهور الإسلام وما ترتب عليه من تطورات سياسية وعسكرية في  
شبه الجزيرة العربية من ناحية أخرى . ولم يبدأ المسيحيون في إدراك  
حقيقة الدين الجديد، والقوة السياسية- العسكرية التي تبلورت حوله سوى  
عندما بدأت معارك حركة الفتوح الإسلامية لكي تستمر على مدى ما تبقى  
من القرن السابع، وتمتد إلى القرن الثامن. وهنا لابد من أن نفرق بين  
موقف المسيحيين الذين بقوا في المناطق التي خضعت لحكم المسلمين،  
وموقف أولئك المسيحيين الذين بقوا تحت الحكم البيزنطي، أو أولئك  
المسيحيين الغربيين الذين كان الإسلام بالنسبة لهم شيئاً غريباً ، وبعيداً .

فبالنسبة للمسيحيين الذين خضعوا للحكم الإسلامي كانت المعاملة  
الطيبة التي عاملهم بها المسلمون، بعد استقرار الحكم وانتهاء القتال بما  
يصحبه بالضرورة من تهجير وقتل ، قد أثرت على مواقفهم وكتاباتهم .  
وربما يمكن للبعض أن يجادلوا بأن أولئك الكتاب كانوا تحت السيطرة  
الإسلامية، ومن ثم كان من الطبيعي أن يحتزروا لأنفسهم بحيث يتخذون  
مواقف معتدلة نسبياً . ولكننا نرى أنه بالنسبة لا هي معروف من حقائق

الصراع بين الدولة البيزنطية والمسيحيين المونوفيزيتيين أنتصار الطبيعة الواحدة في بلاد الشام ومصر، وغيرهم من الجماعات المسيحية حول شواطئ المتوسط قبل الفتح العربي؛ كان المسيحيون الشرقيون أسعد حالاً تحت الحكم الإسلامي؛ ومن ثم جاءت مواقفهم تجاه سابقتهم الجدد من المسلمين أكثر اعتدالاً . وعلى الرغم من أنهم قد رفضوا الإسلام، ويقوا على نيانتهم المسيحية، فإن النغمة العدائية في آرائهم لم تكن في مثل هذه مواقف المسيحيين البيزنطيين ، أو المسيحيين في غرب أوروبا .

ويرى بعض الباحثين أن هذا الانطباع ربما يكون ناجماً عن حقيقة أن عدداً قليلاً فقط من الكتابات المسيحية هي التي نجت من عوادي الزمان؛ بيد أن الكتاب المسيحيين الذين هاشوا تحت الحكم الإسلامي في تلك الفترة المبكرة كانت لهم تجربة مباشرة مع المسلمين، وإن لم تكن لديهم القدرة على فهم الإسلام بصورة كاملة . وبالتالي فإن مواقفهم والأشكال التي كانوا يعبرون بها عن آرائهم تمثل نماذج مثيرة عن العلاقات الإسلامية المسيحية في زمانهم .

ومن ناحية أخرى، فإن المسيحيين الذين بقوا تحت الحكم البيزنطي كانوا يعملون في أثمانهم صورة عدائية تماماً للمسلمين ، ولاسيما في الأوساط الكنسية . فهناك وثيقة عرضت على المجمع المسكوني السابع ، الذي انعقد بالقسطنطينية سنة ٧٨٧م تشير إلى مدى عداوة الكنيسة البيزنطية للمسلمين . فهذه الوثيقة تتحدث عن موضوع تحريم الصور والتماثيل (اللا أيقونية) وتتناول مدى التأثير الإسلامي في هذه المشكلة التي شغلت حيزاً مهماً من تاريخ الدولة البيزنطية والغرب الأوربي على

السواء؛ وتصف الخليفة الأموي «يزيد بن عبد الملك» بأنه رجل منتهور غير متزن، وبتهمه باستخدام أحد السحرة اليهود لفشّر تحريم الصور والتعائيل في أقاليم الدولة البيزنطية، وتتحدث الوثيقة نفسها عن العرب واليهود فتصفهم بأنهم الملاحين الكفرة.

أما المسيحيون في الغرب الأوربي فقد كان موقفهم مختلفاً بشكل جذري في تلك الفترة الباكزة . فقد كان الإسلام بالنسبة لهم شيئاً بعيداً . حقيقة أن الإسلام قد ظهر في شبه الجزيرة العربية في الوقت الذي كان الإنجليز على وشيتهم ويحاول المبشرون المسيحيون تنصيرهم ؛ ولكن الفرق بين الحالتين كانت جسيمة ومذهلة . ويتمثل أوضح هذه الفروق في أن العرب قد حملوا الإسلام لينشروه بين حضارات عريقة، وواعية ، ولها أدابها المكتوبة ، بل ولها ليمانلتها (وعنها المسيحية واليهودية بطبيعة الحال) ؛ ولكن المبشرين الذين جاءوا بالمسيحية إلى أقصى الغرب والشمال الأوربي حملوها إلى مجتمع أمي كان في حالة تلقى واستقبال ولم يكن قادراً على العطاء في مجال التطور الفكري. لقد كان الجزء اللاتيني من عالم البحر المتوسط بقايا شاحبة من التراث الكلاسيكي، على حين كانت المناطق التي ضمها الإسلام تحت رايته وتضم الشعوب الناطقة بالفارسية واليونانية ، والسريانية ، أرقى ثقافة ، وأكثر (تقدمية) داخل مناطق نفوذها المباشر، كما تسربت التأثيرات الصينية والهندية إلى عالم الإسلام في فترات لاحقة .

وتمثل الفرق الثاني في أن لكل من الديانة الإسلامية والمسيحية «كتاب» يقنسه أتباع كل منهما ؛ فالمسيحيون لديهم الكتاب المقدس

بقسميه؛ العهد القديم والعهد الجديد، والمسلمون لديهم القرآن الكريم؛ لكن الفارق هنا كان يتمثل في أن القرآن الكريم جاء ومعه لغة جديدة فرضها على العالم القديم، على حين كانت الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية تهمل لغة الغرب الأوربي الأوربي القديم (أي اللاتينية) إلى أمم جديدة لم تكن تعرفها؛ وهى الشعوب الجرمانية التي اجتاحت أوروبا واستقرطنتها فيما بين القرن الخامس والقرن السابع الميلاديين\*. وربما كان هذا هو السبب في نغمة «البعد» التي تميز كتابات الأوربيين القريبين في العصور الوسطى الباكورة من المسلمين، ولكن الموقف كان مختلفاً بطبيعة الحال عند الحديث عن إسبانيا .

ففى إسبانيا ربط بعض الكتاب المسيحيين بين ظهور الإسلام وقرب ظهور المسيح النجال؛ على الرغم من أن حال المسيحيين تحت الحكم الإسلامى لم تكن شديدة الوطأة إذا ما قورنت بما كانت عليه تحت حكم الفيزيقوط Visigoths ، لأن العرب تهجروا نهجاً شديد التسامح فى إسبانيا بعد الفتح الإسلامى (٧١١-٧١٢م) مع النصارى. وقد حفظ المسيحيون جميل المسلمين الذين تركوا لهم حرية العقيدة دونما تدخل.

---

\* لقد فرضت اللغة العربية نفسها على الشعوب العريقة لغة للقرآن الكريم ، ولكن الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس لم تستطع أن تجعلها لغة الشعوب الجرمانية الجديدة. فسرعان ما تطورت اللغات واللهجات المحلية للشعوب الجرمانية إلى لغات قومية فى غضون ستة قرون أو أكثر قليلاً . ومن ناحية أخرى كان البعد اللغوى يمثل حاجزاً أمام معرفة الغرب الأوربي بالإسلام ، ولأسيما فى مناطق شمال أوروبا وغربها .

وطوال القرن الثامن الميلادي كان الحال هادئاً . وهناك مؤرخة تم تأليفها في قرطبة ١٢٧هـ / ٧٥٤م تشهد على أن رجال الكنيسة الإسبانية أنفسهم لم يكونوا ناقلين على الحكومة الإسلامية ، وذلك على الرغم من أن مؤلف هذه المؤرخة (التي تُنسب خطأ إلى إيزيدور الباجي Isidore de Beja) كان من القساوسة الذين يكرهون الإسلام وربما كان مؤلف هذه المؤرخة التي تعرف بسنة تأليفها «مؤرخة سنة ٧٥٤م» قد عاش في قرطبة ، وربما كان قد بلغ من العمر ما جعله يحمل ذكريات شخصية من سقوط مملكة الفيزيغوت . وتوصي ألفته مع تاريخ الأندلس وشئونه السياسية بأنه ربما كان موظفاً لدى المسلمين في الجهاز الإداري . وقد عكف على كتابة مؤرخة صالمة تبدأ قبل ثمانين سنة من الوقت الذي كتب فيه . ويلفت النظر أن المؤلف لا يذكر في أي موضع من كتابه حقيقة أن المسلمين كانوا أتباع دين جديد .

ويذكر كاتب «مؤرخة ٧٥٤م» فقط أن السراكة (المسلمين) ثاروا وخزوا بلاد الشام وشبه الجزيرة العربية وبلاد النهرين «... بفعل الضداع ، لا بقوة زعيمهم محمد ، ونهبوا الأقاليم المجاورة ، ومضوا من خلال النزوات السرية ، لا بواسطة الهجمات الصريحة ..» وعلى الرغم من هذه اللهجة المراوغة ، فإن الكاتب يقدم تاريخاً يكاد يكون واقعياً عن الخلفاء المسلمين الأوائل نجده متداخلاً مع تاريخ الإمبراطورية البيزنطية . ويرى هذا الرجل الذي كتب بعدما يزيد على مائة سنة من ظهور الإسلام أن «يزيد بن معاوية» (٦٨٠-٦٨٣م) ، كان من الخلفاء الصالحين ، وأنه كان «... أكثر لئناً معاوية منعاة السرور...» ويصفه بأنه كان «... محبوباً

لغاية من جميع أهل الأرض التي كانت خاضعة لحكمه . فإنه لم يسع أبداً  
مثلاً هي عادة الرجال إلى أي مجد لأنه كان ملكاً ، ولكنه عاش حياة  
أي مواطن عادي مع الآخرين...» .

ولكن صاحب مؤرخة ٧٥٤م يتخذ موقفاً عنيفاً عندما يعرض لأحداث  
الفتح الإسلامي للأندلس، ويصم موسى بن نصير باعتباره بريئاً عنيفاً :  
«... لقد دمرَ المدن الجميلة ، وأحرقها بالنيران، وحكم بالصلب على الرجال  
ذوي المكانة ، وذبح الأطفال والشباب بالسيف . وإذا أشاع الرعب بهذه  
الطريقة ، توصلت بعض المدن من أجل السلام، ومنحها السراكنة ما طلبوه  
في الحال، وعندما رفض المواطنون فيما بعد ما كانوا قد قبلوه بدافع  
الخوف والإرهاب ، حاولوا الهرب إلى الجبال حيث خاطروا بمواجهة  
الجوع وأنواع مختلفة من الموت...»

ثم تعود المؤرخة إلى لهجتها الواقعية ؛ ويذكر المؤلف إن هناك حكاماً  
مسلمين صالحين مثلاً يوجد حكام طالحون ، كما أن هناك حكاماً  
مسيحيين صالحين وآخرين طالحين . وتتحدث المؤرخة عن معركة بواتييه  
أو بلاط الشهداء، التي حدثت سنة ١١٥هـ / ٧٣٢م بين قوات عبد الرحمن  
الغافقي وقوات شارل مارتل ، حاكم الفرنجة وجد الامبراطور شارلمان  
الشهير . وقد لقيت القوات الإسلامية هزيمة فاسحة أمام قوات الفرنجة .  
وقد سمع عن هذه المعركة الإنجليزي بيديه Bede القابع في نيره البعيد  
في نورثمبريا، وكتب : «... إن السراكنة (المسلمين) الذين ألقوا كانوا قد  
خربوا بلاد القال قد لقوا جزاءهم عقاباً على غرهم...» .



ولكن مؤلف مؤرخة ٧٥٤م، التي كتب بعد عشرين سنة تقريباً من الأحداث كتب ما يوحى بأنه كان علم ومعرفة جيدة بالأحداث . وربما يكون قد استقى مادة روايته من الجنود المسلمين الذين تجوا من الحملة وعادوا إلى قرطبة . وتقدم هذه المؤرخة تفاصيل مفيدة للغاية: ولكنها لاتحمل أى شعور بالانتصار المسيحي. وتحكي هذه المؤرخة أحداثاً تاريخية تشي بأن مؤلفها كان عارفاً بالأحداث المشرق الإسلامي مثلما كان يعرف الأحداث الجارية في الأندلس .

لقد عاش كاتب مؤرخة سنة ٧٥٤م وعمل في عالم كانت التفاعلات فيه بين المسلمين والمسيحيين يومية وفعلية، ومن الواضح أنه كان مرتبطاً على نحو ما بدوائر الحكم الإسلامي في قرطبة محافظاً على هويته المسيحية .

وفي القرن الثامن الميلادي كانت علاقة أوروبا بالمسلمين في أدنى مستوياتها بسبب «البعد» و«الجهل» . فما يكن هناك ما يعين الأوروبيين على معرفة الإسلام أو المسلمين سواء في تراثهم القديم، أو في ديانتهم الجديدة. ولم يكن جوار المسلمين في الأندلس يعنى لهم شيئاً في هذا الموقف ؛ فقد ظل البعد «الهنوي» ، والبعد «الفوي» قائماً على الرغم من الجوار الجغرافي، كما بقى «الجهل» مطبقاً يمزّه الخوف، والحسد ، والعداء ضد هذا الجار«المختلف» . وربما لم يكن هناك مكان في أوروبا أبعد عن معارك الفتوح الإسلامية من إنجلترا ؛ وتشهد على ذلك قصة سانت ويليبالد St. Willibald الذي سافر في رحلة حج قرب منتصف القرن الثامن الميلادي، وعندما وصل إلى بلاد الشام تم القبض عليه هو ورفاقه ، ولم يعرف المسلمون أين بلادهم حينما قال لهم أولئك الحجاج

إنهم من إنجلترا التي لم يكن العرب قد سمعوا بها أو عرفوا موقعها على خارطة الدنيا. وظنّوهم من الجواسيس . وتم إطلاق سراحهم بفضل إسباني كان يعمل في بلاط الخليفة بدمشق . في هذه القصة نوع من التأكيد على بعد إنجلترا عن عالم البحر المتوسط الذي سيطر عليه العرب وهو ما يصدق أيضاً على أمم قاع الشمال الأوربي البعيدة عن البحر المتوسط. مثل شبه جزيرة اسكتلندا التي تضم السويد والنرويج والدانمرك.

كان وجود الإسلام يمثل أكبر مشكلة واجهت العالم الأوربي في العصور الوسطى ؛ وقد تجلت هذه المشكلة على عدة مستويات . فعلى المستوى العسكري والسياسي استندت هذه المشكلة ضرورة التعامل الدبلوماسي والاحتكاك العسكري الذي تصاعد في الفترة ما بين القرن السابع والقرن الحادي عشر حتى تبلور في الحملات الصليبية التي جردها الغرب الكاثوليكي ضد المنطقة العربية . كما استندت العمل الفكري لفهم السبب في انتشار الإسلام بنلك الشكل الذي أخاف أوروبا . ومن ناحية أخرى كان لابد من حل مشكلات التعايش مع الإسلام في عالم البحر المتوسط وإمكانيات التبادل التجاري مع المسلمين بداية من القرن التاسع فصاعداً . بيد أن المشكلة الأساسية التي واجهت الغرب الأوربي كانت مشكلة « معرفية » ؛ فقد كان الأوروبيون يجهلون تماماً سر وجود الإسلام: ما دوره الإلهي في التاريخ الإنساني ؟ هل كان من علامات نهاية العالم، أم كان مرحلة في تطور الديانة المسيحية ؟ هرطقة ، أو انشقاق ، أم ديانة جديدة ؟ هل هو بين من عمل الإنسان أم من وسوسة الشيطان ؟ أم أنه تقليد هزلي فح للمسيحية ؟ هل هو نظام فكري يستحق المعاملة باحترام ؟

## (٢)

## المشكلة المعرفية

كانت تلك الأسطة المضنية المربكة تعسك بتلابيب العقل الأوربي لتشكل معضلة تاريخية مستعصية على الحل. كانت مشكلة معرفية تم المساس بها مساً هيناً من خارجها ، ولم يكن من الممكن حل هذه المشكلة المعرفية دون المعرف اللغوية والأنبية التي لم يكن من السهل الحصول عليها بالنسبة للأوربيين آنذاك. ومن ناحية أخرى، تفاقمت مشكلة «الجهل» بالإسلام لأن المتعلمين الأوربيين كانوا من الرهبان ورجال الكنيسة الكاثوليكية الذين تملكهم الانحياز وطلب طيهم العداء ضد الإسلام والمسلمين ، كما وقعوا أسرى الرغبة القوية في «هم للمعرفة» خوفاً من أن يصيبهم النكس إذا ما حاولوا «معرفة» شئ في هذا المسد فقد كانت مشكلة التعليم في أوروبا العصور الوسطى الباكورة تتمثل في أن ما يزيد على ٩٥٪ من الذين تعلموا في أوروبا آنذاك تعلموا في المدارس البيرية ، على حين تلقى الباقون تعليمهم في المدارس الكانترائية . ولم يكن هناك وجود للمدارس العلمانية حتى القرن الثاني عشر الميلادي على الأقل. وقد انعكس هذا بطبيعة الحال على فكرة أوروبا عن الإسلام من ناحية، وعلى الموقف «المعرفي» لهؤلاء المتعلمين من ناحية أخرى.

وفضلاً عن ذلك ، لم يكن هناك شيء في تراث الغرب الأوربي القديم يمكن أن يساعد الأوربيين على فهم الإسلام ، أو معرفته ، خلال العصور الوسطى الباكرة . فقد كان الإسلام على عكس اليهودية، ظاهرة جديدة في التاريخ الإنساني ؛ كان شيئاً جديداً جاء بكتاب يحمل كلام الله بلغة غريبة على الأوربيين . ولم يعرف الأوربيون عنه شيئاً في ذلك الحين سوى تلك الدعاية النزقة التي روجها الكنسيون . وعلى المستوى الدنيوي كان نجاح الإسلام متجسداً في وجوده القوي في عالم البحر المتوسط وفي شبه الجزيرة الأيبيرية يمثل مشكلة مخيفة ومصدر قلق وتهديد دائم لأوروبا في تلك الفترة من تاريخها . فقد كان المسلمون بالنسبة لأوروبا آنذاك «جارات» قوياً وغنياً ومخيفاً ، كما كانوا يستثيرون عوامل الحسد في نفوس قادة المجتمع الأوربي في تلك الفترة. التي كانت أوروبا فيها مجتمعاً لم يدخل بعد في مرحلة النمو. .

وفي القرون الأولى من تاريخ العلاقات الإسلامية / الأوربية كان «الجهل» والعداوة من أبرز خصائص الموقف الأوربي من الإسلام والمسلمين ؛ بيد أننا لا نستطيع تحديد هذا الموقف بشكل عام سواء من الناحية الزمنية ، أو من حيث النطاق الجغرافي. وثمة تفاوت في المواقف بحسب طبيعة الأماكن التي تعاملت مع المسلمين، وبحسب درجة الوجود الإسلامي ومدى قربه أو بعده .

كانت المشكلة الأولى التي واجهت المسيحيين عموماً بشأن الإسلام تتعلق بحقيقة هذا الدين ، وماهيته ، ورسالاته ، ونبيه، وطبيعة موقف الإسلام من المسيحية وعقائدها على المستوى اللاهوتي. كما تمثلت المشكلة

أيضاً على المستوى الذئوى فى كىففة التعامل مع الوجود الإسلامى  
النتاج سىاسىاً وعسكرىاً ، والمزهر اقتصابىاً ، والمتفوق حضارىاً . وهنا  
نكرر ما سبق أن ذكرناه عن أنه كان هناك قدر من الاختلاف الواضح بين  
موقف كل من المسيحية الشرقية ، والكيسة الكاثوليكىة التى تزعمتها  
البابوىة من المسلمين ومن الإسلام. كما كان الأمر بالنسبة للمسيحيين فى  
المنطقة العربىة مختلفا بشكل عام ، عنه فى الأندلس وأوربا .

ولم يكن هناك ما يمكن أن يساعد الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى  
على فهم الدين الإسلامى فلم يكن له مثيل عرفه الأوربيون فى تاريخهم من  
قبل ، كما أن اللغة العربىة كانت مجهولة تماماً فى أوربا آنذاك . وفى ذلك  
الحين كان نجاح الإسلام باهرأ ، كما كان المسلمون جارأ قوياً وغنياً  
لأوربا يستثير فى نفوسهم مشاعر مختلفة ومتضاربة بين الحسد والجهل  
والعداوة؛ بحيث ارتسمت فى العقل الأوروبى صورة عن المسلمين ترسم  
صائماً من العنف والتخريب . وطوال القرون الأولى التى أعقبت ظهور  
الإسلام لم يحدث أى تطور حقيقى فى الموقف الأوروبى بل ظل هذا الموقف  
ثابتاً بصورة تسبىة حتى فترة الصروب الصليبية . وفى الرغم من أن  
صورة العالم الذى يسوبه العنف والتخريب لم تكن فى الحقيقة ناتجة من  
قدوم العرب إلى أوربا فى غمار حركة الفتوح الإسلامىة، فإن الشحن  
الدعائى فى القرن الحادى عشر ( الذى خرجت أولى الحملات الصليبية فى  
نهايته) حفز الرىط بين الإسلام والعنف والتخريب. ولقد كانت صور العنف  
والتخريب ترتبط فى الذاكرة الأوربية بأهم أخرى كثيرة أسبق فى وجودها

التاريخي من المسلمين ؛ ولم يكن العنف والتدمير الذي ارتبط بمعارك الفتوح الإسلامية في أوروبا متميزاً عن أي «عنف» آخر حملته الذاكرة الأوربية في تاريخها الذي شهد الكثير والكثير من الغزاة وعانى من موجات القتل والتدمير ، كما عرف في خبرته التاريخية مدى ارتباط العنف بالأطماع الاقتصادية والمواقف السياسية. ولم يكن المسلمون الذين غزوا أوروبا هم الذين «اختصوا» العنف ، الذي لم يكن يمثل بالنسبة للأوربيين أمراً غير مألوف. ولكن الموقف تغير مع تيار الدعاية القاسية ضد الإسلام والمسلمين في عمار الاستعداد للحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥ - ١٠٩٩م؛ بحيث صار العنف مرتبطاً في الوجدان الأوربي بالإسلام والمسلمين.

وهنا ينبغي أن نضع في الاعتبار أنه كان هناك اختلاف في المواقف داخل أوروبا نفسها من الإسلام ، حتى في هذه الفترة البكرة، فقد كان الإسلام والمسلمون يشكلون مشكلة بحر متوسطية لا مشكلة أوربية عامة؛ إذ كانت إيطاليا وصقلية ، وجزر البحر المتوسط؛ فضلاً عن إسبانيا ، هي التي جربت الاحتكاك الفعلي بالمسلمين ، وعانت من الغزو والحرب كما أفادت من تقدم الحضارة العربية الإسلامية وذاقت حلاوة ثمارها لا سيما بعد أن هدأت الأمور بعد استقرار الحكم الإسلامي ولكن شمال أوروبا وغربها كانت ترى في المسلمين عدواً من بين عدة أعداء محتملين ، وكانت المشكلة بالنسبة لهذه الأتجاه مشكلة معرفية في أساسها .

وسنجد نغمة تشبه بالبعد الجغرافي والمعتوى في كتابات شمال أوروبا عن المسلمين في عالم البحر المتوسط . لقد كان الإسلام لايشبه شيئاً آخر

في تجربتهم التاريخية بمعنى أنه كان ديناً جديداً ومختلفاً عن الأديان التي عرفوها من قبل . وكانت هناك أوقات بدا فيها أن من المقبول بالنسبة للكتاب الأوربيين آنذاك كتابة الموضوع الذي يخص المسلمين اعتماداً على تخيلاتهم وتصوراتهم عن الإسلام والمسلمين، بحيث تبدو كتابة الموضوع كله وكأنها نتاج الوهمي لخيال شرير . ولم يكن هذا الموقف في حقيقته سوى نتاج للجهل الذي تمت تغطيته باختراع الصورة الخيالية الشريرة للإسلام والمسلمين .

وعلى الجانب المسلم لم تكن المشكلة قائمة ، أو على الأقل قائمة بهذه الحدة. فلم تكن المسيحية أو السيد المسيح وقصته ومعجزة ولادته مسائل مجهولة بالنسبة للمسلمين . ذلك أن الوجود التاريخي للمسيحية قبل ظهور الإسلام في المناطق التي صارت فيما بعد مناطق إسلامية وفر الكثير من المعلومات عن المسيحية ومذاهبها على أرض الواقع ؛ فضلاً عن أن أعداداً كبيرة من المسيحيين اعتنقوا الإسلام في القرون الأولى التي أعقبت ظهوره . ومن ناحية أخرى ، فإن القرآن الكريم خصص مساحة كبيرة لكافة جوانب القصة الحقيقية للسيد المسيح وحياته على الأرض منذ ولادته الإعجازية من أمه مريم العذراء حتى رفعه الله . كذلك يؤمن المسلمون بنبوة المسيح على اعتبار بآن الإيمان بالرسل السابقين على النبي محمد عليه الصلاة والسلام جزء من أركان الإيمان الإسلامي ولا يوافق القرآن الكريم بطبيعة الحال على فكرة ألوهية المسيح، كما يرفض القول بأنه ابن الله، وينكر حادثة الصلب على أساس أنه شُبِّهَ لَمَن ظَنُّوا أَنَّهُم صُلِبُوا

المسيح أنهم فعلوا هذا . بيد أن القرآن يتحدث عن السيدة مريم العذراء بقدر كبير من التيجيل ، كما يتحدث عن معجزات المسيح.

كما أن الإسلام كان له موقف صريح ومحدد بشكل قاطع فيما يتعلق بالدمرة إلى الإسلام ؛ سواء كانت هذه الدعوة موجهة إلى الناس كافة أو إلى المسيحيين واليهود (أهل الكتاب) بشكل خاص إذ ينبغي أن تكون هذه الدمرة بالمكمة والموظفة العسنة . وقد رأى الإسلام السماح للجماعات المسيحية واليهودية أن تبقى داخل دار الإسلام وأن يتمتع أتباعهما بوضع «أهل الذمة» ؛ أى أن تكون هذه الجماعات جماعات تتمتع بحريتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وأن يدفعوا «الجزية» فى ظل حماية الحكم الإسلامى.

ويرى بعض المفسرين أن الجزية التى فرضت على «أهل الذمة» كانت جزءاً تأمينهم فى ديار الإسلام، وحمايتهم ، والدفاع عنهم . كما يرى عدد من المفسرين أن أهل الذمة ، على الرغم من إيمانهم بوحداية الله سبحانه وتعالى، كفروا بما جاء به محمد ؛ ومن ثم لم يبق لهم إيمان صحيح بلعد من الرسل لأن الإيمان بالرسول إيمان بالمرسل . وهم بذلك يتبعون أهواهم ومن ثم يجب قتالهم حتى يعطوا الجزية . ومن ناحية أخرى، لم تكن الجزية فى الواقع الأمر سوى «ضريبة دفاع» على حد تعبیرنا المعاصر. فهى مقابل مائى لما ينعم به أهل الذمة من حماية فى ديار الإسلام.

وعلى المستوى المعرفى ، كان المسلمون يعرفون الكثير عن المسيحية ، ولكن إيمانهم بوحداية الله كان يعنى علمياً إنكار الثالوث والتجسد ،



والوهية المسيح . كما أن الإسلام اعترف بمولد المسيح من عذراء ،  
 وبالمميزات الخاصة والمعجزات التي تحققت على يديه بوصفه نبياً من  
 الأنبياء والرُسل الذين لُحِقَ بهم الله ؛ ولكنه رفض فكرة كونه الإله الابن  
 داخل الثالوث . لقد كان معظم المسلمين الجدد هم أنفسهم المسيحيين  
 السابقين الذين اعتنقوا الإسلام بعد نجاح حركة الفتوح الإسلامية على  
 الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط . وحين اختلطوا بالعرب  
 الفاتحين (وكان هناك جزء مسيحي من صرب الشام والعراق بقوا على  
 مسيحيتهم) كان هناك نوع من الحوار الضروري بين المسلمين والمسيحيين،  
 ومن ناحية أخرى، فإن المسلمين لم ينبذوا التراث الثقافي للمناطق التي  
 فتحوها ؛ وإنما أقبلوا على ترجمة آثار هذا التراث ، مستعينين في عملية  
 الترجمة الكبرى ببعض العلماء المسيحيين . وعندما انتقلت عاصمة  
 المسلمين من المدينة المنورة في الحجاز إلى دمشق في بلاد الشام ، كان  
 ذلك يعنى الانتقال إلى وسط حضارى أكثر ثراءً بالتراث الهيلينىستى الذى  
 يجمع بين الثقافة الإغريقية القديمة وثقافات مصر وبلاد الشام والعراق .  
 لقد كانت البقعة التى نجحت الفتوحات الإسلامية فى ضمها منذ الرابع  
 الثانى من القرن الهجرى الأول (السابع الميلادى) تتم بحظ وافر من  
 التراث الفلاسفى بفضل المترجمين السريان المسيحيين على وجه الخصوص  
 . وكانت مدرسة الاسكندرية حتى أوائل القرن السابع الميلادى تزدهر  
 بعلوم الأوائل ؛ ولاسيما الطبي . وكان يوحنا النحوى، الذى كان من أهم  
 شُراح أرسطو ، من كبار الذين دافعوا عن العقائد المسيحية . أما فى

شرق العالم للمسلم فقد ازهرت العلوم اليونانية في البلدان التي كان أهلها يتكلمون السريانية والفارسية، مثل الرها (إيسا) ، ونصيبين ، والمدائن وجنديسابور ، حيث ساد المسيحيون النساطرة . وفي أنطاكية التي كان سكانها من المسيحيين المونوفيزيتيين. أي أتباع مذهب الطبيعة الواحدة.

كانت هذه المؤسسات العلمية والفكرية قبل ظهور الإسلام في المنطقة العربية الأساس الذي قامت عليه حركة الترجمة إلى العربية فيما بعد؛ وكان من أبرز رجالها عدد من العلماء والمفكرين المسيحيين. ومن بينها كانت مدرسة جنديسابور التي بدأت تزدهر أيام الملك الفارسي كسرى أنوشروان (٥٢١-٥٧٩م) بفضل العلماء النساطرة الذين تم طردهم من الرها آنذاك؛ وفي جنديسابور اتصل العلماء اليونانيون والسريان والفرس بعلماء الهند وتأثروا ببعضهم البعض .

كان هذا الأساس الذي قامت عليه البنية المعرفية للمسلمين بالمسيحية والمسيحيين في عالمهم وفي خارج هذا العالم . فمنذ البداية قامت الدولة الإسلامية برعاية ما يمكن تسميته مشروع الترجمة للانتفاع بعلوم السابقين في شتى مجالات الحياة. وكان المسيحيون المحليون من السريان وغيرهم حلقة الوصل بين المسلمين والتراث اليوناني القديم . وبرزت أسر وذاعت شهرتها بفضل ما قام به أبنائها من ترجمات . وقد أنشأ الخليفة المأمون مؤسسة خاصة، هي التي عرفت باسم «بيت الحكمة» لترجمة علوم الأوائل من اليونانية والسريانية إلى العربية. بيد أن خالد بن يزيد (ت ٨٥هـ / ٧٠٤م) كان أول من أمر بترجمة التراث العلمي لليونان إلى اللغة

العربية، إضافة إلى تعريب ما كان مكتوباً بالسريانية والقبطية . ويعتبر خالد بن يزيد بن معاوية الرائد الأول في نقل العلوم إلى اللغة العربية مما وفر أداة معرفية قوية لم تكن متاحة في أوروبا المسيحية على الجانب الآخر . وفيما بعد لعب «بيت الحكمة» دوراً مهماً في معرفة المسلمين بالآخر المسيحي .

ومنذ البداية ، لم تكن محاولات الترجمة محاولات فردية بأي حال وإنما كانت عملاً منظمًا ترعاه الدولة نفسها . فقد أرسل المأمون بعثة إلى الدولة البيزنطية بحثًا عن المخطوطات اليونانية ، وكان من أعضائها «الحجاج بن مطر» ، «يوحنا بن البطريق» . كما أرسل بنو شاعر (محمد ، وأحمد ، والحسن) الذين أسهموا في طم الهندسة الميكانيكية إسهاماً كبيراً تعلم منه الأوروبيون عندما بدأت محاولاتهم للإفادة من علوم المسلمين في العصور الوسطى. كما أنه أرسل بعثة من أبرز أعضائها حنين بن أسحق، للحصول على المخطوطات من بلاد الروم. ويقول ابن التميمي صاحب الفهرست إنهم عابوا من هناك ومعهم «... طرائف الكتب، وفرائب المصنفات في الفلسفة والهندسة والموسيقى، والأرثماطيقى (الحساب) والطب...» ومن ناحية أخرى، كان المترجمون يتفون إلى بغداد ومعهم المخطوطات التي سيقولون ترجمتها .

فقد كان التراث المكتوب باللغة اليونانية ، وتراث شعوب المنطقة العربية، تراثاً إنسانياً جديراً بالاحترام وجد فيه المسلمون ما يفيدهم في بناء حضارتهم . ولم تجد المشاعر الدينية المتعصبة مكاناً لنفسها في كتابات المسلمين عن أساتقتهم القدامى من ناحية، كما أنهم لم يتركوا التعصب

فرصة حرمانهم من الإفادة من جهود المترجمين المسيحيين من ناحية أخرى. ذلك أن «الرغبة في المعرفة» كانت تميز موقف المسلمين كما كانت تقيضاً لموقف «الخوف من المعرفة» لدى المسيحيين في غرب أوروبا. وهكذا كان موقف المسلمين من علوم القدماء، ومن المترجمين والطباء المسيحيين من أهم العوامل التي أسهمت في بناء الحضارة العربية الإسلامية. وهذا ينبغي أن نؤكد على حقيقتين غاية في الأهمية من وجهة نظرنا: أولاً؛ أن الصورة التي ترممها المصادر التاريخية، التي تركز جُلَّ اهتمامها على الصدام العسكري بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة البيزنطية المسيحية لم تكن دقيقة في كل الأحوال؛ إذ كان هناك نوع من التعايش السلمي المشترك إلى حد ما، وكان هناك قدر من التفاعل والاعتماد المشترك بعيداً عن نواتر الحكم.

وثانيتهما؛ أن صورة الروم، أو البيزنطيين، في التراث العربي الإسلامي كانت أفضل كثيراً من صورة الفرنجى، أو الأوربيين الغربيين. ويمكن تفسير ذلك في ضوء ما نعرفه من أن الغرب الأوربي في تلك الفترة كان بمثابة «منطقة سوداء مجهولة» من الناحية المعرفية، بالنسبة للمسلمين بسبب الفوضى الناجمة عن الغزوات الجرمانية التي استغرقت الفترة ما بين القرن الخامس والقرن السابع أى قبل ظهور الإسلام، وتسببت في تمزيق أوروبا في ظل انهيار السلطة السياسية المركزية منذ سقوط روما سنة ٤٧٦م. ثم الحروب الاقطاعية التي مزقت أوروبا حتى القرن الحادى عشر على الأقل. لقد كانت أوروبا الغربية والشمالية بالنسبة للعرب والمسلمين مناطق غير جديرة بالاهتمام؛ فقد مزقتها الحروب

الإقطاعية، وكانت مجتمعاً متخلفاً متعصباً ضد «الآخر» سواء كان ذلك «الآخر» متمثلاً في المسيحية الأرثوذكسية (التي اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية كنيسة مهرطقة خارجة عن الإيمان القويم، وبات نروثة العداء قمتها في ذلك الانشقاق الكبير بين الكنيستين الذي حدث سنة ١٠٥٤م) أو في الشعوب الأوروبية التي كانت ما تزال على وثنييتها في شمال أوروبا ووسط أوروبا ، ولم يشعر المسلمون بالحاجة إلى معرفة «الفرنجي» ولم يعرفوه فعلاً على نطاق واسع سوى من خلال الحركة الصليبية التي بدأت منذ أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي حسبما سنوضح فيما بعد .

هكذا ، كان هناك تصور غامض لدى كل من المسلمين والمسيحيين الأوروبيين عن الآخر ، وكان هناك إحساس متبادل بالبعد المادي والمعنوي؛ جغرافياً وثقافياً ، لدى كل من الجانبين ، في القرون الثلاثة الأولى بعد ظهور الإسلام ، وكانت الأحداث العسكرية تفرض نفسها على الصورة العامة؛ ولكن الحقيقة لم تكن مطابقة للصورة العامة. إن هذه المرحلة التي يطلق عليها البعض مرحلة «الجهل» بالآخر لا تنطبق سوى على العلاقة بين العالم الإسلامي، وأوروبا الغربية الكاثوليكية ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تنسحب على العلاقة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي الشرقي البيزنطي، كما لا يمكن أن تنسحب على دول عالم البحر المتوسط المسيحية التي عرفت المسلمين وخيرتهم من قرب.

## (٣)

## التصورات والمفاهيم الأيديولوجية والحقائق التاريخية

لا بد أن نتوقف قليلاً هنا أمام الفكرة الشائعة في الكتابات التي ترجع إلى تلك الفترة وتصور انقسام العالم إلى جزئين يفصل بينهما خط رفيع هما دار الإسلام والعالم المسيحي؛ وعلى المستوى المعرفي تمت ترجمة هذه الصورة المصطنعة إلى مجموعة من المفاهيم الواسعة تتحدث عن ديانتين متعارضتين ، ومن ثقافتين مختلفتين، وحضارتين متخاضمتين . وفي هذا السياق الأيديولوجي صار «الإسلام» و «عالم المسيحية» مفهومين مجريين يحملان معنى أوسع وأشمل ، ولم يعودا مجرد إسمين لديانتين مختلفتين. ووجه الخطورة هنا أن هذا المفهوم ليس محمداً في مصطلحات تاريخية؛ ومن ثم متغيرة ، بشكل واضح؛ وإنما تم تصديده بالتماذج الظاهرة غير القابلة للتغير مثل : الدين ، أو اللغة أو الميراث الثقافي. لم يكن هذا الموقف الأيديولوجي قاصراً على الغرب الأوربي وحده وإنما كان هناك موقف شبيه له على الجانب الإسلامي ؛ فقد تحدث الفقهاء المسلمون عن «دار الحرب» و «دار الإسلام» ولم يكن حديثهم في إطار المصطلحات والحدود الجغرافية ، والحقائق التاريخية ، وإنما في سياق ديني تحكمه مفاهيم

المواجهة بين قوتين متخاصمتين . وقد غنت كتابات الفقهاء المسلمين من ناحية ، وكتابات علماء اللاهوت المسيحيين من ناحية أخرى، هذا التصور الإيديولوجي لاتقسام العالم. ولكن الأحداث التاريخية الحقيقية كشفت عن تهافت هذا التصور المجافى للواقع التاريخي.

هذه الرؤية ، حسبما يرى بعض الباحثين ، التي افترضت وجود الحدود بين «دار الإسلام» و«دار الحرب» بالنسبة للمسلمين ، أو «الإسلام» وعالم المسيحية بالنسبة للغرب الأوربي ، قد بُنيت على أساس مصطنع تعاماً وتتجاهل الدور الذي لعبته الإيديولوجيا في التعريفات والمفاهيم التي طورها الكتاب في العصور الوسطى . بيد أننا نجد هنا قدراً كبيراً من الاختلاف والتباين بين الموقف الإسلامي والموقف الأوربي الكاثوليكي. فقد كان الفقهاء المسلمون ، وليس المؤرخون هم الذين طرحوا فكرة «الحدود» بين دار الإسلام ودار الحرب. وعملت كتب التاريخ الإسلامية المعاصرة بالتفاصيل التي تنقض هذه الفكرة من أساسها من ناحية، كما أن المؤرخين المسلمين لم يقولوا الصواب التاريخي التي دونوها داخل هذه الفكرة من ناحية أخرى. ولكن ما حدث في الغرب كان مختلفاً ؛ فقد كان مؤلفو المؤرخات الأوربية من القساوسة والرهبان. وكانت من مقاليد الكتابة «التاريخية» في ذلك الحين أن يكتب التاريخ كما يجب أن يحدث وفقاً لتصورات الكنيسة ، وليس كما حدث بالفعل .

ولدينا مثال على ذلك في حواشي إسرائيلية عنوانها Cronica Profetica تقول إن الرب أطن للنبي حزقيال أن الرب سوف يهجر اسماعيل (أي

المسلمين) وأن ينجوح سوف يهزمه في النهاية. وكان تفسير النبوة أن ينجوح يمثل شعب الفيزيغوط الذين كانت إسبانيا أرضهم التي عاشوا فوق ترابها حين نجحوا في انتزاعها لأنفسهم في غمار حركة الغزوات الهرماتية ؛ وبسبب خطاياهم تعين عليهم أن يدفعوا الجزية إلى المسلمين . وقال المؤلف الذي كان يكتب سنة ٨٢٢م إن هناك نبوءات تقول بأنه في غضون أشهر قليلة سوف ينتهي حكم العرب وسيعود السلام إلى الكنيسة الإسبانية . ومرت سنة ٨٢٢م ولم تتحقق النبوة بطبيعة الحال . ومع هذا، فإن فكرة أن ينجوح كان يحكم الشمال، وإن الغاصب إسماعيل (أى المسلمين) كان يحتل بقية البلاد، ظلت باقية بطريقة أو بأخرى لتكون أساساً لفكرة الاسترداد Reconquista التي صارت مصطلحاً دالاً على الحرب التي شنها الكاثوليك الإسبان ضد المسلمين في الأندلس.

فإذا ما نظرنا إلى الجانب الإسلامي في الأندلس نجد الصورة معاكسة تماماً؛ إذ إن الكتاب للمسلمين استخدموا كلمة بمعناها للإشارة إلى الخط الفاصل بين العالمين الإسلامي والمسيحي وهي كلمة «ثغرة» (وجمعها ثغور). وهي كلمة مثيرة تماماً لأن ابن منظور في «لسان العرب» يعرفها بأنها شريط الأرض الذي يفصل «دار السلام» عن «دار الحرب» ؛ ومن ثم فإنه بعد الخروج من «الثغرة» يصير الجهاد فرضاً على كل حاكم مسلم ، وتؤكد النظرية السياسية الإسلامية على أن أحد الواجبات الرئيسية للحاكم المسلم أن يدافع عن الثغور ويمنعها بما يلزمها من قوات . وإذا كان الكتاب الأندلسيون في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي قد تعلقهم فكرة



الشرعية الدينية والسياسية لحكامهم (الذين أقاموا دولة متفصلة عن الخلافة العباسية التي قامت سنة ١٢٢ هـ على أنقاض الخلافة الأموية) فإنهم لم يفوتوا الفرصة لكي يبينوا كيف حرص الأمويون في الأندلس على القيام بواجب الجهاد دفاعاً عن دار الإسلام.

ولكن الحقيقة التاريخية تأبى الانصياع لمزاعم الإيديولوجية الدينية . وذلك أن المثال الإسباني نفسه يكتب هذه الإيديولوجية على الجانبين . فقد أثبتت الدراسة أن الذي سكن شمال شبه جزيرة أيبيريا لم يكن ياجوج ؛ وإنما عصابة من الشعوب البدائية التي لم يكن هدفها الدفاع عن المسيحية (لأنهم لم يعتنقوا المسيحية سوى في القرن الثامن الميلادي) وهو ما يجعل الفكرة الإيديولوجية من الصود الإسلامية- المسيحية تتداهى وتتهار.

ومن ناحية أخرى، فإن فكرة الصود، أو الثغور ، قد نشأت في مشرق العالم الإسلامي أساساً، وكان لها معنى خاص للغاية في النظرية السياسية الإسلامية ارتبط بالجهاد وواجب حماية هذه الثغور بالرياطات (مفردها رباط) التي كانت تحصينات تؤوي المحاربين المسلمين الذين مزجوا بين واجباتهم العسكرية والحياة الدينية القوية. وعلى الرغم من هذه الصياغات البلاغية الواردة في كتب الفقه، فإن الأمر لم يكن كذلك على مستوى الوقائع التاريخية. ففي أعالي بلاد الشام حيث الصود المشتركة بين المسلمين والبيزنطيين، كان المسلمون يأخذون بزمام المبادرة ضد الروم «البيزنطيين» بحيث فرضوا حصاراً طويلاً على القسطنطينية أكثر من مرة. كما كانت لكل مدينة في الشام وآسيا الصغرى تحصيناتها

وقلاعها التي تنتمي إلى قنترات سابقة على ظهور الإسلام ، بل وعلى وجود القسطنطينية نفسها . كما أن سكان مناطق «الثغور» هذه كانوا مزيجاً من المسيحيين والمسلمين . ومن ناحية أخرى، فإن هذه المناطق شهدت تبادلاً بين المسلمين والبيزنطيين في حكم هذه المناطق وهو ما يعنى في التحليل الأخير أن سكان الجانب المسلم لم يكونوا جميعاً من المسلمين ، وإنما كان بينهم عدد كبير من المسيحيين ، كما أنه كان هناك عدد كبير من المسلمين يعيشون في الجانب البيزنطي؛ بل إن القسطنطينية نفسها كان بها مسجد وحى المسلمين.

ولم تكن حدود العالم الإسلامي ، أو العالم المسيحي، محددة على أساس من العقائد الدينية؛ سواء على الحدود مع الروم في الشرق ، أو مع أوروبا في الغرب . فقد كانت الجماعات الدينية المسيحية تعيش تحت الحكم الإسلامي في آسيا الصغرى وبلاد الشام والعراق ومصر... وغيرها . وكانت بعض هذه الجماعات تعيش في مناطق «الثغور» في أعالي بلاد الشام كما كان الحال في الرها وأنطاكية وفي الموانئ البحرية شرق المتوسط.

وفي الأندلس ، أيضاً، لم تكن الثغور تمثل خط الدفاع من دار الإسلام، بل كانت حدود الأندلس متداخلة مع حدود المناطق المسيحية في شبه الجزيرة الإيبيرية، كما كانت خليطاً مريباً ومشوشاً من التناقضات . والواقع أن هناك أدلة كافية توضح أن الجماعات المسيحية كانت تعيش في قلب الثغور في الأندلس الإسلامية، وهناك عدد من الوثائق التاريخية

التي تبرز هذه الحقيقة . وهنا نجد شرحاً يتسع بإطراد في البنيان الإيديولوجي لفكرة الحدود الإسلامية – المسيحية. إذ أسهمت الحوادث السياسية والاجتماعية في المنطقة إسهاماً حاسماً في تشكيل موقف كان في حالة من السيولة الدائمة في ثغور الأندلس. ففي تلك المنطقة واجه الأمويون، في دولتهم الأولى وفي دولتهم الثانية، الممالك المسيحية البارزة والعائلات الاستقرائية التي احتلت قطاعات كاملة في مناطق الحدود وحكمتها حكماً مستقلاً . ومن المثير أن بعض تلك العائلات كانت من أصول عربية ، وكان البعض الآخر من أصول بربرية ، على حين كان بعضها من أصول قوطية؛ مثل أميرة بني قصي (٧١٤-٩٢٤م) التي كان جدها الأعلى كاسيوس ( ت بعد ٧١٥م) من الفيزيقوط Visigoths . ولم يسبب له الفتح الإسلامي إزهاجاً كبيراً ؛ فقد اعتنق الإسلام واحتفظ بأراضي توقيته الصربية التي وسعها خلفاؤه وضموا لها أراضى أخرى . وحتى النصف الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ظلت تلك الأسرة عنواناً على عدم اتساق الفكرة الإيديولوجية من الحدود الإسلامية المسيحية، كما بقيت تلك المنطقة عمومًا تفتقر إلى التجانس الضروري لجعلها منطقة حدود فاصلة بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي الكاثوليكي في أوروبا الغربية.

فإذا عبرنا جبال البريتيس وجفنا مثلاً معاكماً ؛ ففي سنة ٨٩١م استولت جماعة من الغزاة العرب على قرية جارد فريتيه -Garde-Freijet، بالقرب من فريجوس Frejus ( فراكسينتوم Fraxinetum)، وحصنوها . وقد ازدهرت هذه المستوطنة (العربية المسلمة) على مدى فترة

طويلة من الزمان باعتبارها قاعدة للإشارات التي شنتها سكانها على المناطق المجاورة . ويشرح المؤرخ لويثيراند الكريغوني الموقف بقوله :

«أهل الميروباتسال الذين كانوا أقرب الجيران لأولئك الناس بدأوا يختلفون فيما بينهم بفعل الحسد .. ولأن كل فريق لم يستطع أن يجد ما يشفي حسده، فإنهم استدعوا العرب أنفسهم لكي يساعدوهم ؛ وهم قوم بلا دين وأهل مكر وبها .

وقد ميّز لويثيراند بين مختلف القوى العربية الإسلامية؛ وكان في هذا أكثر حرصاً من غيره. فقد كان من رأيه أن الأغلبية الذين جاءوا من تونس ليستوطنوا جنوب إيطاليا كانوا أسوأ من عرب «جارد- فريثيه».

هنا نصل إلى نقطة فارقة في تحطيم الصورة الأيديولوجية من الحدود الفاصلة بين «عالم الإسلام» و«عالم المسيحية» ؛ ففي القرن الثامن الميلادي/ الثاني الهجري كان المسلمون، بالنسبة للأوروبيين مجرد عامل عادي من بين عدة عوامل حكمت مسار الحوادث التاريخية في ذلك الحين. فقد كانت التحالفات بينهم وبين المسلمين آنذاك أمراً عادياً. ولم يكن المسلمون، بالضرورة ، هم الذين يستفيدون من هذه التحالفات ؛ لأنهم كانوا مجرد عنصر واحد من العناصر الأجنبية التي عرفها الأوروبيون في ذلك الحين، ولم تكن المواقف الأيديولوجية التي تبلورت في القرون التالية سوى ثمرة من ثمار الدعاية المعادية النزقة التي سبقت الحروب الصليبية وواكبتها . ولم تكن تعبيراً عن حقائق التاريخ أبداً . فلم تكن هناك قطيعة سياسية بين عالم الإسلام والغرب المسيحي من ناحية، كما أن الحرب لم

تكن هي العلاقة الوحيدة بين الجانبين قبل عصر الحروب الصليبية من ناحية أخرى .

إن كانت هناك علاقات من نوع ما بين بعض السلالات الحاكمة في أوروبا والحكام المسلمين ؛ فقد كانت الأسرة الكارولنجية تتيه عجباً عندما تظن أنها دولة عالمية وترى نفسها في صورة كوزموبوليتانية. ففي سنة ٦٩٢م تباهى بييبن الثاني، هرميتال Pepin II Herstal (٦٤٠م - ٧١٤م) الذي كان عمدة القصر وصاحب السلطة الفعلية في مملكة الفرنجة الميروفنجيين ، بأنه استقبل السفراء من كل الأمم المجاورة «اليونان، والرومان، واللمبارديين، والهون، والسلاف والمسلمين». وذلك قبل قيام الدولة الكارولنجية.

كما أن الحكام العرب في الأندلس غالباً ما كان يرد ذكرهم في الحوليات المعاصرة، وكانت أسمائهم معروفة جيداً ؛ مثل أسماء الأباطرة والقادة البيزنطيين على الأقل. ، وقد سجلت المصادر التاريخية أن الملك الكارولنجي استقبل حاكم سرقسطة وغيره من الحكام العرب المسلمين في الأندلس، وفي ذروة حكم شارلمان Charlemagne (٧٤٣-٨١٤م) ، تسجل الحوليات أنه في سنة ٧٩٧م، تم استقبال الأمير المسلم هيدالله الذي كان هارباً من حكم أخيه في المغرب، في عاصمته آخن، وفي سنة ٨١٧م استقبل الإمبراطور شارلمان مبعوثي حكام الأندلس الذين أمضوا الشتاء في عاصمته آخن.

بيد أن أشهر روايات العلاقات بين العرب والأوروبيين في تلك العصور هي تلك التي تتحدث عن علاقات هارون الرشيد وشارلمان . ولكن المصادر

التاريخية العربية لم تتكر شيئاً عن تلك . ويشك البعض في أن تكون هذه العلاقات كانت قائمة حقاً ، وأن المفاوضات بينهما قد حدثت بالفعل ؛ ولكن الأوربيين يعتقدون أنها حدثت ، وأن هارون الرشيد أرسل سفارة بالفعل محملة بالهدايا ، وكان من ضمنها قيل كان عبوره جبال الألب قد تسبب في مشكلة كبيرة حسبما يؤكد إينهارد Eighard ، كاتب سيرة شارلمان Vita Karli Magni Imperatoris . وعلى الرغم من الشكوك التي تحوم حول قصة السفارة والهدايا والعلاقات بين الخلافة العباسية وشارلمان ، والتي ترى أن هارون الرشيد لم يكن ليحفل بدولة متخلفة صغيرة نائية على حين كان هو زعيم أكبر دولة في العالم - على الرغم من هذا ، فإن القصة تكشف عن أن نوعاً من العلاقات الإيجابية كان قائماً بين عالم الإسلام وعالم المسيحية آنذاك .

وبالنسبة لشارلمان ، وأسلانه ، وخلفائه كانت هناك حروب ضد المسلمين في المنطقة التي صارت فرنسا فيما بعد ؛ ومثلما كان الحال في برشلونة وسرقسطة ، لم تكن هناك حدود واضحة بين عالم الإسلام وعالم المسيحية ، وإنما كانت تلك حروباً بين الجيران . ولم يكن من غير المألوف بالنسبة للنبله المسيحيين أن يتحالفوا مع حلفاء من العرب ، كما كان من المعتاد أن يطلب أحد المتمردين العرب مساعدة حاكم مسيحي ضد أحد الحكام المسلمين في الأندلس . والمعركة الشهيرة التي انتصر فيها شارل مارتل Charles Martel (٦٩٠-٧٤١م) على المسلمين في معركة بلاط الشهداء (تور - بواتييه Tours-Poitiers) ، ساندته فيها النوق إوينو

Eudo دوق أقطانيا ، الذى كان قد دعا عبد الرحمن الداخل من قبل «... لكى يدافع عنه...» ضد شارل مارتل حسيما تنكر حوليات ميتز Metz. وليس هناك كاتب حوليات أوريى عاش فى تلك الفترة تناول أحداث الحروب التى جرت فيما بعد بين المسلمين والمسيحيين حول أقينيون ، وناربون، ونميس Nimes على اعتبار أنها نوع من الحرب المقدسة؛ بل إن حولية الملوك الفرنجة تذكر فى أحداث سنة ٨٢٠م أن المعاهدة التى كانت قد عُقدت مع العرب فى الأندلس صارت بلا فائدة ، وأن الهجوم المسيحى كان انتهاكاً لها . هنا نجد نفخة حيائية لا تتوافق مع الهيستريا الإيديولوجية فى زمن الحروب الصليبية. وتتضح النفخة الحيائية نسبياً قرب نهاية القرن الثامن الميلادى/ الثانى الهجرى فى العوليات والمؤرخات الكارولنجية ؛ ومع أن الفرنجة كانوا مشتبهين بالفعل مع المسلمين فى عهد شارل مارتل ، كما أوضحنا ، فإن خطر المسلمين عليهم آنذاك لم يكن شديداً . وهنا نجد تفرقة بين المسلمين فى المصادر الكارولنجية ؛ ففي «العوليات الملكية الفرنجية» وفى «سيرة شارلمان» نجد إشارات إلى المسلمين فى الأندلس باعتبارهم من الأعداء ، على حين يُشار بلحترام إلى هارون الرشيد الخليفة العباسى الذى تقول الحولية إنه «هارون ملك الفرس Aaron rege Persarum أو «إمبراطور الفرس».

ومع أن إنجلترا كانت «بعيدة» كما أشرنا فى الصفحات السابقة ؛ فإن واحداً من أشهر الكتاب الرهبان فى بير جارو Jarrow ، وهو بيديه Bede (Beda) (٦٧٣-٧٣٥م)، قد كتب عن المسلمين الذين كانت بولتهم أخذة فى الإلتصاع على أيامه . وفى البداية تميزت كتابات بيديه عن

الإسلام بحيادية نسبية تقل فيها العداوة عما حملته الكتابات اللاحقة؛ ولكنه تخلص من حيانيته مع بداية الغزو الإسلامي لشبه الجزيرة الإيبيرية واقترب خطو المسلمين من الجزر البريطانية؛ فاعتبر المسلمين أعداء المسيح، وأتباع الشيطان Fuciffer الخاطي، كما اعتبرهم شعباً بلا جذور يعيشون حياة التجوال.

كما أنه ابتهج كثيراً لهزيمة المسلمين بقيادة عبد الرحمن الغافقي على أيدي جيش الفرنجة بقيادة شارل مارتل في معركة تور - بواتييه (بلاط الشهداء) سنة ١١٥هـ / ٧٣٢م.

هذه، باختصار، ملامح رد الفعل المسيحي ضد ظهور القوة الإسلامية الجديدة في عالم البحر المتوسط، ورؤية المسلمين للمسيحيين في هذا الدور أيضاً. حقاً كان المسيحيون يزعمون أن الإسلام ديانة زائفة (مع الاعتراف بأنه ديانة توحيدية لاسيما من قبل المسيحيين الشرقيين)، كما كان هناك وصى بالمخاطر السياسية التي يمثلها انتشار الإسلام وتوسع الدولة الإسلامية في المصادر المسيحية الشرقية والغربية على السواء؛ ولكن لغة الكتابة في تلك المصادر لم تكن على درجة العنف الهيستيري التي شهدتها فترة الحروب الصليبية على أية حال. ومن ناحية أخرى، كانت آراء المسلمين ومواقفهم تجاه العالم المسيحي (البيزنطي والغربي) تنقسم بالاعتدال والفهم حسبيما أشرنا. ولم تكن الفكرة الإيديولوجية من الحدود الفاصلة بين «دار الإسلام» و«دار الحرب» فكرة يساندها الواقع التاريخي سواء على الحدود في مناطق الثغور بين المسلمين والبيزنطيين في الشرق، أو بين مسلمي إسبانيا ومسيحيي أوروبا في الغرب.



وهنا لابد أن نضع في اعتبارنا أن الذين كتبوا عن وجهة النظر المسيحية الأوروبية كانوا في الغالب الأعم من الرهبان ورجال الكنيسة الذين حكمتهم الاعتبارات الدينية لا الوقائع التاريخية الحقيقية . وقد أثبتت الدراسات الحديثة أن الكثير من هذه الكتابات كان يتوخى ما يجب أن يكون وفقاً للرؤية المسيحية للتاريخ ، وليس بحسب الوقائع التاريخية التي وقعت بالفعل . كانت المواقف الأوروبية ضد الإسلام والمسلمين في تلك المرحلة تنقسم بالعداوة؛ ولكنها كانت عداوة ناجمة عن الجهل والخوف ، وإن بقيت متعلقة بدرجة ما ، بيد أن «الجهل» و«الخوف من المعرفة» كانا من أهم خصائص الموقف الأوربي آنذاك؛ وربما يمكننا تفسير هذا من خلال إحساس أوروبا بالدونية إزاء العالم الإسلامي نظراً للتفوق الإسلامي الساحق على المستويات العسكرية والاقتصادية والفكرية في تلك الفترة من تاريخ العلاقات بينهما .

وعلى الجانب الإسلامي، شهد القرن السابع الميلادي / الأول الهجري حركة الفتوحات الإسلامية الهائلة التي استمرت خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين الثاني والثالث الهجريين وفي هذه المرحلة المبكرة أقبل المسلمون على ترجمة تراث الحضارات القيمة كما أشرنا ، وكان تفاعلهم مع الديانتين الأقدم متوازناً في إطار من الحقوق والواجبات التي نظمها «عقد النمة» مع أتباع اليهودية والمسيحية . ولكن الأمر اللافت للنظر أن المسلمين بفضل إيمانهم بأن الإسلام هو آخر الرسالات السماوية لم يكن لديهم ما يدعوهم إلى النظر للوراء ؛ فاتهم بعض الفقهاء اليهود والمسيحيين بإخفاء أجزاء من العهد القديم والعهد الجديد في الكتاب المقدس ، أو

إساعة تفسيرها ، وقالوا إن هذه الأجزاء كانت تقيتياً يقبوم النبي محمد  
رسولاً من الله إلى البشر أجمعين . ولكن ملوك المسلمين تجاه « أهل  
الثمة » على مستوى الواقع كان طيباً ؛ فقد عاشوا حياتهم وتمتعوا  
بحرياتهم الدينية والاجتماعية ؛ بل إن بعضهم شغل مواقع الوزارة والحكم  
والإدارة العليا في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

## (٤)

## التطورات التاريخية قبيل الحروب الصليبية

ومن المؤكد أن التغيرات السياسية التي جرت فيما بين القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، وأواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى ، قد حولت صورة العلاقات بين الطرفين إلى صورة أشد انتهاباً . ففى تلك الأثناء كانت التطورات السياسية فى المنطقة العربية قد شهدت قيام الدولة الفاطمية فى مصر والشام لتكون خلافة شيعية منافسة لدولة الخلافة السنية فى بغداد، ثم ظهور الأتراك السلاجقة ليتولوا حماية بغداد السنية ضد أطماع القاهرة الشيعية . وكانت بلاد الشام بمثابة المجال الحيوى للتنافس السياسى والعسكرى بين الخلافة السنية والخلافة الشيعية بالشكل الذى ترك آثاره السلبية الخطيرة على الجغرافيا السياسية لبلاد الشام وفلسطين، وصهل مهمة الحملة الصليبية الأولى ؛ التى جاءت إلى المنطقة العربية فى أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى كما شهدت الهزيمة القاسية التى ألحقها الأتراك السلاجقة بالبيزنطيين فى معركة مانزكرت أو ملاذكرد ؛ ثم نمو السلطة البابوية بعد الإصلاح الجريجورى فى أوروبا الغربية على حساب السلطة الإمبراطورية، وانتشار الأفكار والمشاعر الألفية والأخوية المقرونة برحلات الحج الأوربية

إلى الأراضي المقدسة في فلسطين - وقد أدى هذا كله إلى الانتقال من مرحلة العداوة المتعقبة تسيباً الفاجعة عن الجهل والخوف من المسلمين في أوروبا الغربية إلى مرحلة الهياج والهجوم الهيستيري من جانب الكتابات الدعائية الأوربية تمهيداً للحملة الصليبية الأولى وتبريراً لشن مثل هذه الحرب على المسلمين في المنطقة العربية شرق المتوسط.

وعشية الحروب الصليبية كان التمزق السياسي والتناحر العسكري مهيماً على العالم العربي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) فقد كان المسلمون في المنطقة موزعين بين الخلافة والسنية في بغداد والخلافة الفاطمية الشيعية في القاهرة ، وإلى جانب النزاع والتخاصم بين الدولتين الكبيرتين ، كانت أحوالهما الداخلية مرتبكة بالقصر الذي جعل بلاد الشام - وهي المجال الحيوي الذي كان مسرحاً لمنازعات أنجانيين - تشهد حالة من التشرذم الفسيفسائي بحيث باتت كل مدينة كبيرة في بلاد الشام وفلسطين آنذاك دولة مستقلة تحت حكم أمير عريس ، سني أو شيعي ، أو من الأتراك السلاجقة ، وكانت مشاعر الشك المريرة تحكم هذه الكيانات السياسية الهزيلة بحيث صارت فنيمة سهلة عندما جاءت الجيوش الصليبية لتجد بعض هذه الكيانات السياسية الهزيلة يساعدها ضد البعض الآخر.

كانت الخلافة العباسية منذ ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) تحت حكم الأتراك السلاجقة الفطلي بعد أن نجحوا بزعمارة طغرل بك في إخماد محاولة الفاطميين للسيطرة على بغداد من خلال تلك المؤامرة الخائبة التي دبرها البسياسيري. وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن جيش الإنقاذ السلجوقي

تحول إلى جيش احتلال ، كما يحدث دائماً ، وصارت المنطقة ما بين فارس وخراسان وبلاد الشام وحدة سياسية واحدة تدين بالولاء الإسمي للخليفة العباسي ؛ ولكنها كانت تحت الحكم الفعلي للأتراك السلاجقة . وأخذ الأتراك السلاجقة يتوسعون باتجاه الشمال والغرب على حساب الأرمن والدولة البيزنطية . وعندما كانت قوات آل أرسلان تطارد ظول جيش الإمبراطور البيزنطي المهزوم رومانوس نيوچينيس ، وأسره بعد الهزيمة الساحقة في مانزكرت (رجب ٤٦٣هـ / أغسطس ١٠٧١م) كانت قوات «أتسز بن أوق» أحد القادة التركمان في خدمة الخلافة العباسية، قد استولت على بيت المقدس من الفاطميين.

في خضم هذه المنازعات التي ألفت بالمنطقة العربية في حال من السيولة السياسية، لم يكن هناك ما يشير في المصادر التاريخية العربية إلى أن المسلمين كانوا يعرفون شيئاً من تلك التطورات الجارية في الغرب الأوربي، والتي تمثلت نتيجتها النهائية في خروج الحملات الصليبية إلى فلسطين أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي. إذ لم يكن العالم المسلم في تلك الأثناء يشعر بالحاجة أو الرغبة في معرفة أحوال أوروبا التي كان يرى فيها منطقة متخلفة لا تستحق الاهتمام. كما أنها لم تكن مصدر خطر داهم على الرضخ من إدراك المسلمين لما كان يجري من أحداث في الأندلس .

كانت أوروبا طوال القرن الحادي عشر تمرُّ بآهاسات مرحلة جديدة تمثلت ذروتها في الحملة الصليبية. فقد كانت الأفكار الألفية عن نهاية العالم بعد انقضاء الألف الأولى من معاناة المسيح على الصليب ، والأفكار

الأخرى التي تتطرق بما بعد نهاية العالم من أهم روافد الفكرة الصليبية .  
 ففي ذلك الجو التقسسي والفكري الذي ساد أوروبا آنذاك كان من الطبيعي  
 أن يتطلع الناس الذين سيطرت عليهم هذه المشاعر إلى ضمان الخلاص  
 الذي يرتبط بضرورة الرحلة إلى القدس Iter Heyrosolimitanum . وقد  
 تجسد هذا في ازدياد عدد رحلات الحج من جميع أنحاء الغرب الأوربي  
 الكاثوليكي إلى بيت المقدس. بيد أن رحلات الحج المسيحية إلى بيت  
 المقدس قد أفرزت بالضرورة نعتاً من الدعاية الكاثوليكية (النزقة) وتولد  
 عنها نوع من الهجوم الهيستيري على الإسلام والمسلمين. فقد أستر في  
 الوجدان الشعبي العام في أوروبا الكاثوليكية آنذاك أن رحلة الحج إلى بيت  
 المقدس تتويج لحياة المرء في هذه الدنيا ، كما شاع بينهم أنه كلما كانت  
 رحلة الحاج تمثل مشقة كبيرة كلما زادت فرصة المرء في الحصول على  
 الغفران ، وكان كثير منهم يتمنى الموت في الأراضي المقدسة بأيدي  
 «الكفار» (أي المسلمين) الذين صورتهم الدعاية المحمومة في أبشع الصور  
 التي تفتق منها ذهن أولئك الذين تولوا الدعاية ضدهم . وقد أمضى الراهب  
 الكلوني رالف جلابير Ralph Glaber بصورة حيّة عن هذا الوضع ...  
 في الوقت نفسه بدأت أعداد لا حصر لها في التوجه إلى ضريح المخلص  
 في القدس من شتى بقاع الدنيا ، في أعداد تفوق توقعات أي إنسان ، ولم  
 يكن اللاهبون إلى هناك من العامة وأبناء الطبقة الوسطى وحدهم ؛ وإنما  
 ذهب إلى هناك كثير من الملوك الكبار ، والكونتات ، والنبلاء . وأخيراً،  
 وهذا شيء لم يحدث من قبل ، انطلق بعض الفقراء . وكان هيبون يتحنن  
 الموت هناك بدلاً من العودة إلى نيارهم... .

ومن ناحية أخرى، رأت البابوية في المشروع الصليبي سلاحاً ياتراً في صراعها ضد الامبراطورية الرومانية المقدسة من أجل السيادة في أوروبا . فقد كانت البابوية تأمل في تحويل القوى المحاربة الأوربية إلى قوى تعمل لتحقيق أهدافها السياسية على حساب الحكام العلمانيين . فقد كانت البابوية بالفعل قوة سياسية لها مصالحها الخاصة وأهدافها المستقلة من أهداف الحكام والمتعارضة معهم أحياناً .

وفي رأينا أن فكرة الحملة الصليبية كانت التطور المنطقي للحج المسيحي إلى الأرض المقدسة في فلسطين ؛ إذ لم تكن هذه الفكرة لتطراً على بال أحد لو لم تكن رحلات الحج الكاثوليكية ، التي استمرت منذ فترة باكورة حتى أخريات القرن الحادي عشر الميلادي، قد أدت بالضرورة إلى فكرة أن الأرض التي شهدت قصة المسيح، وفيها ضريحه ، لابد أن تكون تحت سيطرة أتباعه . وكانت الكنيسة الكاثوليكية ترى أنها الكنيسة الوحيدة على طريق الإيمان الصحيح . ولم يكن السبب في ذلك راجعاً إلى الرغبة في حل المشكلات ومواجهة المتاعب التي كان الصجاج الكاثوليك يلاقونها في السفر بطبيعة الحال؛ ولكن لأن أوروبا التي بدأت تشعر بقوتها من ناحية ، وتقارن بين حالها وحال كل من بلاد المسلمين والدولة البيزنطية المتقدمة من ناحية أخرى، رفضت بقاء هذه المناطق بأيدي المسلمين الذين صورتهم الدعاية الكنسية في صورة الكفار المتوحشين . وهنا انتقلت الصورة في الذهنية الأوربية من العداء المتعقل إلى الهياج والعداء الهستيري.

ومن الأمور ذات الدلالة أن الكتاب الأوربيين المعاصرين لهذه الأحداث لم يفرقوا أبداً بين الحج والحملة الصليبية على نحو ما تكشف روايات المؤرخين اللاتين : إذ كان الخط الفاصل بينهما رقيقاً للغاية. ومن ناحية أخرى ، وجدت البابوية ، والمبشرون والدعاة الكنسيون ، والمؤرخون اللاتين « السبب العادل Causa Justa » للحرب على أساس «استعادة» القدس من المسلمين «الكفار» . لقد كانوا يحاكمون زمانهم ، ويشيرون إلى الأرض المقدسة باعتبارها «مملكة المسيح» التي تنتمي إلى العالم المسيحي، التي يجب الدفاع عنها، واستردادها من المسلمين الذين كانت الدعاية الكاثوليكية ضدّهم غاية في الكرم والصفاء وهي تغلق عليهم كل التهم والأوصاف الشريرة.



## (٥)

## صورة المسلمين في كتابات الدعاية الصليبية

وينبغي أن نلاحظ أن استجابة الأوربيين الغربيين الحملة الصليبية الأولى لم تعتمد على الكراهية المتصاعدة ضد الإسلام وضد كل ما هو مسلم فقط. إذ كانت هناك بالتأكيد أنماط قبة من الدعاية ومن سوء الفهم، فقد صورت الدعاية البابوية المسلمين في صورة مشركين يعبدون الأصنام، كما شاعت قصص وحكايات خرافية عن حياة النبي محمد. بيد أن هذه الأفكار وحدها كانت أقل من ترتقى إلى مجموعة متماسكة من الإنحيازات التي يمكن أن تحرك الناس لكي ينتزعوها أنفسهم من أوطانهم وعائلاتهم ليذهبوا «... في مطاردة خطيرة ومكلفة ضد الأعداء في أماكن نائية...» على حد تعبير أحد الباحثين. ولم يكن معظم الصليبيين الأوائل قد رأوا مسلماً على الطبيعة من قبل، ولكن الصورة القبيحة التي رسمها الدعاة البابويون للمسلمين جعلت أولئك الصليبيين يتوقون شوقاً لقتل المسلمين.

كانت الدعاية سلاح البابوية الأمضى في تجنيد الصليبيين من بين السادة الإقطاعيين البارزين في أوروبا. وقد نكّر البابا أوربان الثاني، في خطبته التي ألقاها يوم السابع والعشرين من نوفمبر سنة ١٠٩٥ في كليرمون، الفرسان الفرنج بما اشتهروا به من «عجاجة وتقوى» داعياً

إياهم إلى إتخاذ الضريح المقدس من أيدي المسلمين الذين وصمهم بكل الصفات الحقيرة . فقد تكرر فوشية الشارترى Fulcher de Chartres ( كتب فيما بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٠٦م ) ، والذي كان قسيساً خاصاً لستيفن بلوا وعاصر ربع القرن الأول من الاستيطان الصليبي في المنطقة العربية ، وكان من الذين حضروا مجمع كليرمون الكتسي سنة ١٠٩٥م ، إن البابا أوربان الثاني Urban II ( ١٠٨٨-١٠٩٩ ) قال «... إن الأتراك ، وهم شعب فارسي (١) ... استولوا على المزيد من أرض المسيحيين ، وهزمهم في معارك عديدة ، وقتلوا منهم وأسروا الكثير ، ودمروا الكنائس وخرّبوا مملكة الرب ..» وطالب الفرنج بالقتال ضد هؤلاء «الوثنيين» .

كما أن روبرت الراهب Robert of Rhems ، الذي كان حاضراً مجمع كليرمون أيضاً وكتب سنة ١١٠٧م ، قال على لسان البابا أوربان الثاني «... فقد ورد خبر حزين من البلاد المحيطة بالقدس ومن مدينة القسطنطينية ... مؤداه أن شعباً من مملكة القرس ، وهم جنس أجنبي ، غريب عن الرب تماماً ، جيل لا يضع قلبه على طريق الحق ، وروح ليست مخلصه للرب ، قد غزا أرض أولئك المسيحيين ، وأخضع الناس بالسيف ، والتدمير والحريق ، كما حصل بعضهم أسرى إلى بلاده ونجح البعض الآخر في وحشية ، كما سوى كنائس الرب بالأرض ، أو استخضعها ليمارس فيها شعائر بيلنته . هؤلاء القوم نكسوا مذابح الكنائس بممارساتهم الخرقاء . وقد أجروا عمليات الختان لمسيحيين ، وكانوا يسكبون نساء الختان على المذابح أو يحصبونها في أواني الحديد . وقد شقوا بطون من

اختاروا أن يعذبوهم بالموت البطيء الكثير للاشمئزاز... فطلى من إذن تقع  
مسئولية الانتقام من هذا ؟ وعلى من تقع مهمة الخلاص من هذا الموقف ،  
إذا لم يكن على ماتكم أنتم يا من اختاركم الرب، دون سائر الأمم ليسينغ  
عليكم نعمة المجد في السلاح وجسارة القلب ، وقوة الجسد، وقدرتكم على  
مقاومة من يتعرض لكم ؟.

وتجد مثل هذه الأقوال في رواية جيوبرت النوجنتى Guibert of Nogent  
(الذي كتب سنة ١١٠٨م) ويلدريك الدوللى Boderic of Dol (الذي  
كتب حوالي سنة ١١٠٨م) وغيرهم ممن كتبوا عن خطاب أوربان الثاني.  
ومن المهم أن نلاحظ أنهم جميعاً كتبوا ما تصورو أن البابا كان يجب أن  
يقوله في هذه المناسبة ، ولم يسجلوا كلمات البابا الحقيقية ، ولكن الأهمية  
الحقيقية للنصوص التي كتبوها تتمثل في كونها نصوصاً كاشفة للملاح  
الصورة التي شكلها الهجوم الوحشي لفظياً على المسلمين ودينهم في ضمائر  
الجو الهيمستيري الذي صاحب الحركة الصليبية طوال تاريخها ، ففي  
الغرب الأوربي آنذاك ، كان الشائع أن النبي محمد عليه الصلاة والسلام  
ساحر، وماجن جنسياً ، وزعموا أن النين الذي جاء به ليس سوى صورة  
كاريكاتورية شريرة من المسيحية أو أنه إلهام شيطاني من المسيح الدجال  
لقد كانت الشائعات الشريرة ، والحكايات الكاذبة والمعلومات الخاطئة ،  
منتشرة في كتابات دعاة الحركة الصليبية ، كما انتشرت في أوساط  
الكتاب المحترفين الذين بالغوا في رمود أفعالهم تجاه حكايات هذه الشرور  
الشرقية المزعومة.

كان هذا الغطاء الدعائي الوحشي الظالم ضرورياً لتبرير الحرب باسم الدين زمن الحروب الصليبية . وقد عرقت أوروبا في أثناء القرن الثاني عشر إحساساً جديداً بالوعى الشخصى أو الجماعى حفز كلاً من رجال الكنيسة والعلمانيين على تأكيد هويتهم ، على حين كانت مشاعر الإخلاص للمسيح ومريم العذراء قد أنكت نيران المحتوى العاطفى المتصاعد فى هذا الوعى بالهوية . ولما كانت تلك المشاعر قد ولدت فى مجتمع يحكمه التدين الشكى الفج، فإن التعصب وكراهية «الآخر» كانت التعبير المناسب عنها . ومنذ القرن الثانى عشر عانى المسيحيون الذين يعتقدون مذهباً غير المذهب الكاثولىكى، واليهود، من كراهية الخوفاء ، ومن الاضطهادات الرسمية التى تصاعدت من جانب رجال الكنيسة والحكام العلمانيين على السواء . وبطبيعة الحال، كان نصيب المسلمين من هذه الكراهية «الصليبية» فى أوروبا نصيب الأسد . لقد كان الإحساس المتزايد بالهوية لدى الأوربيين يتطلب الانفصال عن الآخر؛ أى المسلمين الذين وضعهم بعض الكتاب فى مرحلة أدنى من البشر ؛ لاسيما بعد نجاح المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي فى استرداد بيت المقدس ؛ فقد كتب إمبرواز Ambroise الذى كان من الذين كتبوا عن حملة ريشارد الأول قلب الأسد والحملة الصليبية الثالثة يصف المسلمين بـ «قطعان وضيعة» ، أو «كلاب وضيعة» أو «قطيع الوثنيين» ، أو «الأقراخ الكافرة من نوى الوجوه السوداء» ، أو «الشعب الواضيع ذو البشرة الداكنة» . وبالنسبة لكثير من الأوربيين فى القرن الثانى عشر، كان المسلمون مثل اليهود «... كلاباً تنكر المسيح ، ويستحقون الموت والعذاب بجدارة...».

لقد كان هناك رصيد من كراهية الأجانب Xenophobia في ثقافة أوروبا الأصلية . ويتجلى نحد ملامح هذا العداء للأجانب في ذلك التناقض الحاد بين النظرية القائلة بأن الغرض الصليبي كان تحرير المسيحية الشرقية، والعداء الفطري الذي كان معظم اللاتين يحسون به تجاه المسيحيين من اليونانيين والسريان والأقباط . فقد أثارت مواجهتهم مع البيزنطيين العداء السياسية والدينية على كلا الجانبين . وعندما نجحت الحملة الصليبية الأولى في تأسيس مملكة بيت المقدس وعدد من الإمارات في الرها وأنطاكية وطرابلس ، كانت معاملة الصليبيين للمسيحيين العرب والمسيحيين الشرقيين عامة، مهينة على نحو واضح.

إن كراهية الأجانب تتجلى في أحداث الحملة الشعبية التي سبقت حملة الأمراء في المجر وفي أوروبا الوسطى والشرقية ، فقد مارس أتباع والتر المفلس Walter Sans - Avoire نوعاً من السلب والنهب والعنف في بلغاريا جعلت البلغار يهاجمونهم ويقتلون أعداداً كبيرة منهم. وهو الأمر الذي تكرر مع جيش بطرس الناسك في مدينة «سملين» على الحدود المجرية- البيزنطية، وفي مدينة نيش Nish . وهاجمهم الجيش البيزنطي وقتل جنوده الكثير من رجال بطرس الناسك وأمر منهم عدداً كبيراً ، ومن ناحية أخرى كتب المؤرخ المجهول صاحب كتاب أعمال الفرنجة Gesta Francorum والذي كان فارساً في جيش يوهانفريد النورمانى في الحملة الصليبية الأولى : «... ومكثنا بضعة أيام نحاول شراء القطن والأطعمة ، ولكن السكان رفضوا أن يبيعوا لنا شيئاً ، لأنهم كانوا يخافوننا كثيراً ،

فقد ظنوا أننا لسنا بحاجة ، واعتقدوا أننا لصوص نهايون جثنا نخرب الأرض ، ونقتل الناس وأهلك استوليتا على القيران والخيول والحمير ، وكل ما وجدناه ، ثم تركنا كامستوريا ومظنا بالأجونيا؛ حيث كانت قلعة لهرطقة . وهاجمنا المكان من كل جانب وسرعان ما سقط في أيدينا وأشعلنا فيه النيران التي أحرقت القلعة بسكانها سويًا ... حقًا إنهم لم يكونوا لصوصًا نهايين !!! هنا تتجسد كراهية الأجانب في سلوك الصليبيين تجاه المسيحيين في البلقان أثناء الحملة الصليبية الأولى الذي كان مزيجًا من الرعب والكراهية ؛ نهب ، واغتصاب ، واغتيال ومعارك حقيقية . وبسبب كراهية الأجانب قتل الصليبيون في معاملة الإمبراطور البيزنطي باحترام ، كما فشلوا في كسب احترامه . وفي هذا السياق لم يكن هجومهم الوحشي على المسلمين في كتاباتهم قريبًا ، ولاسيما وأن سلوكهم الفعلي كان وحشيًا تجسد في المجزرة الرهيبة التي جرت على سكان القدس والمجازر الأخرى التي ارتكبوها في جميع الأماكن التي احتلوها على الرغم من جهود الأمان التي بذلوها لسكان تلك الأماكن ، كما تجسد في القسوة التي اتسم بها سلوك الصليبيين تجاه الأهالي في الأماكن التي غزوها ؛ حتى بمقاييس المصور الوسطى التي جمعت بين الوحشية والتدين الشكلي. يقول فوشيه الشارترى ، القس الذي صمم جيش بلدوين إلى فلسطين ، وهو يصف مجزرة القدس : «... وكثير من المسلمين الذين كانوا قد تسلقوا قمة معبد سليمان (للمسجد الأقصى) هاربين أصابتهم السهام في مقتل فمسلطوا من فوق السقف. وتم نزع حوالى عشرة آلاف في المعبد. وأو أنك كنت موجودًا هناك لحاصت قبضاك

حتى العقين في بقاء المذبوحين . ترى ماذا أقول ؟ إننا لم نترك منهم أحداً على قيد الحياة. ولم ينبج حتى النساء والأطفال ...».

هذه الصورة الوحشية التي يتباهى بها قس كاثوليكي من الصليبيين ، كانت تغطيها غمامة كثيفة من التصورات المنعازة ، والأوصاف الظالمة للمسلمين ، فهو يقول في سياق الرواية نفسها «... فقد كان المسلمون يمارسون عبادة الأصنام هناك مع الخرافات ، كما أنهم لم يكونوا يسمعون للمسيحيين بالنحول» إنه يبرر المذبحة التي جرت في رحاب المسجد الأقصى .

إنه التبرير الذي قام على أساس وصف «الآخر» وتبرئة الذات . وهناك قسيس آخر ، هو بطرس توبييود يقول إن مجلس القنس صنعوا ، أثناء الحصار الصليبي للمدينة المقدسة، صليبا خشبيا «... يشبه الصليب الذي قدى المسيح فوقه العالم عندما سقط معه عليه، ثم سببوا للصليبيين ألما شديداً عندما لحنوا يضربون الصليب بالمصى ويهضمونه على الأسوار، أمام أعين الجميع ...» وعندما ذكر وليم الصوري هذه الحادثة بعد جيلين أضاف إليها أن المسلمين بصقوا على الأشياء المسيحية المقدسة، وذكر أن هذه الأمور تكررت في خضم أحداث الحملة الصليبية الثانية.

ومن المثير أن بعض المصادر التاريخية العربية أشارت إلى بعض أنماط الدعاية الأوربية ضد المسلمين في سياق الدعوة للحملة الثالثة التي دعت لها البابوية رداً على تحرير القنس ، بعد معركة حطين ، التي قضى فيها الجيش الإسلامي بقيادة صلاح الدين الأيوبي على الجيش الصليبي.

إذ إن المؤرخ ابن شداد ، الذي كتب مسيرة صلاح الدين لاحظ مدى خضوع الأوربيين للدعاية الصليبية بعد سقوط القدس في أيدي المسلمين سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م ، وكيف أن هذه الدعاية قامت على رسم صورة تمثل مدينة القدس «... وبها كنيسة القيامة التي يحجون إليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي دفن فيه بعد صلبه بزعيمهم ، وصور القبر وصور عليه قارساً مسلماً قد وطئ قبر المسيح ، وقد بال الفرس على القبر...» ويستمر ابن شداد قائلاً «... وأظهرت هذه الورقة في الأسواق والمجامع والقسوس يحملونها ورؤوسهم مكشوفة ، وعليةم مسوحهم ، ويناديون بالويل والثبور ... وللصور عمل في قلوبهم...».

ولكن التصور الأوربي للإسلام في عصر المروء الصليبية ، بكل ما يعمل من قسوة وحدة هستيرية ، لم يكن نتاجاً للكتابات التي حملتها كتب مؤرخي تلك الفترة قطع بطبيعة الحال . ففي مجتمع تسرى فيه الأمة على نحو ما كان جارياً في أوربا آنذاك ، لا يمكن الاعتماد على الكلمة المكتوبة ؛ وإنما على الكلمة المسموعة . وهنا نجد أن الشعر الشعبي ، الذي كان يتم إنشاده في التجمعات الشعبية ، كان بديلاً إعلامياً مناسباً وفعالاً ، خاصة وأنه كان ينشد على أنغام الآلات الموسيقية . وقد عرفت تلك الفترة سيراتاً ضخماً كان في حقيقته تاريخاً شعبياً موازياً للتاريخ الذي كتبه المؤرخون من القساوسة والرهبان . وإذا كانت التواريخ المكتوبة قد حملت وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية لأن مؤلفيها كانوا في الغالب الأعم من رجال الكنيسة والرهبان الذين عرفوا بتعصبهم وضيق أفقهم ؛ فإن التواريخ الشفوية التي كانت تُنشد وتروى شفاهة حملت القراءة الشعبية



للأحداث التاريخية، كما عبرت عن ملامح الصورة التي تكونت في الوجدان الشعبي الأوربي عن «العدو» أي الإسلام والمسلمين . هذه التواريخ الشفوية عُرِفَت ، عموماً ، باسم أغانى الحروب الصليبية *Chansons de Croisades*.

لقد ترك الشعراء المسيحيون كثيراً من الملاحم الشعرية والقصائد والأغانى ذات الدلالة التاريخية عن عصر الحروب الصليبية ، ومن المعلوم أن الأرمن قد تحمسوا للحملة الصليبية الأولى وساعدوها كثيراً لدرجة أن أول إمارة صليبية قامت في الشرق كانت في الرها ، فقد تحصن حاكمها المسن ثوروس *Thoros* الفرنج لدرجة أنه تبنى الأمير الصليبي بلديون من إمارة اللورين الأتني، وقد رد بلديون جميل الحاكم الأرمني ثوروس بأن سمح للمتأمرين ضد الحاكم المسن بلن يقتلوه . وصار بلديون حاكم الإمارة الصليبية . وقد وجدت الجيوش الصليبية مساعدة كبيرة من الأرمن حسبما يروى المؤرخ الأرمني متى الرهاوى (*Matthieu d' Eddesse*) ، وحسبما ذكر فوشيه الشارترى . وهناك شاعر أرمني يسمى سان نرسيس الرحيم (*Saint Nersés le Gracieux*) كتب مرثية بمناسبة سقوط الرها التي استعادها عماد الدين زنكى من الصليبيين هو وابنه نور الدين محمود سنة ١١٤٤م بعد أن ظلت في أسرهم حوالي ست وأربعين سنة . وتعتبر قصيدة سان نرسيس الوثيقة الوحيدة التي تصف حصار الرها على أيدي جيش عماد الدين زنكى؛ وهي من النوع الملحمي وتتألف من ألف وثلاثمائة وخمسين بيتاً . ويهتما من هذه القصيدة الملحمية أن الشاعر جعلها على

لسان المدينة التي تتأشد الأخوة للمسيحيين أن يهبوا لنجبتها أمام جبروت المسلمين التي تتحارب القصيدة ضدهم في قسوة ، وتصفهم بأوصاف قبيحة أبدعها الخيال الشرير الذي حكمته العداوة والكراهية الهيستيرية. وربما يمكن تفسير هذه العداوة والكراهية في ضوء الصدمة الناجمة من سقوط الرها، أول إمارة صليبية ، وما كان يحمله هذا من نثر الشؤم والشر.

وثمة شاعر آخر، ابن شقيق نرسيس ، وهو البطريق جريجوري الابن Le Patriarch DGh'a ، كتب مرثية في بيت المقدس بعد تحريرها على أيدي المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي. وتقع في ألفين وثلاثمائة وأربعة وتسعين بيتاً . وهنا أيضاً نجد جريجوري يتشد على لسان المدينة المقدسة، التي يجعلها تقول:

**أنا القدس العتيقة**

**عاصمة فلسطين**

**ومركز العالم الرئيسي**

**نقطة الدنيا الأساسية**

ثم تبدأ القصيدة في الحديث عن صلاح الدين الأيوبي ، ومعركة حطين، ولكنها تخلط عن عمد ، وفي قسوة ، بين القائد المسلم وبين المسيح النجال. وكانت هذه الفكرة التي تخلط بين صلاح الدين الأيوبي والمسيح النجال من أهم ملامح الصورة العدائية التي أقررتها كتابات الكتاب المسيحيون الكاثوليك زمن الحروب الصليبية .

ففى غرب أوربا كان الشعراء ، ولامسيما الفرنسيون منهم، قد تركوا لنا مجموعة من الأشعار والأغاني التى تصلح لأن تكون مقياساً للفكرة الصليبية فى الوجدان الأوروبى؛ منذ البداية حتى نهاية الوجود الصليبي على الأرض العربية . هذه الأشعار والأغاني كانت نوعاً من القصائد التى تحمل ملامح التصورات الغربية لما كان يجرى فى ساحة الحروب الصليبية من جهة ، وتحمل تصورات الشعراء لما كانت عليه أوربا من جهة أخرى، وأولى هذه القصائد الشعبية التى لاتعرف لها مؤلفاً لأنها تراث جماعى، تلك القصيدة المعروفة بالأنشودة أنطاكية *La Chanson d'Antioche* . ويمكن أن نستنتج من كثرة عدد المخطوطات التى تحمل نصوصاً مختلفة لهذه الأنشودة أنها كانت منتشرة على نطاق واسع فى غرب أوربا عامة، وفى فرنسا بصفة خاصة. وفى هذه القصيدة نقرأ أن الحملة الصليبية كانت بأمر من الرب نفسه، وأن الفرنج هم الشعب الذى اختاره الرب لى ينتقموا لموته ويخلصوا ضريحه من الكفار (أى المسلمين) ؛ وهى هنا تنسجم مع خطبة البابا أوربان الثانى فى كليرمون بجنوب فرنسا فى ٢٧ نوفمبر ١٠٩٥م، لكن القصيدة تحاول تبرير الحملة الصليبية باعتبارها حرباً عادلة "*Bellum Justum*" ، وهو ما يريده المؤرخون الصليبيون مثل جيورجى الخوجنتى، والمؤرخ المجهول صاحب أعمال الفرنج *Gesta Francorum* ، وقوشيه الشارترى وغيرهم من المؤرخين الصليبيين . هنا نجد نغمة تبرة الذات، وتمجيد العمل البطولى ضد الآخر الذى يحمل مسئولية الحرب بعيب شروره وخطاياها.

وتعكس هذه القصيدة أيضاً إحساس الفرنج بأنهم الشعب المختار Le Peuple élu أى أنهم الأداة التى لخصارها الرب لتنفيذ إرادته ، وتحرير ضريحه من المسلمين الذين كانت القصيدة سخية فى إغراقهم بالصفات الكريهة . ولقد كانت أنشودة أنطاكية انعكاساً أميناً للتفكير الشعبى فى أوروبا القرنين الحادى عشر والثانى عشر؛ فهى تتحدث عن «الانتقام» الذى كان «الرب المصلوب» قد أمر المؤمنين بتوقيعه على «الوثنيين المخذولين». والفكرة الصليبية تبدو حية قوية فى ثانيا أنشودة أنطاكية؛ بحيث تعكس الحال الوجدانية فى أوروبا الكاثوليكية قبيل الحملة الصليبية الأولى وفى اثنائها . كما أنها تضى بصورة الأخر- المسلم فى ذهن الأوربيين، والموقف الوجدانى الكاره والمعادى لهذا الآخر المسلم.

ومن المهم أن نشير إلى أن الأغاني والقصائد الشعبية حول الحركة الصليبية كثيرة متنوعة، وربما يكون السبب وراء هذا رجوعاً إلى ازدهار الشعر الشعبي فى شمال فرنسا وفى جنوبها (مع بداية تكون اللغات المحلية على حساب اللغة اللاتينية التى كانت اللغة الوحيدة للكتابة حتى ذلك الحين) . فضلاً عن أن الكتابة التاريخية بالشعر كانت تهدف إلى تلبية حاجة ثقافية للمجتمع الفرنجى الذى كانت تسوده الأمية آنذاك ؛ فقد تم تأليف التواريخ المنظومة شعراً لأن لا يعرفون اللاتينية من ناحية ، ولا يعرفون القراءة بلىة لغة من ناحية أخرى . وعن سوء الحظ أن الصياغات الشعرية التاريخية لم تصلنا ؛ إما لضياعتها بسبب طبيعتها الشفوية وإرتباطها بمشروع مؤقت كان مآله الفشل فى نهاية الأمر، وإما

بسبب التغيرات الكثيرة التي طرأت عليها ، بسبب طبيعتها الشفوية أيضاً ، بحيث وصلتتا في صياغات مغايرة تماماً لصياغتها الأصلية.

وتحمل أنشودة أنطاكية الأوصاف السلبيّة للمسلمين والاسلام التي تحملها كافة أغاني الحروب الصليبية : لقد كان سقوط الرها صدمة نفسية مؤلمة ، ونفير شؤم للأوروبيين . لذا سارعت أوروبا إلى تقديم العون إلى الصليبيين المستوطنين في المنطقة العربية . وكانت الدعاية - التي كانت الأغاني جزءاً أساسياً فيها- هي المعادل الموضوعي للاستعداد العسكري لشن حملة صليبية جديدة ضد المسلمين.

لقد كانت محاولات «عماد الدين زنكي» ثم ابنه وخليفته نور الدين محمود، بداية حركة الاسترداد الإسلامية في المنطقة العربية ، وبلغت قممتها على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي استطاع أن يوحد الجبهة العربية الإسلامية، وأنتزل بالصليبيين هزيمة فادحة في معركة حطين ٥٨٣هـ / ١١٨٧م. وكانت الحملة الصليبية الثالثة تجسيدا لرد الفعل الأوربي تجاه استرداد المسلمين بيت المقدس، وجاء على رأسها ثلاثة من رؤوس أوروبا المتوجة الكبيرة ؛ فرديريك بربروسا إمبراطور ألمانيا المسن، وفيليب أغسطس ملك فرنسا اللامهي المخادع، وريتشارد الأول قلب الأسد ملك إنجلترا المتهور المتوحش . وقد سبقت هذه الحملة وصاحبيتها حملة دعائية هائلة ضد المسلمين ، وضد دينهم، وضد صلاح الدين الأيوبي نفسه.

ومناك عدد من أغاني الحروب الصليبية تدور حول الحملة الصليبية الثالثة، وهي لا تختلف كثيراً في مضمونها عن الأغاني السابقة التي تمحل

ضمن نطلق أغاني الحروب الصليبية. ولكن هذه الأغاني تتميز بأنها قصائد قصيرة من ناحية ، كما أنها من ناحية أخرى تحمل نغمة التهديد للمتنقاعين تملو في هذه الأغاني. وتتصاعد فيها فكرة الانتقام لسقوط بيت المقدس بأيدي المسلمين :

**إذا تركنا هذا المكان لأعدائنا القانين**

**ستكون حياتنا ساراً إلى الأبد**

لقد كان سقوط القدس في أيدي المسلمين تدبير سوء الغرب الكاثوليكي وإنذاراً باكراً بسقوط الكيان الصليبي بفسره . وكان رد الفعل الثقافي والفكري عنيفاً بقدر ما كان رد الفعل العسكري المتمثل في الحملة الصليبية الثالثة قوياً . وقد حملت أغاني الحروب الصليبية أصداء هذا وذلك. وإلى جانب ما حملته هذه الأغاني من الموضوعات الصليبية التقليدية ، تتردد أصداء الصدمة التي أصابت الغرب الأوربي بسبب استرداد صلاح الدين القدس. وتلقى هذه الأغاني الكثير من التهم الكاذبة للمسلمين وعلى رأسهم صلاح الدين الأيوبي؛ فيقول أحد الشعراء الذي كتب قصيدة عن معارك صلاح الدين واسترداد القدس إنه قتل خليفة مصر (الفاطمي) وكان عاشقاً لامرأة متزوجة هي امرأة نور الدين محمود الذي تقول الأتشيوتة إن صلاح الدين نس له السم، ويتهمه بأنه وراء موت نور الدين أيضاً .

وهناك عدة قصائد عن الحملة الصليبية الخامسة التي دعا إليها البابا إنوسنت الثالث، ثم البابا هنريوس الثالث، وكان هدفها الاستيلاء على

مصر : ولكن الحملة فشلت واضطر الصليبيون إلى الهروب بترواحهم سنة ١٢٢١م . وكان من نتائج الحملة الفاشلة أن وقع عدد من الدوقات والكونتات الألمان والفرنسيين أسرى في أيدي المصريين . وهناك قصيدة تستحدث فرديريك الثاني هوهنشتاوفن على الذهاب إلى الشرق والتخلي عن زخرف الدنيا :

لكن أصبحنا إلى ما وراء البحر  
لأن هذه الأشياء كلها سوف تهلك يوماً ما  
ولا يهلك ربنا

ومن أمثلة الروايات التاريخية الشعرية الشعبية عن الحروب الصليبية تلك القصيدة التي تحمل عنوان وأنشودة القدس - La Chanson de Je-rusalem التي تحكي مغامرات جودفري البويوني - Godefroi de Bou-lion في أثناء الحملة الصليبية الأولى . وفي هذه القصيدة نجد الموقف نفسه الذي يجعل الصليبيين على حق : فإن الرب أمرهم بفتح الحرب على الكفار الذين يضطهدون المؤمنين به على حد زعمهم . وهذه الموقف متكرر في ذلك النوع الشعري الذي اصطلح المؤرخون ومؤرخو الأدب على تسميته Chansons de Croisade أي أغاني الحملة الصليبية . وفي جزء كبير من هذه الأغاني نجد قصائد حب تتناول موضوعات غرامية مختلفة : مثل الأسى لفراق المحبوبة أو مغالجاتها ، أو ما شابه ذلك . بيد أنها جميعاً تكشف عن الظروف الوجدانية السائدة ومدى قبح الصورة التي ترسمها هذه الأغاني للإسلام والمسلمين .

ومن هذه القصائد القصيرة نجد أغنية تتحدث عن الحملة الصليبية الثانية؛ فقد كان ملك بيت المقدس الصليبي صبيًا في الخامسة عشرة من عمره ، عندما حدث في عيد الميلاد سنة ١١٤٤م أن قام «عماد الدين زنكي» باسترداد الرها من الصليبيين ، وأعلن لويس السابع ملك فرنسا عزمه على الخروج في حملة صليبية ضد عماد الدين زنكي وابنه تور الدين محمود، ثم خرج لويس فعلاً في الثاني عشر من يونيو ١١٤٧م . وتتحدث الأنشودة من أن المسلمين استولوا على أرض الرب التي كانت تتم فيها عبادته :

لقد استولوا على الرها، وطبقكم إنتقالها

مم يضحى المسيحيون؟

لقد نهبت الكنائس ودمرت

ولم يعد هناك من يضحى للرب

أيها الفرنسيان ، فكروا في هذا

إن الشعر المعروف باسم «أغاني الحروب الصليبية» يكشف عن صورة جامحة ، نزقة وقاسية، لموقف أوروبا الكاثوليكية من «العالم المسلم» ؛ ولكنه يكشف من ناحية أخرى من أنها كانت صورة رائجة متكررة في «أغاني الحروب الصليبية» التي كانت شكلاً من أشكال الكتابة المحلية تظهر فيها الحملات الصليبية باعتبارها موضوعاً منذ حوالى منتصف القرن الثاني عشر قصاصداً . ولم يبق من هذه الأغاني سوى القليل ؛ فالأغاني التي اتخذت من الحركة الصليبية موضوعاً وحيداً لها نادرة



نسبياً ؛ ولكن هناك أغاني كثيرة تلعب فيها الحركة الصليبية دوراً ما ؛ موضوعاً ، أو قصة مجازية ، أو تطويراً لفكرة أخرى ، ويذكر أحد الباحثين أن هناك مائة وستة أمثلة من هذه الأغاني باللغة الأوكسيتانية Occitan ، التي كانت اللغة الأدبية في جنوب فرنسا آنذاك، وحوالي أربعين مثلاً بالفرنسية القديمة ، وثلاثين بالألمانية ، ومثال واحد بالإسبانية، واثنان بالإيطالية.

وربما لم تكن أغاني الحروب الصليبية نوعاً أدبياً ؛ لأن الشعراء ضمنوا إشارات إلى الحملات الصليبية في تنويع كبيرة من الأشكال الشعرية ، ولا يوجد دليل على أن الشعراء ابتكروا أشكالاً جديدة، أو أنواعاً شعرية جديدة، للحديث عن الحروب الصليبية. وكان ازدياد عدد الشعراء التروبادور بعد سنة ١١٦٠م واتساع شعبيتهم هم ونظرائهم في جنوب فرنسا ؛ أي الشعراء التروفر Trouvers ، يعنى انعكاس أحداث الحملة الصليبية الثالثة والحملة الرابعة ( التي استولت القسطنطينية ) في هذه الأغاني . أما الحملات الصليبية التي شهدتها القرن الثالث عشر فتعكس في تيار ثابت من الأغاني التي كُتبت معظمها بالفرنسية والألمانية . وما يهمنا هنا صورة المسلمين في هذه الأغاني:

هناك أنواع كثيرة قريبة من نعل قابيل ، المجرم الأولى

وليس بينهم شعب ولحد يعبد الرب

وسرق قري من هو صديقه الحقيقي

لأن من خلال قوة الظهر

سوف يسكن المسيح بيتنا

وصوف يضطر إلى الهرب أولئك الذين يؤمنون بالكهانة والعرافة

وفي أغنية بعنوان Ez groumet wol giede ، ربما كتبت وقت الحملة الصليبية السادسة التي حصل فيها فردريك الثاني على القدس بمقتضى الهدنة التي عقدها مع السلطان الكامل الأيوبي، يتصور الشاعر أنه يكتب من فلسطين خطاباً إلى وطنه :

إذا ما سأوك كيف تجرى الأمور معنا نحن الحجاج

فاخبرهم عن مدى سوء المعاملة التي لقيتها من الفرنسيين والإيطاليين

هذا هو سبب تعبنا في هذا المكان

ونادراً ما نجد في أغاني الحروب الصليبية وصفاً للقتال الفعلي ؛ ولكن هذه الأغاني تحفل بالتفاصيل الدسوية لأغراض الدعاية؛ فقد وصف شاعر مجهول كيفية استرداد الخوارزمية الذين كانوا في جيش الناصر داود أمير الكرك (في شرق الأردن) مدينة بيت المقدس سنة ١٢٤٤م. وعلى الرغم من أنه لم يكن شاهد عيان فقد أطلق لخياله العنان، في القصيدة الواحدة الباقية بالإسبانية :

ثم جاءت الحصنات الرقيقة،

مكبلة بالأغلال يشعلون العذاب

بيكن بحرقه في أساهن ولباهن بالقص

ويرى المسيحيون أطفالهم يشرون على النار

ويربون زوجاتهم وقد مزقت أثاقهن

وتزعت من أملكها وهن أحياء

... ..

ويجطون من الضريح المقدس اسطبلًا

ومن الصليان المقدسة أوتادًا في القدس

وهذه الصورة الكريهة عن ممارسات المسلمين المزعومة تعززها صورة

أخرى عن المسلمين تكشف عن الجهل وعن العداء الهستيري السائد في

الوجدان الأوروبي في ذلك الحين:

مؤلاء الكلاب المور (أي المسلمين) سيطروا على المكان المقدس سبع

سنين ونصف

ويساعدتهم أولئك القابعون من يابيلون ، ومعهم الأفاعلة والقاسيون من

الحيثة

إن المسيحيين قتلوا أقل من قطع أذانهم

والمسلمون أكثر ، أكثر من نجوم السماء

وهناك قصيدة تصف المسلمين جسديًا وصفًا بشعًا ؛ تتخيلهم فيه نوعًا

من الوحوش الضارية وليسوا من البشر ؛ فلجسامهم أجساد الكائنات

الأسطورية Butentrot ، رؤوسهم ضخمة ، وعلى العمود الفقري في

منتصف ظهورهم يوجد شعر خشن مثل شعر الخنزير «... وهم جنس لم

يعبد ربنا إطلاقًا ، ولم تعرف شعبًا أكثر منهم شرًا: وجلهم أشد صلابة

من الحديد، ولا يستقيمون خونة ولا برهاً، وهم في المعركة قساة بلا إيمان...»

هذه الصورة التي رسمها الشاعر الأوربي للمسلمين في زمن الحروب الصليبية تنسجم مع الكتابات التي اتخذت شكل التاريخ والتي كتبها في الغالب رجال الكنيسة من الرهبان والقساوسة . وقد كانت الدعاية سلاح البابوية الحاسم في تجنيد الصليبيين من بين السادة الإقطاعيين والعائلات الإقطاعية البارزة في أوروبا . وقد حولت الحروب الصليبية الموقف تماماً في أوروبا ضد المسلمين ؛ فقد تشكلت صورة لهم تستندى كل المشاعر العدوانية وتصممهم بالبربرية . وهنا يجب أن نضع في اعتبارنا أنه في خضم الحروب الصليبية كانت كل ثقافة مشتبكة في هذه الحروب تصم خصومها بالوحشية والبربرية ، وتنسب إليهم العديد من الصفات الوحشية والسلبية . فقد وصفت أناكومنينا Anna Comnena ، ابنة الإمبراطور اليكسيوس كومنينوس، العاهل البيزنطي الذي تعامل مع الموجات الصليبية الأولى، والتي كتبت مسيرة أبيها، تصف خبر وصول الصليبيين إلى الأراضي البيزنطية :

«... لم يكن اليكسيوس قد استراح من مشاقه إلا قليلاً ، وعندما وصلت شائعة عن وصول جيوش فرنجية بأعداد تفوق الحصر، وكان يخشى إغارات هؤلاء الناس **لأنه** كان قد عرف فعلاً الغضب الوحشي الذي يتسم به هجومهم، كما كان يعرف قلب مزاجهم واستعدادهم لمعالجة أي أمر بالعنف ... إن القرب عن بكرة أبيه ، والاضطراب البربرية في الأرض

الممتدة فيما وراء البحر الأتريقتى حتى عمودي هرقل (مضيق جبل طارق) قد انقلعوا إلى آسيا في أهداد قفيرة ...» وأيست هذه الملاحظة الوحيدة في كتاب أنا كوميتنا Alexiad على «بربرية» الفرنج على أية حال، كما أنها لم تكن المؤرخة البيزنطية الوحيدة في ذلك الموقف لاسيما وأن الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م قد استولت على الإمبراطورية البيزنطية ونهبت العاصمة القسطنطينية وارتكبت فظائع كثيرة.

وفي رأى البعض أن استخدام مصطلح «برابرة» على هذا النحو كان أمراً تقليدياً؛ إذ إن الكلمة تصف ثقافة أجنبية ومؤسسات غريبة، مثلما استخدم الإغريق القدامى هذا المصطلح للدلالة على كل من لا يأخذون بالأسلوب الإغريقى أو يتحدثون اللغة اليونانية . واستخدمها الرومان لتحقير «الآخر» بشكل عام. وفي هذا السياق استخدمها اللاتين في أوروبا العصور الوسطى ضد المسلمين في مؤرخاتهم وفي أشعارهم وأغانيهم، على نحو ما بينا في الصفحات السابقة . فقد وردت كلمات تصف المسلمين من العرب والأتراك Arabes ■ Turci بتهم برابرة Barbari ، وأنهم وثنيون Pagani ومن الأفيار gentiles.

ومن المشير أن وليم الصوري William of Tyre (أسقف صور، والمؤرخ الصليبي الوحيد الذي ولد وعاش على الأرض العربية في فلسطين) كتب بعد حوالي سبعين سنة من الخطبة التي ألقاها أوربان الثاني في كليرمون . متخيلاً كيف كان رد فعل الخليفة الفاطمي تجاه الحملة الصليبية الأولى:

«أمير مصر، التي كان أقوى الحكام الشرقيين ... جمع جيوشاً جرارة قائلاً إن من العار أن شعباً يربوياً من أقاصى الأرض، يدخل مملكته، ويحتل بالعنف ولاية خاضعة لحكمه ...» لقد استخدم وايم المصري، الذي كان هو نفسه من نتاج الاستيطان الصليبي، مصطلح «البرابرة» في سياق كتابته التاريخية للدلالة على قومه؛ ليكشف عن أن موقف العداء يستدعى، بالضرورة إدانة «الآخر».

كانت هذه الملامح العامة لصورة المسلمين في العقل الغربي في فترة الحروب الصليبية. ومن المهم هنا أن نشير إلى أنه بالنسبة لغالبية المسلمين والأوروبيين، لم تكن الحروب الصليبية هروبا عادية بسبب التنافس الاقتصادي، أو السياسي، أو بسبب النزاع على الحدود الجغرافية؛ وإنما كانت، في نظر كل من الطرفين، «حروب المؤمنين ضد الكفار». وكان من الطبيعي أن يحاول كل منهما تشويه صورة الآخر. بيد أن ما يلفت النظر هنا أنه بينما كان «الاختلاق» والخيال الشرير الناجم عن الجهل، وعدم الرغبة في المعرفة، من سمات موقف الكتابات الأوروبية كما أسلفنا، كان «الرصد»، «والتعالي»، و«العداء» من خصائص الكتابات العربية من الفرنج زمن الحروب الصليبية بوجه عام.

## (٦)

## الموقف في العالم المسلم

يمكننا أن نقرر ، بصورة عامة ، أن الحروب الصليبية لم تنتج أى تأثير سلبي من جانب المسلمين تجاه المسيحيين من أبناء البلاد العربية آنذاك . فلم يحدث أى تغيير في وضع أهل النمة ، بل استمر المسيحيون في حياتهم العادية داخل المجتمعات العربية وتولى عدد منهم مناصب مهمة في الدولة . وعندما جاء الصليبيون إلى المنطقة في أواخر القرن الخامس الهجري / العاشر الميلادي، كان التعايش بين المسلمين والمسيحيين قد أثبت قوته على مدى أربعة قرون. ولاتجد في المصادر التاريخية العربية ما يدل على أن المسيحيين المحليين تأثروا سلباً بسبب أحداث الحروب الصليبية سوى بسبب ممارسات الفرنج الكاثوليكي ضدهم، وعنوانهم على كنائسهم وممتلكاتهم . وقد ساعد على استقرار التعايش بين المسلمين والمسيحيين في المنطقة العربية، أن الصليبيين كثيراً ما هاجموا ممتلكات المسيحيين المحليين واستولوا على كنائسهم . وما كان معروفاً بالضرورة من الاختلاف المذهبي العنيف بين الكنيسة الأرثوذكسية ، والكنيسة الغربية الكاثوليكية. وتاريخ العداة العنيف الذي كان قد وصل إلى الإنشقاق الكبير بين المذاهب سنة ١٠٥٤م . جعل المسيحيين المحليين يرون في الحركة الصليبية بالضرورة حركة عدوان خارجي ضد أوطانهم.

على الجانب الآخر تجد الصورة التي عرفها المسلمون عن الغرب تكاد تكون محصورة في الصليبيين الذين كانوا قد صاروا «جيرانا» بالقوة في المنطقة العربية، وفي الإسبان الذين كانوا قد صاروا «جيرانا» بالقوة أيضاً بعد الفتح الإسلامي للأندلس في النصف الأول من القرن السابع الميلادي . فقد وصف المؤرخ الأندلسي ابن عيرون القساوسة بأنهم «أشرار» . ولكن الأمر في شرق المنطقة العربية، زمن الحروب الصليبية ، كان مختلفاً . فقد وصف الأصفهاني، الذي كان من رجال صلاح الدين الأيوبي في كتابه «الفتح القسي في الفتح القدسي» الصليبيين بقوله : «... والكفار قد خشنّت صرائكهم ، واتسعت معالكتهم .. وقاتلوا جنداً ورمية ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ... فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح ، شقراً كأنما لصحت الفار وجوههم ، وهم فيها كالحون ... قد نزع الله الرقة من قلوبهم ... فظاظ، جهنميون كالصم شرر، وأتفاسهم شواظ ... خلق الله الخلق من طين، وخلقهم من حجارة ...».

لقد كان ما ارتكبه الصليبيون من أهوال تتسم بالوحشية الشديدة والقسوة، حتى بمقاييس تلك العصور، من أسباب هذه الصورة العنيفة التي رسمتها كلمات صمد الدين الأصفهاني. فقد كانت مذابح أنطاكية ١٠٩٨م ومعرة النعمان ، والبارقة، ومذبحة بيت المقدس سنة ١٠٩٩م ، والمذبحة التي ارتكبتها ريتشارد الأول (قلب الأسد) ضد أهالي عكا على الرغم من الأمان الذي يناله لهم سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م ... وغيرها من الأمثلة، مبرراً لهذه الصورة العنيفة . كما أن أسامة بن منقذ في كتاب «الاعتبار» يقدم لنا أمثلة أخرى عن وحشية الصليبيين في معاملة الأسرى.



وإذا كانت المصادر التاريخية العربية قد تعاملت مع الصليبيين باعتبارهم من الكفار، فإن ، ذلك لم يكن إنكاراً للمسيحية نفسها ، وإنما كان يعكس التعامل مع الصليبيين باعتبارهم «أعداء» من ناحية، وكفاراً من ناحية أخرى، وقد وردت عبارات مثل : «الكفار» و«العو المخلول» أو «الإفرنج لعنهم الله» في كافة المصادر التاريخية العربية المعاصرة أو التي كتبت عن أحداث الحروب الصليبية بمراحلها المختلفة. لقد كان طبعياً أن تتعامل المصادر التاريخية العربية مع الصليبيين من موقف عدائي ؛ وهكذا كان التكفير متبادلاً بين الطرفين.

ولكن هذه المصادر التاريخية العربية لم تفل من السمة الموضوعية التي افتقرت إليها المصادر اللاتينية؛ فإن المسلمين لم ينسبوا للديانة المسيحية شيئاً سلبياً ، لأنهم كانوا «يعرفون» المسيحية وكانوا يحترمون المسيح عليه السلام باعتباره نبياً ورسولاً ، وليس إلهاً ، كما احترقوا بمعجزاته التي أوردتها القرآن الكريم ، ويُجَاجون السيدة مريم «أفضل نساء العالمين»؛ وإنما انصب عدائهم على «الفرنج» أي المسيحيين الكاثوليك القادسين من غرب أوروبا دون سواهم . ولكن الفرنج أنكروا الإسلام وماجروا النبي ونسبوا إلى النبي الإسلامي والنبي أموراً كانت من نتاج خيالهم الشرير ولا صلة لها بالواقع . ومن ناحية أخرى، فإن المؤرخين المسلمين احترموا في عنهم صفات الشجاعة والبراعة والقدرة القتالية . يقول أسامة بن منقذ عن هذا «... سبحانه الخالق الباري، إذا خبر الإنسان أمور الفرنج سبح الله وقدمه ، ورأى فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لاغير...» كما أن

ابن شداد كاتب سيرة صلاح الدين الأيوبي تحدث عن قوة احتمالهم، ويتحدث عن شجاعة ريتشارد الأول ملك إنجلترا «... وكان الملعون شجاعاً بامتياز ، صاحب رأى في الحرب، وثبت بين يدي المسكر » وهو «...شديد اليأس بينهم ، عظيم الشجاعة قوى الهمة، له وقعات عظيمة، وله جسارة على الحرب ...» وقد شاركت مصادر عربية أخرى في الحديث عن شجاعة الصليبيين وجسارتهم . وكانت تبدو فيها أحياناً رنة الإعجاب والتقدير لهذه الشجاعة والجسارة.

وقد أدرك المؤرخون المسلمون مدى خضوع الصليبيين للدعاية الكنسية، والحيل التي مارسها بعض رجال الكنيسة الكاثوليكية مثلما حدث أثناء الحصار المزدوج لأنطاكية سنة (١٠٩٨م) بعد أن تملك اليأس من الصليبيين. فقد أورد «ابن الأثير» حكاية الحرية المقدسة «... وكان معهم راهب مطاع فيهم، وكان ناهية من الرجال ، فقال لهم إن المسيح طبع السلام كان له حرية مبنونة بالقسيان الذي في أنطاكية، وهو بناء عظيم ، فإن وجئتموها فإنكم تطفرون، وإن لم تجدوها فالحلاك محقق . وكان قد بطن قبل ذلك حرية فيه ومضى أثرها. وأمرهم بالصوم والتقوى ففعلوا ذلك ثلاثة أيام ... فوجدوها كما ذكر ؛ فقال لهم أبشروا بالظفر ...» وقد أوردت المصادر اللاتينية قصة الحرية ، وكشفت عن كذب القس الذي اخترعها وتمت محاكمته على الطريقة الجرمانية .

لقد كان للمقاتل الصليبي متديناً على طريقته ، وهو ما لاحظته العماد الأصغر هاني، وابن شداد، وغيرهما. بل إن المؤرخ ابن القلانسي كتب أن

الصلبيين كانوا يحملون معهم إلى ميدان المعركة كتيسة متحركة . ومن ناحية أخرى، تمدنا المصادر التاريخية العربية بعدد من الأمثلة التي توضح مدى حرص الصليبيين على رحلة الحج . إذ إن ابن شداد يحدثنا عن أنه بعد صلح الرملة بين صلاح الدين وريتشارد الأول، وصل عدد كبير من الصليبيين بقصد الحج إلى بيت المقدس وفتح لهم السلطان الباب للحج «... ولفد معهم الخفراء يحفظونهم حتى يراهم إلى يافا...» . وكان هدف السلطان «... أن يقضوا وطهرهم من الزيارة، ويرجعوا إلى بلادهم فيأمن المسلمون منهم...» وعندما عرف ريتشارد بالأمر «... صعب عليه ذلك، وسير إلى السلطان يسأله منع الزوار، واقترح ألا يأتى لأحد إلا بعد حضور علامة من جانب أو بكتابه . وطم الأفرنجية ذلك فعظم عليهم واعتصموا بالحج ؛ فكان يرد منهم كل يوم جموع كثيرة ، مقدمون أوساط وملوك مستكبرون...» كما كتب العباد الأمشهاشي وصفًا تفصيليًا لصليب الصليبيات الذي ضاع من الصليبيين في خضم معركة حطين، ومدى تقديسهم لهذا الصليب الذي كان محفوظا في صندوق من الذهب .

كانت هذه بشكل عام ملامح الصورة التي رسمتها كتابات المؤرخين العرب للفرنج الصليبيين الذين تعاملوا معهم على مدى قرنين من الزمان تقريباً ، وربما كانت هذه الصورة قد انمحبت على الأوربيين جميعاً لأنه لم يكن هناك غيرهم من الأوربيين الذين وصفتهم مصادر تلك الفترة ، وكونتها نتيجة لطبيعة التعامل معهم .

على أية حال ، استمرت الصورة المثيرة للفرنج التي تطلعت كتابات الطرفين في محاولاتها لتصوير الآخر في صورة سلبية ، على الرغم من أن

الموقف اختلف من التاحية النوعية في التاحية الأوربية عنه من التاحية الإسلامية. ولكن الموقف الشعبي في التاحية الإسلامية كان مختلفاً عن موقف المؤرخين الذين كانوا ينتمون بطبيعة الحال إلى النخبة المثقفة . ذلك أن حكايات ألف ليلة وليلة الشهيرة حملت أصداً التأثيرات التي تركتها الحروب الصليبية على الناس في العالم الإسلامي. فهناك ثلاث حكايات تزيد ليانيها على مائتي ليلة من ليالي «ألف ليلة وليلة» وتدور حول الحروب الصليبية ؛ وبلغت النظر أنها تمثل حوالى خمس الليالي ؛ وهي:

١- حكاية الملك النعمان وواديه شركان وضوء المكان

٢- حكاية على نور الدين ومريم الزنارية

٣- حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية

في تلك الحكايات ينزع الخيال الشعبي نزوعاً هوائياً نحو الانتقام من الشخصية الأوربية المسيحية؛ فيجردها من أية صفات إيجابية ، ويسرف في تشويه صورتها الجسدية والأخلاقية ويسفر من رموزها الدينية. ومن يقرأ حكايات «ألف ليلة وليلة» الثلاث في لياليها المائتين يلحس على الفور ذلك الشعور الواضح بالكراهية والمرارة التي طغت بالوجدان الشعبي العربي تجاه الفرنج الصليبيين. ورسمت لهم صورة بشعة تجذعت ملامحها وأجزأوها المختلفة من حكايات الجنود العائلين من ميادين القتال. ومن روايات اللاجئين الهاربين من مذابح الصليبيين الشهيرة على مدى قرنين من الزمان ، فضلاً عن الأخبار المتداولة في أماكن التجمعات، ومراكز الإعلام التقليدية في الأسواق ، وصلاة الجمعة ومصاطب الحوانيت،

ودروس المساجد والحمامات ... وما إلى ذلك . فضلاً عن الأحاديث والخطب التي تتحدث عن القدس ومكائنها وقضيلها، وتحت على الجهاد، وقصائد الشعراء التي غطت جميع المناسبات . وقد امتزج هذا كله بالخيال الشعبي الذي أعاد قراءة تاريخ الحروب الصليبية من وجهة النظر الشعبية وفقاً للحاجات الثقافية- الاجتماعية للناس آنذاك. وقد اختار الخيال الشعبي أبطاله من التجار، وعامة الناس، والبسطاء تجسيداً للدور الغائب في كتابات المؤرخين التقليديين ، الذين كان معظمهم يحمل وجهة نظر الفئة الحاكمة. وكان هؤلاء الأبطال الشعبيون هم الذين قادوا الصراع ضد الفرنج الصليبيين في حكايات «ألف ليلة وليلة» التي لانسمع في ثناياها عن الشخصيات التاريخية الحقيقية التي قادت الصراع بالفعل ، وكان هؤلاء الأبطال الشعبيون هم الذين وقع عليهم العبء كله في تلك الحكايات الشعبية، مثلما كانوا في الحقيقة وقود الحرب ضد الصليبيين.

من ناحية أخرى؛ فقد تجسدت في حكايات ألف ليلة وليلة الأبعاد الثلاثة التي تصور الخيال الشعبي أن الصراع بين المسلمين والفرنج الصليبيين يتمحور حولها :

(أ) البعد العسكري وقيم البطولة والشجاعة والبسالة ، وقد جسدت هذا البعد حكاية «الملك نعمان وولديه شركان وضوء المكان».

(ب) البعد الجغسي الذي جسده حكاية «على تور الدين ومريم الزنارية».

(ج) البعد الديني الذي بدا واضحاً في حكاية «الصعيدي وزوجته الفرنجية» .

لقد رأى الخيال الشعبي في هذه الحكايات أن المسلمين متفوقون على الفرنج الصليبيين في هذه الأبعاد الثلاثة . وسأقت الحكايات الثلاث في لياليها المائتين الكثير من الأحداث والتفاصيل كي تؤكد على هذا التفوق. بيد أن أهم ما تعبّر عنه حكايات «ألف ليلة وليلة» تلك العداوة والكراهية التي وجدت لنفسها متفصلاً في الصفات التي خلعتها على شخصها من الفرنج الأعداء وإمعانها في النيل منهم، سواء في صفاتهم الجسمانية وملامحهم الجسدية ، أو من حيث خصالهم وصفاتهم الأخلاقية : فهم قبيحو الخلقة ، أشرار مخادعون . ومن ناحية أخرى تجلّت هذه العداوة والكراهية في السخرية من مقدسات الإفرنج وزعمائهم الكنسيين الذين اتهموا بالكفر وتحريف الإنجيل والكلب على المسيح . ولكننا يجب أن نلاحظ أن الخيال الشعبي لم يقترب من السيد المسيح أو مريم العذراء ، ولم يقدم على إنكار المسيحية الحقّة. لقد انصب العداء على الفرنج الصليبيين ولم يصل إلى الدين نفسه مثلما فعل الكاثوليك في أوروبا في موقفهم تجاه الإسلام .

ونجد في حكايات «ألف ليلة وليلة» اتهامات الفرنج بالكفر وتحريف الإنجيل . ومن المثير أن هذه الاتهام تتوافق مع الأوصاف التي ألصقتها المصادر التاريخية فعلاً بالفرنج ، فقد تعاملت المصادر العربية والمؤثرات الشعبية العربية مع الشخصية الصليبية باعتبارها شخصية كافرة. وكان هذا انعكاساً طبيعياً للعداء بين الجانبين . فقد كانت الحروب الصليبية حرباً مثل أية حرب أخرى على الرغم من تسربها بثوب الدين، ومن هنا خلقت مشاعر العداوة والكراهية ضد «الآخر» الذي تنور الحروب ضده . وكان الاتهام بالكفر سلاحاً متبادلاً في سعاية كل من الطرفين ضد الآخر.

لقد تغيرت العلاقات بين «العالم المسلم» و«عالم المسيحية» تغيراً سلبياً مفاجئاً مع قدوم الحملة الصليبية الأولى إلى المنطقة العربية ، ثم بعد نجاح الفرنج الصليبيين في إقامة مملكة بيت المقدس والإمارات الصليبية الثلاث الأخرى في الرها، وأنطاكية ، وطرابلس . إذ كانت موجة العداء المتصاعدة بشكل هستيري قد ولدت في الغرب الأوربي الكاثوليكي في غمار الدعاية التمهيدية للحملة الصليبية، واستمرت اللوحة في تصاعدها لتفمر مشاعر الأوربيين، ولكن التغير السلبي لم يحدث بهذا الشكل العنيف على الجانب العربي الإسلامي سوى بعد أن اكتشف المسلمون أن الفرنج قد جاؤا إلى المنطقة العربية بقصد الاستيطان والبقاء ولم يكونوا قوماً من المرتزقة الذين اعتادوا أن يروهم في خدمة الروم (البيزنطيين). عندها طفت مشاعر العداء ضد الفرنج الصليبيين، لايوصفهم مسيحيين وإنما لأنهم معتدون. ويرى سوثرن Southern أن الحملة الصليبية الأولى لم تجلب المعرفة إلى أوروبا الغربية عن الإسلام والمسلمين وإنما تسببت في العكس تماماً ؛ فقد أدى نجاح الحملة الصليبية الأولى إلى سيادة مشاعر الزهو بالانتصار والاحتقار من جانب الفرنج الصليبيين تجاه المسلمين . وأدى نجاح الحملة إلى تكريس صورة سلبية للإسلام ونبي الإسلام في أثناء السنوات الأربعين الأولى من القرن الثاني عشر كانت تتأججاً لمكائيات المحاربين الصليبيين العائدين إلى أوروبا، والمياليفات الخيالية التي حملتها «أفساني المروب الصليبية» . وقد أخذ الأوربيون هذه الأساطير والخيال الشرير على أنها الحقيقة . إذ إن كل ما كان أبناء الغرب الكاثوليكي يعرفونه آنذاك عن حياة نبي الإسلام عبارة عن شذرات متناثرة نقلها الكتاب الغربيون عن الكتاب البيزنطيين .

على الجانب المسلم ، كانت الصورة التي رسمها الخيال الشعبي عن «الآخر» تحمل قدراً كبيراً من التخيل العنواني، وكذلك كان الحال على الجانب الأوربي . بيد أن أن الرغبة في المعرفة حفزت كلاً من الطرفين على البحث عن الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه المعرفة . وكانت الفرصة متاحة لأبناء المنطقة العربية من خلال الكيان الصليبي الذي تعرف عليه المسلمون بطريقة مباشرة على النحو الذي كشفت عنه مذكرات أسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار» ، أو ملاحظات الرحالة ابن جبير، أو خبرات الاحتكاك اليومي في الأسواق والموانئ بين التجار المسلمين وأهالي المناطق التي احتلها الفرنج الصليبيون من ناحية، والمستوطنين الصليبيين من ناحية أخرى.

ولم يكن هناك سبب يدعو العرب والمسلمين عامة إلى تخطي الصليبيين الذين كانوا في جوارهم مباشرة إلى محاولة التعرف على الأوربيين في أوروبا . أما بالنسبة لمسلمي الأندلس والمغرب فقد كانت علاقاتهم بالعرب الأوربي قد وفرت لهم القدر اللازم من المعرفة بأوروبا . وربما كان الإحساس بالتفوق لدى المسلمين في الأندلس حاجزاً حال بينهم وبين الرغبة في معرفة ذلك الجار «المتخلف» في الغرب الأوربي . كانت هناك بالتأكيد صورة عدائية بين الجانبين؛ ولكن الصورة كانت تشبه نقيض الصورة في الشرق العربي . فقد كان معلمو الأندلس على حافة العالم المسيحي الغربي تكاد تحاصرهم القوى المسيحية منذ القرن الثاني عشر، على حين كان الفرنج في المنطقة العربية محصورين في بحر من السكان العرب المسلمين.



## (٧)

## ما بعد الحروب الصليبية

حين أدرك الأوروبيون أن المشروع الصليبي في طريقه إلى الفشل والنهاية، أدركوا أن الدعاية ليست وسيلة مناسبة لمعرفة «الأخر» لأنها جعلتهم يتعاملون مع صورة خيالية كانوا هم الذين اختلقوها وروجوا لها. وأرانوا البحث عن «الحقيقة» - ويرى سوثرن Southern أن لا يجب أن نعتبرنا الدهشة عندما نعرف أن أولى المحاولات الدقيقة لمعرفة الإسلام في الغرب تمت على أيدي رجال ممن أسهموا بقدر كبير من الكتابات الخيالية التي انتشرت في أوروبا آنذاك عن الإسلام والمسلمين؛ ومنهم وليم مالمسبورى William Malmesbury (١٠٨٠-١١٤٣هـ) الذي كان أول من ميّز بشكل واضح بين خرافات السلف ومبادئ الأصنام التي كانوا يمارسونها، وبين الديانة الإسلامية التوحيدية؛ على الرغم من أنه كان مولعاً بالمديح من المعجزات والسمم في مؤلفاته - فقد كان يسبح ضد التيار وهو يؤكد أن الإسلام يعتبر محمداً عليه الصلاة والسلام نبياً من أنبياء الله وليس إلهاً للمسلمين -

ولكن تلك اللؤشرات الواعدة نحو محاولة الفهم الأوربي للإسلام والمسلمين لم تلبث أن توارت خلف ضباب أنبياء سقوط عكا في أيدي

المسلمين بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة ١٢٩١م . معلنة بذلك نهاية للمشروع الصليبي على الأرض العربية وقشل أوروبا في صيانة ذلك الكيان الاستيطاني . فقد بدأ الكتاب الأوربيون عودة سريعة إلى روح العداء والشك وكراهية الأجانب. فقد كتب ريموند لول Roymund Lull موضحاً أن الآمال التي لاحت في العقود السابقة قد تلاشت ، وذكر أنه في حال عودة النساطرة المنفيين إلى حظيرة الكاثوليكية ، واعتناق التتار المسيحية يمكن «تدمير» المسلمين جميعاً في سهرة . ولكنه أبدى مخاوفه من أن يعتنق التتار الإسلام... لأنهم لو فعلوا ذلكم ... فسوف يكون العالم المسيحي عرضة لخطر شديد.

ولكن ما لم يكن يعرفه لول أن أسوأ مخاوفه كانت قد صارت حقيقة. فقد اعتنق قازان ، زعيم التتار في فارس، الدين الإسلامي، وعندما اعتلى العرش سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م كان أول مرسوم أصدره ينص على أن الإسلام الدين الرسمي للدولة، وأن الشريعة الإسلامية أساس نظام الدولة. وهكذا خسرت الكاثوليكية رهانها في السباق مع الإسلام من أجل احتواء التتار ، وصار التتار قوة إضافية إلى العالم المسلم في آسيا .

وعلى الرغم من أن المشروع الصليبي على الأرض العربية قد فشل بسقوط عكا سنة ١٢٩١م ؛ فإن إعادة الاستيلاء على المنطقة ظل سراًباً يجنب الأوربيين تجاهه كل حين، وتجلت هذه الحقيقة في تلك المشروعات والخطط الكثيرة التي قدمها أصحابها من السفراء والمغامرين ورجال الكنيسة الكاثوليكية إلى أصحاب القرار من الكنسيين والعلمانيين في أوروبا الغربية ؛ وفي تلك الرحلات الكثيرة التي تنفقت على المنطقة العربية

على مدى القرون التالية ، والتي كان عدد كبير منها بقصد التجسس ومعرفة مواطن الضعف ، وكيفية تحقيق أهداف المقبوعات الصليبية المتأخرة ؛ فقد شهدت الفترة ما بين سنة ١٢٠٠م وسنة ١٦٤٠م عدداً كبيراً من الرحلات إلى مصر والأراضي المقدسة. إذ إن ضياع عكا ، آخر موطن لأقدام الصليبيين في فلسطين وبلاد الشام، أهاج موجة أخرى من الحماسة الصليبية عبرت عن نفسها من خلال الحملات الصليبية سنة ١٣٠٩م وسنة ١٣٢٠م كما تجلت في تلك الغارة الصليبية التي شنّها بطرس لوزنيان ملك قبرص الصليبي على الاسكندرية ونهبها سنة ١٣٦٥م، وظلت تلك الروح سائدة حتى أواخر العصور الوسطى.

وقد حملت كتب الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر والأماكن المقدسة في تلك الفترة التي أعقبت تحرير مكة من الفرنج الصليبيين كثيراً من مظاهر العداء والكراهية ضد الإسلام والمسلمين؛ لقد كانت الأسباب التي أعادت أوروبا إلى مواقفها الهستيرية من المسلمين في القرن الرابع عشر مرتبطة بالخارج وبالدخل الأوربي على السواء . وعلى الرغم من أن القرن الثالث عشر كان قد شهد قدراً من الترحيب بالفلسفة الإسلامية، فإن القرن الرابع عشر شهد تراجعاً واضحاً عن هذا الموقف . ولم يكن هناك أحد في الغرب الأوربي، آنذاك راغباً في أن يتعلم شيئاً من المسلمين ، وسادت مشاعر الكراهية للأجانب في أوروبا بصورة متصاعدة بسبب سقوط مكة أواخر القرن الثالث عشر ونهاية الوجود الصليبي على الأرض العربية من ناحية . وقيام دولة سلاطين المماليك قوة إقليمية كبرى في

المنطقة من ناحية أخرى . أما بالنسبة للأوربيين الذين عاثوا وطلاة الكنيسة الكاثوليكية والحملات «الصليبية» التي جريتها البابوية ضد خصومها داخل أوروبا نفسها ، فقد صار اسم الفيلسوف المسلم «ابن رشد» مرادفاً للكفر . وعلى الرغم من أن تأثير ابن رشد «الشارح الأعظم» لأرسطو على الفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى كان كبيراً بحيث تتلمذ على يديه توماس اكويناس (توما الاكوينى) ، فإن أتباع هذا الأخير رأوا أن مجد توماس اكويناس لايمثل في أنه تعلم على يد ابن رشد ، وإنما يتمثل في أنه تغلب عليه في فلسفته . لقد كان هذا الموقف بمثابة «نصف الحقيقة» من ناحية، ولكنه كان مؤثراً على ما كان عليه الحال في أوروبا وكراهية المسلمين من ناحية أخرى.

ويرى سوثرن أن هذه كانت علامات عصر جديد في أوروبا الغربية؛ فقد أدرك الأوروبيون أنه لا يوجد لهم حلفاء في الخارج (بعد فشل سعيهم لتحالف مع المغول وتحول هؤلاء إلى الإسلام، وبعد اكتشافهم زيف أسطورة يوحنا القس Prester John، الذى صورته الأسطورة ملكاً تقع مملكته عند نهاية الأرض حسبما تصورها الأوروبيون قرب الحبشة أو أقرب إلى الهند، وسوف يخرج لكي يهزم المسلمين)، كما تفشت الخلافات العميقة بين القوى السياسية الأوروبية، ومن بينهما البابوية التى هافت صغوبات متزايدة فى السيطرة على الفكر والثقافة والدين والحياة الأوروبية، وأظهر الأوروبيون قدراً كبيراً من اللامبالاة تجاه أعدائهم فى الخارج على الرغم من إحساسهم بخطر أولئك الأعداء ، ولاسيما الإسلام

عدوهم الأكبر بطبيعة الحال . والمحققة أن الزعماء الأوربيين في القرن الرابع عشر لم يكتفوا متحمسين لشن حروب جديدة ضد المسلمين. وكان هذا الموقف راجعاً في جانب منه إلى الهزائم الثقيلة التي أنزلها المعاليك بالفرنجة المستوطنين ، وبالحملات الصليبية القاسية من الغرب في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. ولم يكن الناس في أوروبا آنذاك مستعدين لمزيد من المغامرات لصالح البابوية لأن مشكلات الحكم، والاقتصاد ، والثقافة الأوربية امتصت طاقاتهم على حين امتدت الحروب الصليبية الأوربية» التي شنتها البابوية على أعدائها في أوروبا ما تبقى من هذه الطاقة.

لقد كانت الحروب الصليبية ميراً ورثته أوروبا في القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر عن موجة الحماسة الدينية والتعصب الأخرق الذي اتسمت به زعامة البابوية في القرن الحادي عشر وما تلاه . وعن ناحية أخرى كانت الصلات الصليبية مغامرات عسكرية وسياسية كان لها تأثير عميق ، سيئ ، على الحياة الأوربية في العصور الوسطى؛ إذ إنها أضفت مسحة أخلاقية ودينية على الاتحاد بين القوة العسكرية والتدين العاطفي... ولكن أخطر ما خلفته الحروب الصليبية في أوروبا الغربية كان ذلك الدرس الذي وعاه الأوربيون جيداً؛ ومؤداه أن القتل والتدمير في سبيل الديانة المسيحية حق. وعلى المدى الطويل عانى المجتمع الأوربي من هذه العقيدة التي جعلت من استخدام القوة العسكرية باسم القيم الدينية أمراً مشروعاً . وقد تم تحويل هذا النموذج إلى التزاوج بين القوة والقيم

والمثل العليا ؛ مثل رسالة الرجل الأبيض ، أو الديمقراطية ، أو غيرها . هذا الإيمان بحق القتل والتدمير في خدمة المثل العليا التي تحصد الدول وفق مصالحها الحقيقية البعيدة عن هذه المثل العليا ، ما يزال قائما بكل قوته حتى الآن في النموذج الأمريكى وما يرتكبه من ضرور في العالم باسم الديمقراطية ، أو مكافحة الإرهاب .

ومن ناحية أخرى، كانت هزيمة المشروع الصليبي من الأسباب الرئيسية التي جعلت أوروبا تشيخ بوجهها عن العالم الإسلامى، وتكبت التطلعات لمعرفة البازغة . ومثال ذلك ما حدث في مجمع فيينا الكنسى سنة ١٢١٢م ، عندما قرر المجمع أن تتم دراسة اللغة العربية، والعبرية، والسورياتية في كل من باريس، وأوكسفورد، وبولونيا وأفينون، وسلامنكا . ولكن تلك الفكرة لم تلبث أن تلاشت دون أن يلاحظ أحد شيئا؛ إذ لم تتوافر الأموال أو القوة البشرية لتحويل هذه القرارات إلى واقع . واستمرت المواقف الهيسترية الصارخة سائدة طوال القرن الرابع عشر لاسيما وأن هذا القرن شهد نمو القوة العثمانية التي شكلت تهديداً جديداً لأوروبا على جبهة جديدة. ومن ناحية ثانية انتهت الحملات الصليبية في القرن الرابع عشر ضد العثمانيين بمجموعة من الكوارث ؛ وكانت حملة نيسقو بوليس Nicopolis سنة ١٢٩٦م قد انتهت بفتح الآلاف من الصليبيين الأوربيين على أيدي العثمانيين.

لقد استمر التيار العدائى التحتى ضد «الآخر» المسلم عموماً في أوروبا طوال القرن الرابع عشر، وقد تجلى بطريقة أكثر شؤماً في أثناء سنة

١٣٢١م عندما سرقت شائعات في أوروبا ، وفي شمال فرنسا بصفة خاصة ، بأن هناك مؤامرة كبرى حيكت بين المجنومين واليهود في أوروبا وزعماء المسلمين في إسبانيا ، على أن يقدم المسلمون المال والسموم للمجنومين واليهود لكي يلوثوا الآبار بحيث يموت المسيحيون أو يصيروا مجنومين ، وبرزت الشائعات هذه المؤامرة بأن اليهود يكرهون المسيحيين بالطبيعة ، وأن المجنومين كانوا يريدون الهرب من عار الجذام بتحويل أنفسهم من أقلية إلى أغلبية ، أما المسلمون - حسبما قالت الشائعات - فإنهم كانوا يسعون إلى استعباد الأراضى من المسيحيين عندما يصيبهم الوباء والمرض . وقد استخدمت «الاعترافات» التى انتزعتها محاكم التفتيش تحت وطأة التعذيب لكي تقشع هذه المؤامرة المزعومة ويتسع مداها . لقد مكست هذه الحادثة الشنيعة ، التى أسماها البعض «كابوس متشابك الروابط» مدى التطبيق الشاذ فى بناء صورة «الأخر» ؛ إذ تم حشر جميع أهداء المسيحية الكاثوليكية بحيث صاروا فى الواقع «عدواً واحداً» .

ويرى بعض الباحثين أن من بين الأسباب الكثيرة لانفجار كراهية الأجانب على هذا النحو فى أوروبا القرن الرابع عشر ما أصاب أوروبا من إحباط بعد الانتصارات الحاسمة التى حققها المسلمون فى الأراضى المقدسة فى العقد الأخير من القرن الثالث عشر. وتحويل المغول إلى قوة إسلامية مهمة بعد اعتناقهم الإسلام فى أواخر القرن أيضاً . فقد شعرت أوروبا بأنها أمام قوة إسلامية متعازمة .

وعندما قاربت العصور الوسطى نقطة النهاية، كانت أوروبا تعاني من اتساع نطاق الخطر الإسلامى ممثلاً فى الدولة العثمانية التى مدت نطاق

سيطرتها رويداً رويداً بحيث استتوت على القسطنطينية سنة ١٤٥٢م وحولتها إلى عاصمة إسلامية . ومع نهاية العصور الوسطى صارت إدانة الإسلام في الرؤية الأوروبية صورة كئيبة متكررة . وبقي الإسلام والنبي محمد عليه السلام لغزاً بالنسبة للغالبية الساحقة من أبناء الغرب الأوربي الذين استسلموا للصورة السلبية التي رسمت ملامحها كتابات النخبة الأوربية التي تحمل من الخيال الشرير أكثر كثيراً مما تحمل من الحقائق الموضوعية . ويكفي أن نشير هنا إلى كثرة عدد الكتب الزائفة التي كتبت عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام بصورة سلبية وزائفة، كما أن دانتى الليجيري صاحب «الكوميديا الإلهية» التي يعتبرها الباحثين الأوربيين سرة النتاج الأدبي الأوربي أواخر العصور الوسطى - على الرغم من ثبوت اقتباسها من نص لابن العربي - قد وضع النبي في الدائرة الثامنة من الجحيم . ولقد عاد التيار العدائي ضد الإسلام في صورة أكثر هيستيرية ليستمر حتى أواخر العصور الوسطى.

أما على الجانب الآخر ، أي في العالم المسلم، فعادة ما كانت السلطات الإسلامية متسامحة تجاه رجال الكنيسة المسيحية وأتباعهم الذين يعيشون في الدول الإسلامية . وهنا ينبغي أن نشير إلى أن العالم المسلم بات يتخذ احتياطات لحماية أراضيه من أي هوان أوربي محتمل تحت راية الحروب الصليبية ، وحنر الرعايا المسيحيين من مغبة الاتصال بالقوى المسيحية في أوربا وفي الحبشة. ولكن الأمر لم يتعد هذه الإجراءات الإدارية التي لم يكن لها أثر على أرض الواقع . وكانت السلطات في البلاد الإسلامية في



حوض المتوسط تعرف أن النصارى من رعاياها لا علاقة لهم بالقوى الصليبية وعلى الرغم من حملة بطرس لوزنيان الفاشلة على الاسكندرية سنة ١٢٦٧هـ / ١٢٦٥هـ ، وما تركته من آثار سلبية فإن أعداداً كبيرة من التجار المغامرين سعوا وراء حظوظهم فوق مياه البحار وصولاً إلى شواطئ المنطقة العربية ، وإلى جانبهم جاء الحجاج الأوربيون من كل مكان في أوروبا الكاثوليكية لزيارة المقامات المقدسة والأماكن المقدسة في فلسطين ومصر. وقد شجعتهم البابوية على الرحيل، ومنحتهم الفطران الذي يتم اكتسابه عند كل مزار أو مكان وردت الإشارة إليه في الكتاب المقدس.

وقد زاد حجم التجارة بين المسلمين والأوربيين زيادة كبيرة بعد أن طرد المماليك المستوطنين الصليبيين نهائياً من الشريط الساحلي لفلسطين واستولوا على عكا سنة ١٢٩١م. وقد أدى نمو التجارة في القرن الرابع عشر والخامس عشر إلى مناقشات دبلوماسية كثيرة بين المسلمين والفرنج (وهو الاسم الذي أطلقه المسلمون على الأوربيين جميعاً) بحيث صارت معرفة اللغة مهمة جداً . وقد بدأ أوربيون كثيرون في تعلم اللغة العربية لأسباب عملية نفعية أولاً ، ثم لأسباب أكاديمية فيما بعد . وعلى أية حال فإن المسلمين لم يكونوا مضطرين إلى تعلم اللغات «الافرنجية» في ذلك الحين، وربما كان السبب في ذلك راجعاً إلى إحساسهم بأن الفرنج أبعد مما يجب وأن ليس لديهم شئ يمكن أن يتعلم منه المسلمون . وعلى العموم لم يكن المسلمون يهتمون بأوروبا واقتصرت معرفتهم بها على التجار

الأوربيين الذين عاشوا شبه منعزلين في «فنادقهم» بالبلاد الإسلامية. وفيما عدا التجارة كانت المعاملات مع الأوربيين غير مرموقة في كثير من الأحيان . وباتت روايات الرحالة الأوربيين عن المنطقة العربية أكثر عدداً في القرن السادس عشر، عندما تنفق الأوربيون بأعداد أكبر إلى مصر وما جاورها .

وقد حملت هذه الكتابات بعض الحقائق وكثيراً من الخيال عن العالم العربي. ومن ناحية أخرى، فإن هؤلاء الرحالة كانوا يهتمون كثيراً بالمواقع المقدسة في رحلاتهم ، ويشكل المدن والمناطق التي يزورونها، لكلهم ناسراً ما تحدثوا عن الإسلام والمسلمين. وحادة ما كان أولئك الرحالة ينظرون إلى ما اعتبروه من «العجائب والفرائب» ولم يكونوا من الباحثين الذين يفتشون عن الحقيقة، أو الراغبين في المعرفة في غالب الأحوال.

ومع المزيد من توسع التجارة والنشاط التبشيري جاء البحث عن أسواق جديدة، ومع هذا وذاك تعززت الكتابات تدرجياً بتطور اللغات والمفردات في اللهجات الأوربية المحلية والدارجة ، وعندما تمت دراسة الكتاب الكلاسيكيين ونشر المعلومات الجديدة عن الأقاليم الجغرافية التي لم تكن معروفة حتى ذلك الحين ؛ يزغ فجر أدب الرحلات ، الذي تطور بشكل كبير في القرون التالية. وكانت هذه الكتابات الباكرة تضم أحياناً بعض الخرائط المصورة، أو الرسوم التوضيحية المحفورة على الخشب . ومن ناحية أخرى، لم يؤد أدب الرحلات الذي تطور على هذا النحو إلى تغيير فهم ملامح الصورة التي تكونت في أوربا عند الإسلام وعن المسلمين.

وهنا بدأت مرحلة جديدة من مراحل تطور «الأخر» في وجدان الأوروبيين بشكل عام، ولكن صورة «الأخر» الأوربي في المنطقة العربية بعد خضوعها للحكم العثماني منذ بدايات القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، ظلت ثابتة نسبياً حتى بداية عصر الاستعمار .

.... وتلك قصة أخرى

## خاتمة

في هذه الدراسة الموجزة حاولنا أن نتتبع الخطوط العامة للتطور التاريخي لصورة الآخر عند كل من العالم الأوربي الكاثوليكي ، والعالم العربي الإسلامي طوال الفترة التي امتدت من القرن الهجري الأول / السابع الميلادي ، الذي شهد بداية حركة الفتوح الإسلامية وتكوين ذلك الكيان السياسي والاقتصادي والثقافي الضخم الذي عرفه مؤرخو الحضارات باسم الحضارة العربية الإسلامية، حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي الذي شهد بسط السيادة العثمانية على المنطقة العربية وقيام الدولة العثمانية بدور «الآخر» المسلم بديلاً عن القوى العربية في حوض المتوسط وفي الأندلس التي قامت بهذا الدور في الرؤية الأوربية طوال القرون السابقة.

ويلفت النظر في هذه الدراسة ذلك الفارق بين موقف القوى الأوربية المتوسطية من ظهور الاسلام وانتصاره ، ثم بروز العالم الإسلامي قوة عالمية عظمى على كافة الأصعدة السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية، والعلمية والفكرية ؛ وهيمنة القوى الإسلامية على البحر المتوسط من ناحية، وموقف القوى الأوربية الغربية والشمالية «البعيدة» من الإسلام في الفترة السابقة على عصر الحروب الصليبية من ناحية أخرى. كما يلفت النظر أن موقف المسلمين من أوربا الغربية كان تابعاً من موقف القوة المتعالية تجاه أوربا التي كانت في ذلك الحين مجرد تعبير جغرافي، ومجموعة من القوى

السياسية البدائية تحت حكم قادة الشعوب الجرمانية التي لجأت أوروبا فيما بين القرن الخامس والقرن السابع الميلاديين. ولم يكن المسلمون - على الرغم من وجودهم في الأندلس وجزر البحر المتوسط وصقلية وجنوب إيطاليا - يرون فائدة من «معرفة» الآخر الأوربي الذي لم يكن لديه ما يقدمه للعالم الإسلامي الغنى والقوى.

في تلك الفترة كان «بعد» المسلمين عن أوروبا الغربية والشمالية بعد هزيمتهم في معركة بلاط الشهداء (تور - بواتييه) على يد شارل مارتل الملك الفرنجي ، و«بعد» أوروبا عن حركة التجارة فوق مياه البحر المتوسط، أو على طرق التجارة ، وعدم إحساس أوروبا الغربية والشمالية بأن الإسلام يمثل تهديداً وشيكاً ، وراء تلك الصورة التي ارتسمت في مخيلة أبناء هذه المناطق عن الإسلام وعن المسلمين ؛ وهي صورة جمعت بين الجهل والخيال الشرير. فقد اخترموا صورة «الآخر» المسلم التي تناسب عقول رجال الكنيسة الذين كانوا هم مثقفي ذلك الزمان في أوروبا ، والذين كانوا يرون في محاولة معرفة المسلمين ودينهم نوعاً من اللطس الذي لا ينبغي لهم أن يقعروا فيه. وربما لانجد واحداً من كتاب تلك الفترة «يعرف» ، أو «يحاول أن يعرف» شيئاً عن هذا الآخر الذي كان جاراً قوياً محسوداً ومخيفاً .

وبينما لم يكن هناك في التراث الثقافي للغرب الأوربي شيء يمكن أن يساعد على فهم الإسلام ، فإن للمسلمين كتبت لديهم ميزة المعرفة السابقة بالمسيحية. فقد تحدث القرآن الكريم بقدر كبير من الاحترام عن عيسى بن مريم باعتباره نبياً من أنبياء الله، ولد بمعجزة رباتية من مريم العذراء التي

فضلها الله سبحانه وتعالى على نساء العالم. كما أن من أركان الإيمان الإسلامي أن يؤمن المسلم بنبوة المسيح - ولكن الإسلام لا يوافق على القول بالوهية للمسيح، أو يكونه ابن الله، كما ينفي حدوث واقعة الصلب ! وهي أمور سببت خلافات هائلة بين المسلمين والنصارى . بيد أن هذه الأمور التي اهتمت بها النخبة لم تكن على هذا القدر من الوضوح بالنسبة لعامة الناس على الجانبين . ومن ناحية أخرى، لم يكن هناك قدر كاف من المعرفة لدى كل طرف عن الآخر بسبب الظروف التاريخية التي حكمت مسار الفكر والثقافة آنذاك .

لقد ظلت أوروبا والعالم المسلم، بالتبادل، أسرى الجهل بالآخر على المستوى الإنساني وعلى الرغم من «معرفة» المسلمين بالمسيحية؛ فإن ذلك لم يكن يعنى معرفتهم «بالأوروبي» في حياته الاجتماعية/ الإنسانية ومن ناحية أخرى، فإن الصورة الخيالية التي رسمتها أقلام النخبة الأوربية عن الإسلام والمسلمين كانت تعنى عدم معرفة أوروبا بالمسلمين في حياتهم الاجتماعية / الإنسانية. هكذا كان الجهل والوهم يطبع صورة الآخر بطابعه على الجانبين. إلا أن العداء كان يميز الموقف الأوربي خاصة في مناطق التماس مع العالم الإسلامي. ومع هذا، فإن الصور العدائية على الجانبين كانت تتأججاً للجهل واللامبالاة حتى بدأت الدعاية الصليبية تتصاعد بشكل هستيري ضد المسلمين تبريراً للحرب ضدهم ، ثم نتاجاً للهزائم التي الحقها المسلمون بالمشروع الصليبي فيما بعد . وعلى الجانب المسلم تكونت صورة سلبية قبيحة للفرنج الصليبيين الذين عرفهم المسلمون عن قرب في خضم الحروب الصليبية، وكانوا هم الأوربيون الوحيدون

الذين كانت «معرفة» المسلمون بهم عن قرب وعن خبرة ومعايشة ونتيجة لهذا كان العداء أيضاً من سمات صورة الآخر الأوربي في أذهان المسلمين.

والمثير في الأمر ، أن صورة «الآخر» على الجانبين في عصر الحروب الصليبية لم تكن تتلجأ لكتابات النخبة فقط، كما كان الحال في الفترة السابقة ؛ وإنما كانت ثمرة لخيال الشعبي على الجانبين بكل ما تحمله من مشاعر وأحاسيس وتصورات وجدانية عن «الآخر» وهنا يلفت النظر أن «الآخر» كان محلاً لخيال العدوانى ؛ سواء فى تلك القصائد التى عرفها الغرب الأوربي باسم «أغاني الحروب الصليبية» *Les Chansons de Croisade* أو فى المأثورات الشعبية العربية مثل «ألف ليلة وليلة» وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة السيد أحمد البدوي ... وغيرها . وهنا يجب أن ننتبه إلى أن المشاعر السلبيه التى تسربت إلى الموروث الشعبى فى تيار ثقافى تحتى مستمر عبر عشرات السنين قد صارت بمرور الزمن جزءاً من الثقافة السائدة لدى الجانبين تجاه الآخر.

وعلى الرغم من هذا كله ، فإن العلاقات مع «الآخر» على الجانبين لم تكن سلبيه فى كل الأحوال ، ولم تكن عدائية فى جميع الأحيان. فقد كانت الرغبة فى «المعرفة» أقوى من مشاعر العداء وهذا ما يفسر لنا حركة الترجمة التى صاحبت قيام الحضارة العربية الإسلامية من جهة ، والنهضة الأوربية أواخر العصور الوسطى من جهة أخرى، اعتماداً على تراث «الآخر». كما أن التجارة والربح كانت أقوى من مشاعر العداء على

الجانبين ؛ فقد تحدث الرحالة المسلم ابن جبير الذي زار المنطقة في أكثر فترات الحروب الصليبية سخوطة عن أن «أهل الحرب في حربهم، وأهل التجارة في تجارتهم»، وعلى الجانب الآخر كان التجار الإيطاليون يرون أنهم إيطاليون أولاً ثم مسيحيون ثانياً ، وكانت دفاترهم تفتتح «باسم الربع وباسم الرب».

لقد كانت التجارة والرحلة من أنجع الوسائل المعرفية بالآخر، مثلما كانت الحرب أيضاً وسيلة معرفية ناجعة وفعالة . فقد عرف المسلمون «الفرنج» من خلال الحرب على نحو ما تكشف مذكرات أسامة بن منقذ ، وكتابات ابن شداد ، والأصبهاني، وأبوشامة ، وابن واصل وغيرهم من المؤرخين المسلمين؛ مثلما تكشف كتابات فوشيه الشارترى ووليم الصوري، وجاهك دي فيتري ، وغيرهم من الصليبيين الذين ما يشوا المسلمين من قرب وبعقوا عنهم قسراً كبيراً من الحقائق. فقد شكك جاهك دي فيتري مثلاً من أن الفرنج تطموا الكثير من ممارسات المسلمين الثقافية ، ونقلوا منهم مظاهر الرقي والتقدم وهو ما أكدته كتابات أسامة بن منقذ في كتابه الذي يحمل عنوان «الاعتبار».

حقاً كانت الحروب الصليبية حرباً مثل أية حرب أخرى، كما أن تلك الحروب ألهمت للمشاهير العدائية على الجانبين بالفعل، ولكنها كشفت أيضاً لكل من الجانبين أن «الآخر» إنسان، وأنه يحمل من الخصائص والخصال الإنسانية الحقيقية ما يجعل التعامل معه أمراً ممكناً . ومن المؤكد أن المصادر التاريخية لم تسجل كافة مظاهر التفاعل الإنساني بين الجانبين،



ومن المؤكد أيضا أن انتقال أنماط السكن ، وطرز الملابس، وقوائم الطعام التي تطشت عنها على استحياء المصادر التاريخية التقليدية، كانت بمثابة الجزء الظاهر فقط من جبل الجليد. إن الناس في حياتهم اليومية لا يكونون على الدوام أسرى الأفكار والرؤى الأيديولوجية التي يروجها أبناء النخبة الذين يربطون أنفسهم عادة بمصالح الحكم وطموحاته ؛ وإنما يبحثون عن ما ينفعهم . ولاشك في أن ما حدث في مناطق الحدود والشعوب على أطراف أوروبا والعالم الإسلامي يؤيد هذا ويدعمه .

لقد كان سكان مناطق الحدود بين «دار الإسلام» و«العالم المسيحي الغربي» مزيجاً مختلطاً من المسلمين والمسيحيين الأوربيين والبيزنطيين ؛ سواء على الحدود مع الدولة البيزنطية أو على الحدود بين الأندلس وأوروبا، أو حتى في المناطق التي احتلها الصليبيون في المنطقة العربية طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. و«الحقائق التاريخية» في هذه المناطق الحدودية تتناقض بشدة مع «التصورات الأيديولوجية» عن دار السلام ودار الحرب من ناحية ، وعن التصورات الكاثوليكية لفكرة «العالم المسيحي» من ناحية أخرى . بل إن محاولات البابوية فرض الحصار على دولة سلاطين المماليك فشلت للأسباب نفسها عندما وجدت الجمهوريات التجارية الإيطالية أن مصلحتها لا سيما بعد الحملة الصليبية الخامسة سنة ١٢٢١م لأنها اهتمت كثيراً بالأيديولوجية ، ولم تلج بالأمر إلى الظروف التاريخية الموضوعية التي حكمت أوروبا الغربية آنذاك.

فقد استمرت عقول أوروبا الغربية تنتج «مشروعات» صليبية للعودة إلى فلسطين والمنطقة العربية حقاً، ولكن المصالح المتبادلة والأرباح المادية

حالت دون تحول تلك المشروعات إلى مغامرات عسكرية من ذلك الطراز الذي عرفته القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر. فقد فرضت الظروف الجديدة على الجانبين إعادة النظر في صورة «الأخر» على ضوء مصالحه الحقيقية وعلى ضوء المعرفة الحقيقية ؛ ولذا تم نبذ الدعاية التي كانت تنتج صورة ترضى «الذات» وتغيب «الأخر» وراء ضباب الخيال الشرير. وبدأت محاولات معرفة الآخر في أوروبا منذ القرن السادس عشر تمضي على أسس علمية ومعرفية حقيقية، وكان ذلك واحداً من أهم أسباب نهضة أوروبا أواخر العصور الوسطى.

وعلى الجانب المسلم كانت الأمور تسير في اتجاه معاكس ؛ وربما كانت الحروب الصليبية ونتائجها قد استنفدت الطاقات الإبداعية في الحضارة العربية الإسلامية في المنطقة العربية على الأقل؛ فقد انتقل خط المواجهة بين الإسلام والغرب إلى جبهة جديدة بعد أن صارت الدولة العثمانية تمثل الإسلام في شرق أوروبا ووسطها. وقد اتسمت هذه المرحلة الجديدة بخصائص جديدة تستحق دراسة مستقلة.

## **القسم الثالث**

**مفهوم التسامح بين ثقافتين :**

**أوربا والعالم الإسلامي**



## مقدمة

في هذا القسم الثاني من الكتاب تعالج موضوع صورة الآخر من زاوية مختلفة؛ وهي مفهوم التسامح لدى كل من الجانبين . وعلى الرغم من أن مصطلح التسامح نتاج غربي من حيث ظروفه التاريخية وسياقه الاجتماعي، فإن المصطلح دخل حياتنا الثقافية لأسباب كثيرة يناقشها هذا القسم.

وثمة مصطلحات تفرض نفسها على الخطاب اليومي في الساحة الثقافية على فترات زمنية قد تطول وقد تقصر ، ومع كثرة تكرار مثل هذه المصطلحات يجد المرء نفسه متسائلاً عن حقيقة المعنى الذي تحمله ، أو المعنى (والمعاني) التي يقصدها من يستخدمون هذا المصطلح أو ذاك . وينطبق هذا الموقف أيضاً على الاستخدام الجارى لمصطلح «التسامح» ، هذا المصطلح الذي دخل حياتنا الثقافية ، وفرض نفسه على الخطاب الإعلامي والثقافي منذ سنوات قليلة ، وتصادف إيقاع استخدامه بعدما جرى في ذلك اليوم من سبتمبر ٢٠٠١م ، ورد الفعل الأمريكي المتوحش تجاه العرب والمسلمين، ثم العدوان على العراق واحتلال أراضيه .

فقد وجد العرب والمسلمون أنفسهم متهمين في ثقافتهم ودينهم وسلوكهم من جانب «الآخر» التاريخي ، في لحظة غفلة تاريخية بما جرى في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م، وقد صارت عبارة «الحادي عشر من سبتمبر» ذاتها بمثابة العفريت الذي يخيف الجميع، دون أن يعرف أحد

حقيقة هذا العفريت ، إذ إن أحداً لا يعرف على وجه اليقين ما الذى جرى فى يوم «الحائى عشر من سبتمبر» هذا، ولأن أحداً لا يعرف فقد اكتفى الجميع بالإشارة إلى ما جرى ، دون الدخول فى تفاصيله ، أو محاولة تعريفه ووصفه ، من خلال الإشارة إلى اليوم نفسه ، أى «العفريت» ، ولأن العرب والمسلمين - ونحن المصريين منهم بطبيعة الحال - كانوا أول من خافوا من «العفريت» ، فقد وقف الدفاع عن «التسامح» ، وقبول الآخر. وظن كثيرون منهم أن المشكلة يمكن حلها بذلك الجهد الإسلامى الساذج ، ونسوا أو تناسوا ، أن الموقف من «الآخر» لا يتشكل بين عشية وضحاياها ، أو تحت تأثير رعاية طارئة ، وإنما هو موقف تم بناؤه بسبب التراكمات الثقافية عبر الأجيال ، وبسبب طبيعة التاريخ الثقافى لكل حضارة على حدة.

ومن هنا كان الاهتمام بقضية «التسامح» على أساس تاريخى، وعلى أساس إيديولوجى، لتوضيح حقائق المفاهيم والدلالات التى يتضمنها هذا المصطلح ، وقسمت هذه الدراسة إلى أربعة فصول صغيرة ، إثنان منها يتناولان الإطار النظرى ، والآخران يتناولان نموذجين تاريخيين أحدهما ينتمى للحضارة الغربية الكاثوليكية ، منذ بداية ظهور الكنيسة حتى القرن السادس عشر، والثانى ينتمى للحضارة العربية الإسلامية فى مصر منذ دخول الإسلامى حتى العصر العثمانى ، وربما تكون الصفحات القليلة التى يضمها هذا الكتاب حافزاً على مناقشة أكثر اتساعاً لمفهوم «التسامح» .

## (١)

## في معنى التسامح

«التسامح» مصطلح تريد بشكل لافت للنظر في الأدبيات السياسية خلال السنوات الأخيرة . وقد كثر استخدامه في مجال الحديث عن الجوانب الدينية بشكل خاص ، وربما استخدم على استحياء في الحديث عن «الحوار» والتعامل مع «الآخر» والقبول بالتعددية السياسية والثقافية والاجتماعية أيضاً .

و«التسامح» في اللغة يعنى أن تتفاضى على خطأ ارتكبه آخر، أو التساهل في حق، أو الصبر على إساءة ما . بيد أن المصطلح اتخذ أبعاداً غير الأبعاد اللغوية وصار يعبر عن موقف ثقافي / اجتماعي . وفكرة «التسامح» نفسها تبدو نابعة من ثقافة «غير متسامحة» في جوهرها . كيف ؟

تبدو المفارقة واضحة من حيث أن هذا المصطلح ينطوي بالضرورة على مفهوم يقول إن هناك «خطأ» أو «خطيئة» يتبغي التسامح إزاءها . وهو ما يشي بدوره إلى أن من يتناولون «بالتسامح» يتطلقون من موقف منحاز يرى أصحابه أنهم على حق و «الآخر» على باطل ، ولكن الضرورة تفرض عليهم التسامح إزاء هذا الآخر لسبب أو لآخر . ويقويتنا هذا بالضرورة إلى

التفكير فى أصول هذا المصطلح ، الآخر ، ومتابعه وأبعاده الثقافية والنفسية والاجتماعية ، إذ إن المصطلح ليس مجرد كلمة تحمل معنى ما ، وإنما هو تعبير عن موقف ثقافى / اجتماعى يرى الذات والآخر من منظور استعلائى ، «ويتسامح» إزاء اختلاف هذا «الآخر» وغيريته . وهو ما يشى بأصول ثقافية / اجتماعية غير متسامحة أصلاً.

والناظر فى تراث الثقافة العربية الإسلامية بوجه عام ، وفى الأدبيات السياسية والاجتماعية بوجه خاص ، لن يجد هذا المصطلح مستخدماً ، وإنما سيجد حديثاً عن الحقوق والواجبات. وفى الإدارة المالية والضرائبية سيجد مصطلحاً مشابهاً هو «المسامحة» بمعنى إسقاط الضرائب المستحقة للدولة نتيجة ظروف طارئة . ولم يدخل المصطلح حياتنا الثقافية سوى فى العقود الأخيرة متسرياً من ترجمات الأعمال الأوروبية والأمريكية لينضم إلى قائمة المصطلحات والمفاهيم التى تنتجها الثقافة الغربية ونستهلكها نحن نون وهى !

لقد قامت العلاقة بين «الأنثى» و«الآخر» فى الحضارة العربية الإسلامية، على أساس أخوة الجنس البشرى كله من ناحية، وعلى أساس حق «الآخر» فى الوجود والاختلاف من ناحية أخرى . فمن حق الناس جميعاً أن يعيشوا كما يشاؤون ، وأن يعتقدوا ما يؤمنون به من عقائد ، بشروط أهمها مراعاة حقوق الآخرين وواجباتهم إزاء هؤلاء الآخرين. والحضارة الوحيدة فى تاريخ البشرية التى سمحت «للآخر» أن يعيش فى رحابها ويبدع ويصل إلى مراتب عليا فى الإدارة الحكومية ، أو فى الحياة العلمية



والثقافية والاقتصادية ، هي الحضارة العربية الإسلامية . فالعلاقة بين «الأنا» و«الآخر» في هذه الحضارة علاقة تمايز واختلاف ، وليست علاقة تمييز واستعلاء.

وتكمن المفارقة الواضحة في أن الحضارة الغربية التي أفرزت مصطلح «التسامح» ليست حضارة «متسامحة» إزاء الآخر بأي حال من الأحوال ؛ فهي حضارة تقوم على فكرة استعلائية مستمدة دينياً من فكرة «الشعب المختار» التي ورثها المسيحية الغربية (بشقيها الأوربي والأمريكي، أو الكاثوليكي والبروتستانتي) ، عن العهد القديم في الكتاب المقدس، والذي يتحدث عن بني إسرائيل القدماء الذين يزعمون أن الرب اختارهم وميزهم على سائر البشر . فقد قالت الكنيسة إن اليهود نقضوا ميثاقهم مع الرب حين آمنوا المسيح عليه السلام وأنكروه، فصار أتباع المسيح هم شعب الله المختار الجديد، ثم حدثت تطورات تاريخية (يرونها الفصل الثالث من هذه الدراسة) جعلت فكرة الاختيار مُسخرة في خدمة المظالم الاستعمارية بشكل أو بآخر ، ولاسيما في تاريخ بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الأمريكية، ويمكن تفسير ذلك من خلال دراسة تاريخ تطور المفاهيم الثقافية الغربية حتى أيامنا هذه .

على أية حال، فإن الحضارة الغربية الكاثوليكية (ثم الكاثوليكية البروتستانتية فيما بعد) قد صاغت مفهوم «التسامح» لحل مشكلات ثقافية / اجتماعية أوربية في أواخر العصور الوسطى، وفي بداية عصر النهضة، بعد أن تفاقمت أزمة الحياة السياسية والثقافية والاجتماعية نتيجة الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية (التي كانت تتحكم في الحياة الثقافية

والفكرية منذ بداية العصور الوسطى في القرن الخامس الميلادي، وحتى القرن الخامس عشر على الأقل) وبين الذين تمربوا على مفاهيم الكنيسة الضيقة في كافة الجوانب العلمية والثقافية والاجتماعية . وقد أدى تزايد نجاح معارضي الكنيسة وفضل سياسة محاكم التفتيش إلى تراجع الكنيسة ورفع شعار «التسامح» لحل هذه المشكلات .

ثم خرج مفهوم «التسامح» من هذا الجذع الديني الضيق إلى رحابة الحوار الثقافي والسياسي الذي نجم عن التطورات التاريخية الموسوعية التي جرت على بلدان أوروبا الغربية (ومن المهم أن نلاحظ أن هذه التطورات لم تكن تسير على خطوط متوازية في كل المجالات، أو بالنسبة لكل بلاد أوروبا) وصار «التسامح» من شعارات الحياة الفكرية في بعض البلاد، ولم يعد ممارسة مقبولة في كل هذه البلاد سوى في القرن العشرين. بيد أن أوروبا مارست «التسامح» داخل بعض بلدانها فقط، ولم تمارسه تجاه «الأخر» غير الأوربي، فقد أثبتت حركة الاستعمار مدى مركزية الفكر الأوربي عامة والنظرة الاستعمارية تجاه «الأخر» في المستعمرات بشكل خاص وكذلك فعلت الولايات المتحدة الأمريكية منذ انغماسها في الشئون الدولية بعد الحرب العالمية الثانية.

وأخيراً ، مع بداية التسعينيات من القرن العشرين ، صار الشعار مطروحاً بقوة بعدما أثبتت مسألة «صدام الحضارات» ومسألة «حوار الحضارات» التي تشكل القطب المواجه لمفهوم التسامح ، فبعد سقوط الاتحاد السوفيتي وجئت الرأس مالية العالمية نفسها بحاجة إلى «لختراع» عدو جديد بدلاً من العدو الأحمر الاتحاد السوفيتي الذي سقط . وفي فترة

ما بعد الحرب الباربة تعالت أصوات في أمريكا وأوروبا تقول زاعمة  
 «المسلمون قادمون .. المسلمون قادمون» وتظن قطاعات بارزة في الغرب  
 الأوربي والأمريكي أن الإسلام خطر على الحضارة الغربية . ويبدو أحياناً  
 أن موقف الغرب تجاه الشيوعية قد تم استنساخه تجاه الإسلام . ووفقاً لما  
 يراه محللون غربيون كثيرون فإن الإسلام والغرب يسيران على طريق  
 الصدام، وغالباً ما يتم تصوير المواجهة على أنها صدام حضارات. وقد  
 تزعم هذا التيار «برنارد لويس» الذي كتب محاضرة (نشرت منقحة سنة  
 ١٩٩٠م) بعنوان «الأصولية الإسلامية» ، ثم عدل العنوان وجعله «جذور  
 الهياج الإسلامي» ، وقد روجت وسائل الاعلام الغربية لهذه المقالة التي  
 نشرت في مجلة «اتلانتيك مونثلي Atlantic Monthly» . وكان لهذه  
 المقالة التي كتبها هذا المؤرخ اليهودي المشهير تأثير بالغ على فهم الغرب  
 للإسلام والمسلمين المعاصرين وقد استقل التراث المتراكم عن صورة الآخر  
 في الثقافة الأوربية والأمريكية ؛ مشيراً إلى التراث التاريخي عن صورة  
 الآخر.

وأهم ما يقوله برنارد لويس هو أن الصراع بين الإسلام والغرب استمر  
 أربعة عشر قرناً من الزمان منذ ظهور الإسلام حتى الآن، ويصور المسلمين  
 على أنهم صوانيون دائماً ، والغرب سفاقي دائماً . وهو موقف من «الآخر»  
 ينطلق من أسس مفحزة غير متسامحة ويمرر العنوان على هذا الآخر.

ومن ناحية أخرى، يتجاهل باحثون آخرون التراث الاستعماري في  
 البلاد العربية والإسلامية ، ويحتفلون التحول في المواقف الإسلامية تجاه  
 الغرب من الإعجاب والتقليد إلى العداوة والرفض ، وإلى مجرد صدام بين

حضارتين متفصلتين ومختلفتين ترفض كل منهما الأخرى . وأوضح الأمثلة على هذا وأكثرها استفزازاً يرد في كتاب صمويل هنتجتون «صدام الحضارات» الذي يعلن أنه بعد انتهاء الحرب الباردة .. سيحكم الصدام بين الحضارات الشؤون السياسية العالمية، وستكون الخطوط الفارقة بين الحضارات هي خطوط القتال في المستقبل ... والحرب العالمية القادمة ، إذا نشبت ستكون حرباً بين الحضارات....».

هذه الآراء التي راجت مع بداية تسعينيات القرن العشرين كانت ضد فكرة «التسامح» تماماً، وقد عبر فوكوياما عن ذلك التعصب و«عدم التسامح» عندما أعلن فكرته عن نهاية التاريخ لأن الرأسمالية انتصرت على الشيوعية ويجب أن تسود العالم. ولم يكن الحديث عن تشكيل النظام العالمي الجديد تحت قيادة الولاية المتحدة الأمريكية بعيداً عن هذا السياق.

وجاءت أحداث الهجوم على برجي نيويورك ومبنى البنتاجون في سبتمبر ٢٠٠١م لتسهم في المزيد من «هياج» القوى المتشددة التي لا تؤمن «بالتسامح» . فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تتوجع فيها أمريكا من ضربات عنيفة على أرضها في تاريخها القصير. وكان «العدو» جاهزاً ومعلباً : أي «المسلمون» . ومكست الأحداث التي جرت على أرض الواقع كل ما هو مناقض لمفهوم «التسامح» . وصار العرب والمسلمون جميعاً ضحية للتعصب و«عدم التسامح» الأمريكي والأوروبي. وقد رأى أنصار نظرية صدام الحضارات فيما جرى في تلك اليوم من «تعمير دليلاً على صحة رأيهم وصدق نظريتهم» . وقالوا بأن حديث «الحوار» و«التسامح» حديث لا محل له . وتناثروا بشأن الحرب على «الآخر» وتعميره . وربما كان

حديث الرئيس الأمريكى جورج بلبو يوش عن «محور الشر» مجرد صياغة أخرى لأفكار صمويل هنتجتون عن الخطر الإسلامى/ الكونفوشيوسى الذى يتهدد الحضارة الغربية على حد زعمه . إذ إن الدول التى يضمها «محور الشر» المزعوم تضم دولتين إسلاميتين ودولة كونفوشيوسية.

على الجانب الآخر أخذ أصحاب فكرة الحوار بين الحضارات ، وعلى رأسهم جون أسبوريتو الباحث الأمريكى الشهير، يدافعون عن وجهة نظرهم من منطلق أن فهم «الأخر» و«التسامح» مع اختلافه و«غيريته» يمكن أن يخلق نوعاً من الحوار والاعتماد المتبادل الذى يحول دون وقوع مثل هذه الأعمال العنيفة . وتقوم فكرة جون أسبوريتو الأساسية فى كتابه «التهديد الإسلامى : خرافة أم حقيقة» على أساس أن الإسلام يمثل تحدياً أمام الغرب ولكنه لايشكل تهديداً . ولما كان العرب والمسلمون قد وجدوا أنفسهم فجأة فى موقف المتهم العاجز عن الدفاع عن نفسه دونما جريمة ارتكباها ، ولأنهم كانوا ضحايا ربود أفعال عنصرية ومتعصبة من حضارة تزعم أنها تنادى بالتسامح بعدما جرى فى ذلك اليوم من سبّتهم، فإنهم استخدموا فى أبياتهم مصطلح «التسامح» ضمن مفردات أخرى فى خطابهم الذى اتسم بالعجز والضعف .

وقد أريقَت كميات هائلة من الصبر، وسويت أطنان من الورق، وعقدت ندوات وحوارات، وجرت مناظرات ومقابلات فى شتى صنوف وسائل الإعلام العربية والإسلامية حول موضوعات «الحوار» و«الأخر» ، و«التسامح» ... وما إلى ذلك فى السنوات الأخيرة . وكانت كلها تستجدى الحوار والتسامح والقهم من الغرب عامة ومن الولايات المتحدة على نحو

خاصة، وتعايقت الحكومات في غسل أيديها من أية علاقة بجماعات الإسلام السياسي، وسانت أجهزة الإعلام الحكومية نغمة ساذجة تدعو إلى «التسامح» والحوار مع الغرب الغاضب المتريص ---

بيد أن هناك مفارقة تدعو إلى الأسى بشأن التسامح والحوار الذي تسعى إليه «الحكومات» العربية والإسلامية، ذلك إن هذه الحكومات نفسها لا «تسامح» على الإطلاق إزاء القوى السياسية «الأخرى» داخل بلادها كما أنها تتكرر ببساطة وجود «الأخر» داخل بلادها ؛ سواء على المستوى السياسي أو الثقافي، وتعامله معاملة الخونة والمجرمين. ويمكن تفسير ذلك، بطبيعة الحال، من خلال الحقائق التي تحكم علاقات هذه الحكومات بشعوبها من ناحية، وعلاقاتها بالولايات المتحدة الأمريكية والغرب من ناحية أخرى.

ومن خلال ما عرضناه في الصفحات السابقة نجد أنفسنا أمام موقف فكري صعب ، ذلك أننا وجدنا في السطور السابقة أن معنى مصطلح «التسامح» كان عرضة لتقلبات عدة ناتجة عن السياقات التي جاء فيها عبر العصور التاريخية سواء في الغرب أو في البلاد الإسلامية. وهكذا ، نجد أنفسنا أمام مصطلح يصعب التعامل معه من منظور أحادي؛ فالتسامح ليس مصطلحاً دالاً على المفاهيم الدينية وحدها ، كما أنه ليس مصطلحاً قاصراً على الممارسة السياسية بون غيرها ، فضلاً عن أنه ليس محصوراً في نطاق الحوار الثقافي أو التفاعل الاجتماعي فقط، إنه مصطلح محير ومربك شأنه في ذلك شأن العلاقات الإنسانية التي يتناولها في مستوياتها المختلفة . ولما هنا بصدد البحث عن تعريف «جامع مانع»

- على رأى أهل الفلسفة- وإنما تحاول رصد أهم ما يحمله هذا المصطلح من دلالات ومفاهيم . هذا الموقف من جانبنا يستمد شرعيته العلمية من حقيقة تين :

أولاهما : إنه من العبث إضاعة الجهد والوقت لتحت تعريف جامع مانع لمصطلح كانت نشأته الأصلية فى سياق ثقافة مختلفة وظروف تاريخية مباينة، ولأسباب اجتماعية وثقافية لم تمر بها كل المجتمعات الإنسانية، وتم نقله إلى مناطق ثقافية مغايرة حكمتها ظروف تاريخية مختلفة، كما أن هذا المصطلح لا يحمل المعنى نفسه بالنسبة لكل المجتمعات الإنسانية . وعلى الرغم من أن المصطلح : «التسامح» قد دخل الثقافات الأخرى ، ومن بينها المناطق الثقافية العربية والإسلامية ، فإنه حمل دلالات جديدة فرضتها الممارسات الفكرية المختلفة . وهو ما يعنى ، بعبارة أخرى، أن المصطلح يعمل دلالات ومفاهيم متعددة بحسب تعدد الجماعات أو المجتمعات الإنسانية التى تستخدمه ، وبحسب تنوع الأهداف والغايات التى يتفياها من يستخدمون هذا المصطلح .

ثانيهما : إن محاولة فهم السياق الثقافي الذى يستخدم فيه مصطلح «التسامح» بعيداً عن محاولة صياغة التعريف الجامع المانع، يمكن أن يؤدي بنا إلى فهم المزيد من حقائق العلاقات بين المناطق الثقافية المختلفة بشكل تاريخى موضوعى دون الانزلاق فى مهاوى النظريات والانحيازات المسبقة.

وهذا هو موضوع الفصل التالي

## ( ٢ )

## الأنا والآخر... أو «نحن» و«هم»

«التسامح» موقف من الآخر . وهذا يستدعى بالضرورة محاولة تحديد «نحن» في مقابل «هم» فهل يمكن الوصول إلى تحديد وتحديد «هم» ؟ إن مشكلة الوصول إلى تحديد واضح لـ «نحن» و «هم» تتجسد في حقيقة أن فكرة «الأنا» و«نحن» ، الثقافية الاجتماعية ، أو الدينية ، أو الحرفية ، أو السياسية ، هي في ذاتها التي تنتج فكرة «الآخر» و «هم» على نفس الأسعدة والمستويات . إذ إن الحديث عن «نحن» يستدعى بالضرورة الحديث عن «هم» لأن «نحن» توجب دائماً وجود «هم».

إن فكرة «التسامح» ترتبط بشكل عضوي بكيفية فهمنا لـ «نحن» و«هم» ؛ للذات والآخر. كيف نرى أنفسنا ؟ وكيف نرى علاقتنا بالكون وبالبشر وبالأشياء داخل هذا الكون ؟ كيف نرى دورنا في تاريخ البشرية ؟ وهل نرى تكليفاً إلهياً لنا في هذا الكون لمصالح البشرية جمعاء أم أننا مختارون لنعمو فوق بقية البشر؟ هل نرى البشر سواء أم نرى فروقاً يصنعها العرق ، أو اللون، أو الدين ؟ وإذا ما نجحنا في الإجابة على بعض هذه الأسئلة الحيوية التي تتعلق بـ «نحن» فهل يمكن أن نجيب على



الأسئلة التي تنطق بـ «هم» ؟ ألا يتوقف هذا على نوع الإجابات المرتبطة بـ  
«نحن» ؟

لأن «نحن» حاضرون ومعروفون وموجودين (أو هكذا يظن من يطرحون  
هذه الأسئلة باعتبارهم «نحن» على الأقل) ، فإن «هم» بالضرورة غائبون  
ومجهولون وغير مفهومين (أو هكذا يكون الافتراض الأولى على الأقل) .  
فهل يمكن تعريف الأنا أو «نحن» وهل يمكن بالتالي تعريف «الآخر» أو  
«هم» ؟

إن الإجابة على هذا التساؤل المركب مركبة أيضاً . إذ إن «نحن» يمكن  
أن تكون مطاطة ونسبية إلى أبعد درجة يمكن تخيلها ، كما يمكن أن  
تنكمش إلى حدود جماعة عرقية ، أو مهنية ، أو وطنية ، أو دينية ، ويمكن  
تحديد «نحن» على أساس أن تكون «نحن» مجرد أسرة أو عائلة . كما  
يمكن للحقائق التاريخية والحدود الجغرافية أن تسهم في تحديد «نحن» .

وبقدر ما يتسع نطاق «نحن» بقدر ما تتنوع وتتعدد العناصر التي  
تتركب فيها هذه الـ «نحن» . ومن ناحية أخرى ، فإن من يمكن اعتبارهم  
«هم» عند مستوى ما من مستويات «نحن» ينظرون بالضرورة داخل دائرة  
«نحن» على مستوى آخر أعلى أو أكثر اتساعاً ؛ فهل يمكن أن نقول «نحن»  
المسلمين بون أن يكون هناك وجود آخر داخل هذا النطاق الأعلى لـ «نحن»  
المصريين و«نحن» القاهريين . وهل جرأ ؟

وهل تكفى «نحن» الندالة على المسلمين للدلالة على كل الشعوب  
الإسلامية بون أن تضم داخلها عدداً من «نحن» و «هم» في مستويات  
أدنى ؟ وبعبارة أخرى ، هل تكفى «نحن» المسلمين عن وجود «نحن» العرب

و«هم» غير العرب؟ وهل تلغى «نحن العرب» وجود «نحن» المثقفين و«هم»  
الحرفيين أو الفلاحين مثلاً ؟

هذه الأسئلة ، وما يتفرع عنها بالضرورة من أسئلة فرعية أخرى، تبدو  
أسئلة بلات نهاية ، كما أنها تبدو نوعاً من النسبية العبثية المركزة على الذات  
، ولكنها ضرورية للوصول إلى حقيقة مكونات الأنا والآخر من ناحية  
ويكشف علاقة هذا بموضوع التسامح من ناحية أخرى. كما أن هذه  
الأسئلة التي تبدو أسئلة لانهائية تصلح أيضاً لمعالجة موضوع «الآخر» أو  
«هم» .

إن المكونات والعناصر التي تشكل «نحن» ، أو «هم» كثيرة متعددة من  
جهة، كما أنها متشابهة ومتداخلة من جهة أخرى. فهناك عناصر ثقافية  
(اللغة والدين والتاريخ المشترك، والعادات والتقاليد) ، وهناك عناصر  
اجتماعية (الطبقة ، وعلاقات القرى، والجوار ، والمشاركة) ، كما أن هناك  
عناصر اقتصادية (الحرفة أو المهنة أو المستوى الاقتصادي أو علاقات  
العمل) . ويعنى هذا فى التحليل الأخير أن وجود «نحن» و«هم» نوع من  
الكيونة المرنة التي تضيق وتوسع بحسب ما يراد بـ «نحن» أو «هم» .  
وليست هذه مجرد فتلكة لفظية ، وإنما القصد منها القول بأن البشر  
جميعاً يمكن أن يدخلوا فى المستوى الأعلى لـ «نحن» حين يكون المقصود  
بـ «هم» سكان كوكب المريخ أو غيرهم من الكائنات الفضائية مثلاً.

ويستدعى هذا ، بالضرورة ، التظى عن فكرة «نحن» المغلفة بالمتعصبية  
الاستعلائية ، وطرح الموقف المتشكك فى «هم» لجرد اختلافهم . ويجب هنا  
محاولة تعميق فكرة «نحن» الإيمانية : نحن البشر. وليست هذه دعوة إلى

عولة الذات والتخلي عن الجنور والتراث والخصائص المشتركة التي تميز أي «نحن» عن أي «هم» . وإنما هي دعوة لإعلاء شأن الإنسان على مصالح بعاة الحرب والصدام خدمة للاستغلال والهيمنة . ومن ناحية أخرى . فإن التمسك بالخصوصية الثقافية ، أو حتى الحضارية ، لا يعني رفض الآخر ، وإنما يعني أن قبوله والتسليم باختلافه وغيريته ، يمكن أن يؤدي إلى التعاون والاعتماد المتبادل . وصيغة القبول والاعتراف والحوار هي ما يعنيه البعض بمصطلح «التسامح» .

هذا الموقف الثقافي / الاجتماعي الذي يقبل «الآخر» ، ويقر بحقه في الوجود وفي الاختلاف والتمايز ، والذي يرفض الصدام مع هذا «الآخر» على أرضية الاختلاف ، نشأ عن التطورات التاريخية ، والتقدم العلمي والتكنولوجي ، وتحسن وسائل المواصلات والاتصال والمعلومات ، بحيث صار أهل كوكب الأرض يعرفون عن بعضهم بعضاً - مهما بعدت المسافات - أكثر مما كان سكان المناطق المختلفة في بلد بعينه يعرفونه عن بعضهم بعضاً منذ نصف قرن مضى . وهذا التقارب هو الذي خفف من حدة الفروق بين «نحن» و«هم» . هذا التواصل هو الذي جعل «الآخر» لا يبدو «آخر» بالضبط لأن الناس يكتشفون بشكل مطرد أن عوامل التقارب والاشتراك بينهم أقوى كثيراً وأبقى من عوامل الفرقة والشك . وهنا يكون «التسامح» بين الأنا و«الآخر» قد تخطى عن مكانه لنوع من المشاركة الإنسانية التي تهتم بمصير الإنسانية جمعاء .

إن الانقسام الذي حدث في الغرب الأوربي والأمريكي بشأن العدوان الأمريكي البريطاني على العراق يكشف عن أن «نحن» لم تعد في مواجهة

«هم» بشكل حاد وقاطع . وهلى أسس جغرافية أو عرقية كما كانت دائما . فقد رأى كثيرون فى أوربا وأمريكا ممن ضمتهم تلك المظاهرات الرهيبة غير المسبوقة فى تلك البلدان أن العدوان الأمريكى - البريطانى على العراق ليس صراعاً بين «نحن» أمريكية أوربية، و «هم» عرب مسلمين بقدر ما هو صدام من «هم» أتصار الحرب وأقطاب الرأسمالية العالمية وأصحاب الشركات عابرة الجنسيات على «نحن» البشر المدنيين الذين لا يريدون سوى العيش فى سلام. إن التداخل والتواصل والاتصال بين «نحن» و «هم» جعل الموقف الأحادى المنطق تجاه الآخر مسألة عبثية لا قيمة لها . فهل يمكن أن نسمى هذا الموقف التابع من وحدة «نحن» الإنسانية «تسامحاً» ؟ وهل كانت الجماهير الغاضبة من فجاجة العدوان والكذب الحكومى تتسامح مع العراق الآخر ثم كانت تضامناً مع نحن البشر؟

فى تقديرى أن اللبس فى مفهوم مصطلح «التسامح» والدلالات التى يجعلها إنما نتج أصلاً عن إساعة ترجمة اللفظ من اللغات الأوربية ، لا سيما الإنجليزية والفرنسية . وقد أدى هذا الموقف إلى اختيار أحد معانى اللفظ الأوربى الضوية دون الاهتمام بمدلوله الاصطلاحي الذى يكتسب قيمته من الظروف التاريخية التى ظهر فى إطارها .

فى اللغة العربية تشق كلمة «تسامح» من الجذع الثلاثى «سمح» الذى يعنى الجود والعطاء ، «والسماح» و«السماحة» هى المساهلة ، وتسامحوا بمعنى تنازلوا و«السماحة» يعنى الكرم والتساهل ... وهكذا ، فإن المعنى الأصلى يعنى الكرم والجود كما يعنى التساهل . أما الكلمة الأوربية فهى Tolerance , Toleration المشتقة من فعل Tolerate بمعنى يحتمل، أو

يقبل ، أو يصير على ، أو يجيز . والكلمة هنا تجمع بين الاحتمال على مضض والتسامح والقبول على كره ، والتحمل ... وهو ما يشي بالتساهل إزاء شئ لا يمكن قبوله عادة . وبذلك كان استخدام اللفظ في السياق الثقافي / الاجتماعي الأوربي يقصد شيئاً ، على حين أن الترجمة العربية إلى شئ آخر مختلف .

بيد أن لفظ «التسامح» دخل اللغة العربية ليكتسي مفاهيم ومدلولات إضافية سرعان ما صارت هي المفاهيم والمدلولات الجوهرية بسبب السياق الثقافي / الاجتماعي الذي تم استخدامه فيه من ناحية ، وبسبب تأثيرات الموروث الثقافي العربي من ناحية أخرى . فقد تخطى اللفظ تماماً عن معناه الأوربي وصار له معنى يكاد يكون مضاداً لمعنى الكلمة الأوربية ، فقد تخطى عن معاني «التحمل» و«الصبر على» و«القبول بـ» إلى معنى واحد هو القبول بالآخر ، وعدم إنكار حقه في أن يكون «مختلفاً» وأن يمارس الاختلاف . وربما يكون هذا هو السبب في أنه استخدم كثيراً في سياق الحديث عن الحريات المدنية - وهو المعنى الأساسي لكلمة Toleration Tolerance على أية حال - على الرغم من أنه ينبغي أن يستخدم في مجالات التعددية السياسية والحوار الثقافي ، والتنوع الاجتماعي .

على أية حال ، يبقى السؤال مطروحاً : هل يمكن أن تستمر صيغة «الأنا» و«الآخر» ، أو «نحن» و«هم» لتكون هي الصيغة الحاكمة في حياتنا الثقافية / الاجتماعية ؟ وهل تصلح هذه الصيغة في علاقات البشر داخل المجتمع الواحد وعلى مستوى البشرية كلها ؟ إن صيغة «نحن» و«هم» هي التي تستوجب «التسامح» بالمعنى الغربي ، ولكن الإدراك المتزايد لأخوة بني

البشر في أوساط الشعوب ، يمكن أن تقسم العالم إلى «نحن» و «هم»  
 قسمة جديدة لا تقوم على الحدود الجغرافية أو العرق أو الروابط الوطنية،  
 أو الخصائص الثقافية ، وإنما قسمة تقوم على «نحن» (الشعوب التي تريد  
 أن تحيا في سلام وتتبدد الحرب) و«هم» أصحاب المصالح الرأسمالية الذين  
 يشعلون الحروب لبيع منتجات الأسلحة التي تنتجها مصانعهم ، أو  
 الاستيلاء على موارد الطاقة اللازمة لصناعاتهم، أو السيطرة على الأسواق  
 لحسابهم . هذه القسمة الجديدة بين «نحن» و«هم» أخذت تتشكل وتتصاعد  
 وتعبّر عن نفسها بأشكال مختلفة : فالمظاهرات ضد العولمة، واجتماعات  
 منظمة التجارة العالمية ومنتدى دافوس ... وغيرها من أشكال صولة  
 السيطرة الرأسمالية ، هي الدليل الواضح على أن هذه القسمة الجديدة قد  
 أخذت تتشكل بشكل متسارع . إذ إن هذه المظاهرات المعادية للعولمة  
 (بمعنى سيطرة القوى الرأسمالية على العالم) قد اندلعت في معظم أركان  
 العالم، وحتى داخل أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية نفسها، تعبيراً عن  
 رفض «نحن» الناس العاديين لسيطرة «هم» الذين يمثلون الاحتكارات  
 الرأسمالية.

ومن المثير أن هذه القسمة الجديدة بين «نحن» و«هم» لا تنادي  
 «بالتسامح» وإنما هي تطالب «بحقوق» . والنظر في حماس السنوات  
 والمؤتمرات والحوارات والكتابات التي دارت في السنوات الأخيرة من  
 القرن العشرين ، والسنوات الأولى من القرن الصادي والعشرين ، حول  
 موضوع «نحن» و «هم» أو حوار الحضارات ، أو صدام الحضارات ، أو  
 «العولمة، أو مناهضة العولمة... وما إلى ذلك ، سوف يكتشف بسهولة أن

قسمة جديدة أخلت بتشكيل في العالم بين «نحن» و«هم» بين «الأنا» و «الآخر» وأن هذه القسمة الجديدة الأختة في التشكيل لاتطالب «التسامح» بمعناه الأوربي، ولا حتى بمعناه العربي، وإنما تطالب بحق «نحن» في مواجهة عدوانية «هم» وإن ينبو هذا كلاماً غامضاً ، فإنه ينبغي توضيحه قدر الإمكان.

لم تعد «نحن» أو «الأنا» جزئية، محلية، إقليمية ، أو حتى ثقافية، في مواجهة «هم» على نفس المستويات الجزئية أو المحلية والإقليمية والثقافية . ومن ناحية أخرى، لم تعد للجغرافيا والتاريخ والموروث الثقافي نفس قوتها الرابضة التي تمنع «نحن» من أن تنقسم على نفسها إزاء «هم» أجنبية . فمن الممكن أن جزءاً من «نحن» يشكل «نحن» أخرى في مواجهة «هم» مختلفة. فقد كان جزءاً من الغرب الأوربي والأمريكي يناصر جزءاً من العالم العربي المسلم في العراق وفلسطين أي أن جزءاً من «هم» انضم إلى جزء من «نحن» ، وعلى الجانب الآخر كان هناك جزء من «نحن» يلق مع «هم» بحكم مصالحه السياسية وارتباطاته الرأسمالية.

إن قسمة «صراع الحضارات» بين «نحن» و«هم» تحدت بشكل عدائي صارخ بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١م حين قال الرئيس الأمريكي جورج دبليو بوش إن من ليس معهم سيكون عدوهم ! لكن الأمريكيين العاديين ليسوا جميعاً داخلين في هذه القسمة، ذلك أن قطاعات يعتد بها لا ترى نفسها داخلة في نطاق «نحن» التي يتحدث عنها الرئيس الأمريكي . كما أن عدداً كبيراً من الحكام الذين وضعوا أنفسهم داخل «نحن» التي قصدها الرئيس الأمريكي، لم يكونوا يعبرون عن رأى شعوبهم، أو قطاعات كبيرة منها على الأقل. وقد أدى هذا إلى مفارقة واضحة ، إذ انبثقت

تلقائياً عن قسمة صراع الحضارات ، والحرب ، قسمة مقابلة ترى العالم موزعاً بين الشعوب التي تريد السلام وتتعرض للحرب والعدوان من ناحية ، وبين الحكام الذين يمثلون المطامع الرأسمالية للشركات العابرة للجنسيات من ناحية أخرى .

وعلى سعيد المنطقة العربية ، وفي داخل كل بلد عربي على حدة، نجد القسمة واضحة بين «نحن» و«هم» . إذ إن إنكار التعددية السياسية على مدى السنوات التي تغطي النصف الثاني من القرن العشرين، نقول إن هذا، وكثيراً غيره ، خلق نوعاً من الثقافة السياسية المرائية المنافقة من ناحية، كما خلق نوعاً من القسمة السياسية العدائية من ناحية ثانية.

وعلى المستوى الثقافي / الاجتماعي توارث التعددية الثقافية التي تقوم أساساً على الإيمان بالحوار ، وبحق الآخر في الوجود والاعتقاد والتعبير والممارسة . لقد اختفى «الحوار» في العالم العربي، أو كاد، وانتقل التجريم السياسي «للآخر» المختلف والمعارض إلى الأوساط الثقافية . وزادت بشكل مخيف حواش التلفيق والتزوير والتشهير في الأوساط الثقافية . ونتيجة لهذا انحصر مفهوم «التسامح» في نطاق الحديث عن الجوانب الدينية، أما فكرة وجود «نحن» و«هم» على أساس من الاعتراف والتعاون المتبادل ، فلاتزال بمثابة الأمل الغائب على الصعيد السياسي والثقافي والاجتماعي في بلادنا العربية عامة.

فهل يمكن أن نتطلع إلى إقناع «الآخر» خارج حدودنا بأن «يتسامح» معنا على أساس فكرة الحوار والقبول بالآخر ، ونحن لاؤمن بهذه الفكرة ولانمارس الحوار والقبول بالآخر داخل بلادنا؟!!!



## (٢)

## في تاريخ عدم التسامح

تعود جنود «التسامح» الأوربي إلى نزعة «عدم التسامح» التي ميزت الحضارة الأوربية الكاثوليكية منذ بدايتها الأولى. ويتفق الباحثون والمؤرخون على أن حضارة أوروبا في الفترة التي تعرف باسم العصور الوسطى، والتي كانت أساساً لحضارة أوروبا وثقافتها الحديثة والمعاصرة، قد قامت على دعائم ثلاث أساسية، أولها التراث الكلاسيكي الذي احتوى على ما خلفته الحضارة الإغريقية القديمة والحضارة الرومانية. والدعامة الثانية هي المسيحية وما جاءت به من مفاهيم وأفكار، وما أنتجته من مؤسسات قامت أوروبا خلال تلك الفترة، وثالثة هذه الدعائم هي الغزوات الجرمانية التي جلبت قبائل وشعوب شبه جزيرة اسكنديناو في هجرات جماعية إلى كافة المناطق الأوربية لتختلط بشعوب أوروبا القديمة مكونة الشعوب الأوربية المعروفة الآن.

في تصوري أن ينور عدم التسامح تجاه «الآخر» المختلف ترجع إلى موقف الحضارة الكلاسيكية (بشقيها الإغريقي والروماني) من «الآخر» فقد استخدم الإغريق القماء كلمة «البرابرة» barbari ومفردتها barbar-us للدلالة على الأجنبي، أي بالتحديد للدلالة على من هو مختلف باعتباره أدنى في مستواه الحضاري من الرجل اليوناني. وقد ورث الرومان هذه

الكلمة عن الإغريق القدماء، بيد أنهم استخدموا كلمة «البرابرة» بمدلول الازدراء والتحقير للدلالة على الشعوب الأخرى، ومنهم الجرمان الذين وفدت قبائلهم لتعيش في مناطق الحدود الرومانية على امتداد نهر الراين ونهر الدانوب .

لقد اعتبر الإغريق والرومان «الأخر» من البرابرة طالما أنه يختلف عنهم في اللغة والعادات والتقاليد والشكل الجسدي، وفي نظرة استعملائية لا تحتمل اختلاف «الأخر» و«غيريته»، ولا تقبل به أيضاً ، وقد ظل أبناء كل البلاد التي خزاها الرومان وحوالوا إلى ولايات تتكون منها الإمبراطورية الرومانية في وضع اجتماعي/ سياسي أدنى من الرومان الذين احتكروا حقوق المواطنة حتى عصر الإمبراطور كاراكلا (٢١١-٢١٧م) الذي منح حقوق المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار في الإمبراطورية.

هذه النظرة التي بررتها مواد القانون الروماني الشهير، وساندتها الفرق العسكرية الرومانية، والاستعلاء الذي ميز الممارسات الرومانية، تسببت في أن الإمبراطورية الرومانية لم تكن سوى تجميع سطحي لمجموعات حضارية ومرقية ولغوية متباينة ، ولم تتمكن من إذابة هذه العناصر في بوتقة واحدة بسبب الموقف الروماني من «الأخر» . وعدم التسامح إزاء اختلافه و«غيريته» . وقد كان هذا السبب من أهم أسباب سقوط الإمبراطورية فيما بعد. وقد ورثت الثقافة الأوربية في العصور الوسطى ، والعصور التي تلتها ، هذه العنصرية «غير المتسامحة» إزاء الآخر. وقد أسهمت المسيحية الكاثوليكية ، التي رأت نفسها وريثة «الشعب الله المختار» في ترسيخ هذه النظرة. فكيف كان ذلك ؟

على الرغم من أن المسيحية نفسها في حقيقتها حياة محية وسلام، على نحو ما يتضح منصوص الأناجيل الأربعة المعتمدة، فإن النزعة العنصرية وفكرة شعب الله المختار التي شكلت الثقافة الأوربية المسيحية كانت سبباً قوياً من أسباب ترسيخ رؤية الذات الأوربية لنفسها باعتبارها الذات التي تملك الحقيقة وتتفرد بها !!

لقد أطلق المسيحيون الأوائل على أنفسهم في رقة الدين الجديد اسم إكليزيا (ecclesia) وهي الكلمة التي استخدمتها الترجمة السبعينية للكتاب المقدس). وتعني هذه الكلمة «شعب الله المختار من بني اسرائيل» (لأن اليهود رفضوا المسيح وأمن به عدد منهم، فصار المؤمنون هم الإكليسيا أي أنهم شعب الله المختار الجديد لأن اليهود فقدوا هذه الصفة برفضهم المسيح). ومن هذه الكلمة اشتقت كلمة «الكنيسة». وفيما بعد تم تفسير الكلمة على أنها تعني جميع المسيحيين في كل مكان؛ ولذلك فإن كلمة الكنيسة تحمل مستويين من المعنى؛ المستوى المادي (أي المبنى الذي يمارس فيه المسيحيون عبادتهم، والمستوى المعنوي الذي يشير إلى كافة المؤمنين بالمسيحية).

وقد بلورت الكنيسة الغربية موقفاً متعالياً على سائر الكنائس الأخرى انطلاقاً من هذا القدر من الوعي بالذات، وهدم الوعي بالآخر. فقد أضرت الكنيسة الكاثوليكية الغربية على أن تكون تعاليمها كاثوليكية، أي عالمية تتسم بالاتساق والتوافق في كل مكان. وقد أدى ذلك، بطبيعة الحال، إلى اعتبار الكنائس الأخرى، التي لا تفسر حسب التعاليم الكاثوليكية، كنائس هرطقية أي منشقة وخارجة عن صحيح الدين. هذا الموقف، بدوره،

أدى إلى خلافات مذهبية كثيرة من ناحية، وإلى ترميخ نزعَة العنصرية وعدم التسامح في الثقافة والممارسات الأوربية طوال العصور الوسطى من ناحية أخرى.

وربما كانت التطورات التاريخية التي مرت بها الكنيسة المسيحية صوباً ، والكنيسة الغربية الكاثوليكية بشكل خاص، وراء الطابع العنصري «غير المتسامح» الذي ميز مواقف البابوية والكنيسة الكاثوليكية طوال العصور الوسطى.

فعندما ظهرت المسيحية لم يعرفها الحكام الرومان اهتماماً كبيراً حتى القرن الثالث الميلادي، وقد بالغت الأساطير اللاحقة كثيراً في أعداد الشهداء المسيحيين ، إذ كان اضطهاد المسيحيين يجرى على نطاق محلي وقيل العنوت . وكانت الإمبراطورية الرومانية «متسامحة» ولم تعترف بالمسيحية بديانة مشروعة ، كما كان المسيحيون يضايقون الدولة حين يرفضون ممارسة طقوس عبادة الإمبراطور التي كانت «ديانة دولة» تتطلب أداء يمين الولاء للإمبراطور وإقامة الشعائر الإمبراطورية، وعلى الرغم من هذا لم يتدخل الأباطرة في الشؤون المسيحية إلا قليلاً .

ولكن هذا الموقف تغير بشكل جذري في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي، ذلك أن قدهور الأحوال الاقتصادية والسياسية في العالم الروماني أدى إلى موجات من أعمال العنف ضد المسيحيين في شتى أرجاء الإمبراطورية الرومانية المتقلبة بالمشكلات . وحين حاول الإمبراطور دقلديانوس ترميم الإمبراطورية وإجراء إصلاحات شاملة بها حرضه أعضاء بلاطه على الكنيسة باعتبارها دولة داخل الدولة بسبب تنظيمها

الجيد ومؤسساتها القوية . وعلى مدى عشر سنوات كانت تجرى محاولات منظمة لتنفيذ مراسيم الإمبراطور ثيودوسيوس للقضاء على الكنيسة المسيحية . وكان ولاية الولايات الشرقية في الإمبراطورية الرومانية ، لاسيما حكام مصر وبلاد الشام ، من أشد المتحمسين لتنفيذ الإجراءات العقابية ضد المسيحيين . وكان نصيب الأقباط في مصر كبيراً من هذه المعاناة ، إذ سقط منهم عدد كبير ضحايا أعمال القتل الجماعي كما لاقوا من العذاب صنوفاً وألواناً ، فقد كانت تقطع أيديهم وأرجلهم ويعلقون في جذوع النخيل حتى الموت ، كما كانوا يلقون إلى الأسود الجائعة وليس بيد أحد منهم سوى إبرة طويلة لقتال الأسود . وجرت عليهم كوارث ومصائب منها : مصادرة أموالهم وممتلكاتهم ومطاربتهم . وقد بلغت الاضطهادات الرومانية ضد المسيحيين في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس حداً جعل الكنيسة القبطية تبدأ تقويمها (أي حساب السنين والشهور القبطية المعروف الآن) ، والذي صرف باسم «تقويم الشهداء» في سنة بدء حكم الإمبراطور ثيودوسيوس ٣٨٤م . بيد أن كثيراً من حكام الولايات الرومانية الأخرى لم ينفذوا تعليمات الإمبراطور بنفس الدقة التي نفذها بها حكام ولايات مصر والشام على مصر والشام .

ومن ناحية أخرى ، كانت الجماعة المسيحية في الولايات الشرقية للإمبراطورية الرومانية كبيرة ، وربما وصلت إلى عشرين بالمائة من السكان في هذه الأقاليم التي كانت أرقى حضارياً وثقافياً ، وأكثر ثراء من الغرب الأوربي الذي كان ما يزال ريفياً في مجمله ، ولم تكن نسبة المسيحيين فيه تزيد عن ٥ إلى ١٠ بالمائة . بل إن روما ، العاصمة القليلة كانت ما تزال

هي معقل الوثنية، وربما كان هذا هو السبب في عدم التوافق المذهبي بين أوروبا والشرق على الرغم من أنهما آمنا بالديانة المسيحية ، وقد كشف الصراع المذهبي - فيما بعد - عن أن الموروث الثقافي لعب دوراً مهماً في فهم كل من الجانبين للعقيدة المسيحية.

وعلى المستوى السياسي اعتزل نيقديانوس عرش الإمبراطورية سنة ٢٠٦م لأسباب تتعلق بمفاهيم السيامية وإجراءاته الإدارية، واشتعلت حرب أهلية استمرت عدة سنوات . وفي تلك الأثناء بات كل الأطراف يدركون أنه من المستحيل اقتلاع المؤسسات المسيحية ، وأنه من الأفضل «التسامح» معها . وإذا لم تمتنع الإمبراطورية القضاء على الكنيسة، تعين عليها أن تتعايش معها، وفي سنة ٢١٢م أعلن إمبراطور الشرق والغرب مبدأ «حرية العقيدة» فيما عرف باسم «مرسوم ميلانو» . فقد طلب الإمبراطور قنسطنطين الكبير وشريكه ليكينيوس من حاكم الشرق، في خطاب مشترك ، أن يكف عن مطاردة المسيحيين ، وأن يعيد إليهم ممتلكاتهم المصادرة ... وما إلى ذلك .

وأياً كانت الأسباب التي جعلت قنسطنطين يتخذ هذا الموقف فالثابت أنه هو الذي جعل المسيحية تنتصر ثم تصبح الديانة الرسمية للإمبراطورية الرومانية في غضون عقود قليلة (سنة ٢٩٥م) في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير.

هذه التطورات أدت إلى نتائج أخرى غاية في الأهمية بالنسبة لموضوع الدراسة أي «التسامح» فقد عانى المسيحيون من «عدم التسامح» على نحو ما ذكرنا، ولكن هذه المعاناة لم تخلق تراثاً مشتركاً بين المسيحيين

الشرقيين والمسيحيين الأوربيين (الذين لم يكن أكثرهم قد دخل في الديانة الجديدة حتى تلك الحين) لأن وطأة الاضطهاد في الشرق كانت أعنف منها في الغرب، ولأن الموروث الثقافي لمناطق الحوض الشرقي للبحر المتوسط كان يختلف بالضرورة عن الموروث الثقافي للغرب الريفي الذي ظل على وثنيته حتى ذلك الحين تقريباً (فكلمة وثني مشتقة من كلمة ريفي - Paganus). وحين صارت المسيحية ديانة كل الأوربيين لم يكن المسيحيون الجدد قد شاركوا المسيحيين القدامى تراث الاضطهاد . ومن ناحية أخرى ، فإن توقف الثالوث المقدس (الأب والابن والروح القدس) ، وطبيعة المسيح الذي يعتقد المسيحيون أنه «إله» تجسد بشراً بإرادته، ورضى لنفسه بالصليب لكي يخلص البشر من ذنوبهم وأثامهم . وبدأت الآراء المختلفة حول هذا الموضوع تثير المنازعات الدينية التي باتت تهدد بتعزيق وحدة الكنيسة . إذ لم تكن هناك سلطة كنسية طيا يمكنها أن تحدد صلاح العقيدة حتى ذلك الحين . وكان كل أسقف يقرر هذه المسائل بالشكل الذي يتوافق مع مصلحة أسقفية . وقد أدى هذا الموقف إلى ظهور الحاجة إلى مجلس كبير يضم كل أساقفة الإمبراطورية لمناقشة هذه الأمور ووضع ما يناسبها من حلول . وكان مجمع نيقية الذي تم عقده سنة ٣٢٥م أول المجامع الكنسية العامة برئاسة الإمبراطور ، وقد نجح بشكل مؤقت في فرض معادلة منهجية، حول طبيعة المسيح والعلاقة بين أطراف الثالوث المقدس تخضع لها كل الفرق الدينية المذهبية .

وكان اشتراك الغرب الأوربي في هذه المناقشات محدوداً ومحكوماً بحقائق التاريخ الأوربي آنذاك . فقد كان الغرب آمياً وجاهلاً إلى حد بعيد

بعد أن قضت الكنيسة على بقايا العلم الكلاسيكي في غرب أوروبا . وبدأ الأمر في نظر أبناء الغرب الأوربي المسيحيين كما لو أن المسيحيين الشرقيين كانوا يحاولون أن يحدثوا شيئاً لا يمكن تحديده ، أي ثالث الأب والابن والروح القدس . وبدلاً من هذا ركز المسيحيون الغربيون اهتمامهم على المشكلات العقلية، مثل زعامة المجتمع وإدارة الكنيسة ، ودور البابوية في العلاقة بين الرب والإنسان .

وبينما كانت الإمبراطورية الرومانية في الغرب تتدهور في القرن الخامس الميلادي، بدأ اهتمام الناس في الغرب الأوربي يتحول بالتدريج صوب المؤسسة الوحيدة التي كان يمكنها أن توفر لهم قدرًا من الوحدة وتتولى القيادة في الشؤون الدينية وفي مجال التعليم، أي كنيسة روما حيث كان أسقفها يملأ الفراغ السياسي الناجم عن سقوط السلطة الإمبراطورية في الغرب سنة ٤٧٦م. ثم تحول لقب أسقف روما إلى البابا في أوائل العصور الوسطى. وكان البابا ليو الكبير (٤٤٠-٤٦١م) هو صاحب النظرية التي قامت عليها البابوية في العصور الوسطى، وتقوم هذه النظرية على ما يسمى «المذهب البطريركي» نسبة إلى بطرس الذي ينسب الكاثوليك إليه تأسيس كنيسة روما، ويقوم المذهب البطريركي على أساس التفخيم الكاثوليكي للكلمات المنسوبة إلى المسيح هو يخاطب حواريه حسبما وردت في إنجيل متى (١٦ : ١٥-١٩) :

«قال لهم، وأنتم من تقولون إني أنا ، فلجواب سمعان بطرس وقال أنت هو المسيح، ابن الله الحي، فلجواب يسوع وقال له : طوبى لك يا سمعان بن يونا ، إن لحمًا ودمًا لم يعط لك لكن أبى الذي في السموات، وأنا أقول



لك أيضا أنت بطرس، وعلى هذه الصخرة أبني كنيسةي، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها، وأصطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماء ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماء».

وتختلف تفسيرات هذا النص بين المذاهب المسيحية اختلافاً كبيراً، لكن المذهب البطرسي ، الذي قامت عليه النظرية البابوية في أوروبا الكاثوليكية، يزعم أن المسيح كان يقصد أن يكون بطرس، ومن يظفه على كرسي أسقفية روما، رئيساً للكنيسة بأسرها ، أي لكل المسيحيين، وهكذا يكون أسقف روما هو الوحيد الذي يمتلك مفاتيح ملكوت السموات والأرض ، وهو وحده نائب المسيح على الأرض. وهو ما يؤدي بالضرورة إلى رفض كل المذاهب الأخرى ، وإدانة كافة الكنائس التي لا تنصاع لهذه الزعامة القسرية . وطالما أن كنيسة روما تتحدث باسم الرب، وطالما أن أسقفها (أي البابا) هو نائب المسيح على الأرض، فإن الحقيقة والحق معه. وكل من لا يدين له بالطاعة مهربق ، أي منشق وخارج على صريح الإيمان!

ولا يمكن لحمل هذه النظرية أن تفسح مجالاً للتسامح . وكان «عدم التسامح» هو الذي ميز سياسة الكنيسة الكاثوليكية وتصرفاتها طوال فترة العصور الوسطى. وإذا وجدت الكنيسة الغربية في المذهب البطرسي والنظرية البابوية المحل الأعلى الذي يحقرها إلى أن تحل محل الإمبراطورية التي سقطت في الغرب فإن البابوية صارت إلهي الفراع السياسي، وصارت هي المؤسسة التي تركزت حولها الحضارة الغربية . وكانت روح الاستعلاء والعنصرية من أهم أسباب روح «عدم التسامح» والاعتراف

بالأخر التي ميزت أوروبا طوال العصور الوسطى. وقد أكدت ظروف أوروبا التاريخية هذه الزعامة الكنسية، إذ لم يكن ممكناً أن تأتي القيادات التي كان المجتمع الغربي، بما اتسم به من القوضى والاضطراب في القرن السادس، في أشد الحاجة إليها إلا من داخل الكنيسة. فقد كانت الكنيسة الكاثوليكية هي التي تضم جميع الرجال المتعلمين في أوروبا آنذاك، كما كانت هي أقوى مؤسسات العصر. ويرى كثير من المؤرخين أن الفضل في بقاء الكنيسة الكاثوليكية، والعضارة الغربية، إنما يرجع إلى الرهبان والبابوية، فمعهما خرجت قيادات المجتمع الأوربي التي تولت أمور التعليم والتنظيم والتطور الاجتماعي، ومعهما خرجت القيادات الإدارية والسياسية التي عملت في بلاط الملوك وفي البلاط البابوي على حد سواء.

ولا يمكن أن نتوقع، كما أنه لا يجب أن نتوقع، أن يبدى أولئك الرهبان أي قدر من «التسامح» إزاء من يختلف معهم في الرأي والرؤية، فما بالنا بموقفهم من «الأخر» الذي يختلف دينياً، أو عرقياً، أو ينتمي لمنطقة ثقافية أخرى ١١٩

لقد تمثلت نتيجة هذا في عدة صراعات خاضتها البابوية والكنيسة الكاثوليكية ضد الآخر، سواء خارج نطاق أوروبا الكاثوليكية أو داخلها؛ وكان أول نزاع من هذا النوع هو النزاع الذي خاضته ضد الإمبراطورية البيزنطية بسبب مشكلة الأيقونات، فقد حرم الإمبراطور البيزنطي «ليو الأيسوري» (٧١٧-٧٤٧م) استخدام الصور وغيرها من المواد الفنية (التي تعرف بالأيقونات) باعتبارها مظاهر وثنية وعبادة أصنام في الكنائس.

واستمر الصراع حول هذه المسألة قرابة قرنين من الزمان. وقد رفض البابا الروماني قبول هذا الأمر، باعتباره صاحب الحق الأبعد في هذه المسائل .

وفي القرن العاشر كان التداخل بين الكنيسة ecclesia والعالم mun-dus قد بلغ مداه، ولكن التمايز بينهما كان يدفع الأمور صوب نزاع آخر أشد حشوة . ف منذ القرن التاسع كان هناك اتجاه متصاعد لدى الكتاب الكنسيين لاعتبار الكنيسة مؤسسة تحقّض العالم، وفي القرن الحادي عشر باتت هذه النظرية هي القاسم المشترك في كتابات رجال الكنيسة، ومن ثم كانوا يرون أن الممالك والإمبراطوريات ليست كيانات خارج عن نطاق الكنيسة الكاثوليكية ، وإنما هي داخل في حدودها العالمية. هذه النظرية القاطنة باستيعاب المملكة النسيوية داخل المملكة الروحية كانت استلزاماً للعلاقة القائمة بين الكنيسة والدولة في القرن العاشر والتصف الأول من القرن الحادي عشر فعلا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت تأكيداً على روح الاستعلاء وعدم التسامح التي حكمت ثقافة أوربا طوال تلك العصور.

وقد أدى هذا الموقف إلى اندلاع المواجهة التي استمرت طويلاً بين الكنيسة والدولة في أوربا ، ففي سنة ١٠٧٥م كان الإمبراطور الألماني هو أقوى حاكم في أوربا، ومع هذا فإن البابا هريجوري السابع - الذي عرف باسم «الشيطان المقدس» - لم يتورع عن الصدام معه حول مسألة «السعر البايوي» ، أي أن البابا هو الذي يسمو فوق جميع الحكام. وعرف

هذا النزاع الذي استمر حوالي خمسين سنة هدد المؤرخين باسم «النزاع على التقليد العلماني». ومهما كانت نتائج هذا الصراع ، فإنه كان تعبيراً ساخناً عن روح «عدم التسامح» تجاه «الآخر» ومحاولة سحقه . ويبدو أن الحرب الطويلة والمتنازعات الشرعبة بين الكنيسة والدولة قد خلقت نوعاً من الكراهية ضد الآخر ، كما أنها أثارت الفرصة لظهور تيارات ثقافية جديدة حققت قدراً هائلاً من التقدم في الفلسفة والقانون والأدب والفن في كل من فرنسا وإيطاليا ، وكان على الكنيسة أن تواجه هذا التحدي الجديد.

وكانت الحروب الصليبية ، التي دعت إليها الكنيسة وقادتها في أخرى القرن الحادي عشر، أكبر تعبير عن كراهية «الآخر» وعدم التسامح» إزاءه ، في تاريخ الحضارة الغربية الكاثوليكية (مثلما كانت حركة الاستعمار القديم، والجديد، تعبيراً عن الروح نفسها في العصور الحديثة وفي أيامنا هذه ). فقد كانت الحروب الصليبية مشروعاً كنسياً وياثرياً على الرغم من الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الكبرى التي أدت إلى شغل هذه الحروب ، إذ كانت البابوية ترى في الحملة الصليبية أداة لتوحيد العالم المسيحي تحت راية الكنيسة الكاثوليكية ، وأنها ستزيد من هيبة البابوية والكنيسة في مواجهة الإمبراطورية، فضلاً عن أن الحملة الصليبية يمكن أن تنهى تلك الانشقاق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية لصالح الأخيرة. ولكن «الحملة الصليبية» كانت أولاً وأخيراً أهم الأسلحة في ترسانة «عدم التسامح» البابوية، إذ لم يقتصر استخدام هذا السلاح ضد المسلمين ، وإنما استخدم ضد الكاثوليك ، وضد غيرهم من المسيحيين الرافضين لسيطرة الكنيسة في أوروبا .

وقد أشرنا في القسم الأول من هذا الكتاب إلى أن الحروب الصليبية كانت نتاجاً للهياج الهيستيري ضد الآخر الخارجي ، كما أنها استخدمت ضد الآخر الداخلي بقدر كبير من الضراوة والوحشية مثلما ظهر في الصليبية الألبيجنسية وغيرها .

لقد أدت قيادة الكنيسة الكاثوليكية لأوروبا إلى احتكار التطعيم والفكر حتى القرن الثاني عشر على أقل تقدير، كما أدت إلى سيادة المفاهيم الضيقة التي أنكرت حق الاختلاف، وحاربت كل ما لم يكن متسقاً مع كلمات الكتاب المقدس ، أو تفسيراته الضيقة التي قال بها رجال الكنيسة . ومن ناحية أخرى ، أدى تسلط البابوية وعدم تسامحها إلى قتل القوى الاجتماعية في أوروبا من سيطرة الكنيسة. وظهرت أنماط من «التدين الشعبي» الرافض لسلطة الكنيسة ورجالها ، وتجلى ذلك في فرقة معاداة رجال الدين التي لم تلبث أن تحولت إلى تيار معاد للكنيسة نفسها، وبعد نهاية القرن العاشر عشر كان الاتجاه المتصاعد في المجتمع الأوربي هو الاستغناء عن الخدمات التعليمية والسياسية، بل والدينية ، التي كان الرهبان يقدمونها للمجتمع. ومن ناحية أخرى، كان العداء ضد رجال الكنيسة الكاثوليكية ومعاداة السلطة الكنسية يهددان مركز الكنيسة التقليدي في المجتمع الأوربي في العصور الوسطى خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، مما أجبر الكنيسة على خوض صراع يائس في القرن الثالث عشر لاستعادة زعامتها. ومع كل عقد كان يمضي من القرن الثاني عشر، كان التقديس ينال بضراوة على ممارسات الكنيسة. وفي أواخر

هذا القرن شاع بين الشعراء وطلبة الجامعات الناشئة ، وكتاب البلاط الملكي، تأليف الهجائيات التي تدين رجال الكنيسة الكاثوليكية بالطمع والفساد ، أما قصص بوكاشيو Boccaccio (١٢١٢ - ١٢٧٥م)، التي ذاعت في القرن الرابع عشر ، فقد صورت القسيس في صورة الرجل العبيط، الجاهل، الشهواني، الخليع.

كذلك، وقفت البورجوازية الناشئة في أوروبا موقفًا عدائيًا من الكنيسة؛ فقد كان التاجر ، أو الحرفي في القرن الثاني عشر، يشعر بمهنته أو حرفته شعورًا قويًا بالضرورة . فقد كان يعرف أن عليه أن يجتهد لتحقيق ما يجنبه الفقر والتعاسة ، وهو الأمر الذي كان يجعله يشعر بالفيرة إزاء النبلاء ورجال الكنيسة الذين لم يكونوا مضطرين إلى الاعتماد على جهودهم الذاتية ويعيشون على جهد الفلاحين في إقطاعاتهم، لقد كان هذا البورجوازي في العصور الوسطى لايعرف «التسامح» مشافهيًا ، كما كان يعيل إلى الحكم على الآخرين بمقاييس حياته هو. وكان من رأيه أنه يجبل على رجل الكنيسة أن يعمل من أجل كسب عيشه، وأنه لايجب أن يتمتع القسيس بسلطة المنصب الكنسي وامتيازاته ما لم يكن جديرًا حقًا بهذا المنصب من حيث صفاته الأخلاقية وسلوكه تجاه المجتمع. وكان هذا من أسباب سحق البورجوازية على الكنيسة.

وكانت غلطة اليايوية في القرن الثاني عشر أنها لم تكيف نفسها بالسرعة والحيوية اللازمة مع النتائج بعيدة المدى التي أفرزها التغير الاجتماعي. بل إنها ظلت متمسكة بموقف عدم التسامح على نحو ما ظهر

منها تجاه حركة بيتية ظهرت في جنوب شرق فرنسا وهي الحركة المعروفة باسم الألبيجسية فقد نعت البابوية إلى شن حملة صليبية ضد هذه الحركة أدت في النهاية إلى تدمير الجنوب الفرنسي. بسبب الوحشية والضرارة التي تصرف بها الصليبيون في هذا الإقليم الذي كان مزدهرا وراقياً .

لقد تولت الكنيسة الكاثوليكية زمام الأمور في أوروبا الغربية منذ القرن الرابع حتى القرن الخامس عشر، وعصر النهضة الأوربية على أقل تقدير ، إذ تعين على أحاققة روما أن يملأوا الفراغ السياسي الناجم عن انهيار السلطة الننيوية بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية في روما سنة ٤٧٦م. وعلى الرغم من قيام عدة معالك جرمانية على بقاع شتى في أوروبا الغربية ، فإن البابوية ظلت تعارس حق تنصيب الملوك ومسحهم بالزيت المقدس، كما ظل البابوات، على الرغم من فسادهم ، يزعمون أنهم نواب الرب على الأرض. وقد استمر هذا الوضع حتى انفجر الصراع السياسي على زعامة أوروبا بين البابا جريجوري السابع والإمبراطور هنري الرابع ، على نحو ما أشرنا في الصفحات السابقة.

ونخلص من هذا العرض الذي اهتم بالخطوط العريضة للتطورات التاريخية التي جرت على الصعيد الاجتماعي والثقافي إلى أن «عدم التسامح» كان هو الموقف الذي ميز الصراع بين الكنيسة والدولة في أوروبا العصور الوسطى. وكان سلاح «الحرمان البابوي» الذي استخدمه البابا جريجوري السابع يتجاح في صراع على السيادة ضد هنري الرابع هو أقوى الأسلحة في الترسانة البابوية . وقد رفضت الكنيسة ، باستعلاء

واضح وبخلفية ملموسة، أى اختلاف معها سواء على المستوى السياسى أو الفكرى. وقد أدى هذا الموقف - بطبيعة الحال - إلى ردود فعل معاكسة على الجانب الآخر ، فانتشرت المذاهب المعادية لسلطة رجال الكنيسة والتي تحولت بسرعة إلى معاداة للكنيسة نفسها حسبما أشرنا من قبل، وانتشرت موجات التدين الشعبى الترقى الذى يهتم بالمظهر دون أن يهتم بجوهر الأمور، وصار التعصب ورفض «الآخر» أربيع الحياة فى المجتمعات الأوربية.

ومن ناحية أخرى ، شهدت أوروبا منذ القرن الثانى عشر فصاعداً، نوعاً من القلق الفكرى والثقافى نجم عن اكتشاف الأوربيين أنهم يعيشون فى منطقة متخلفة قياساً إلى الدولة البيزنطية التى كانت هى القوة المسيحية الكبرى فى شرق أوروبا، وقياساً إلى المسلمين الذين كانوا هم الجار المتقدم، القوى المخيف لأوروبا . وقد كان احتكاك أوروبا بأولئك وهؤلاء عن طريق التجارة ، والحروب الصليبية ، والتفاعل الثقافى، وبدأت تتسرب إلى أوروبا موجات من الفكر الأرسطى عبر الترجمات العربية والشروح والتعليقات والإضافات التى وضعها الفلاسفة المسلمون وعلى رأسهم ابن رشد . وتميزت الثقافة الأوربية منذ القرن الثانى عشر بالتفاؤل والإقدام الذى تجلى فى محاولة حل المشكلات التى يواجهها المجتمع الأوروبى على أسس عقلانية، كذلك خرج التعليم والفكر الراقى فى أوروبا عن نطاق الاهتمام الضيق باللاهوت والآداب إلى رعاية الاهتمام بتحسين البنيان الاجتماعى والسياسى آنذاك.



ويحاول سنة ١٢٠٠م كانت زعامة الكنيسة الكاثوليكية للمجتمع الغربي في مجالات التعليم والتدين والسلطة، تتعرض للتحدي من جانب قوى كثيرة في المجتمع الأوربي؛ وهي المجالات التي قمت وتقدمت فيها التيارات المناهضة للكنيسة خلال القرن الثاني عشر نفسه، وتمثل هذا التحدي للزعامة الكنسية في مجالات الفلسفة والعلم الأرسطي أكثر من غيره بيد أن الكنيسة لم تقف ساكنة إزاء هذا التحدي، كما أنها لم تحاول أن تتفهم مواقف القوى المناهضة لها إزاء الوضع الجديد في أوروبا وظلت سادسة في موقفها القائم على «عدم التسامح».

وتمثلت النتيجة في مزيد من التدهور في السلطة الكنسية، فقد بدأ تطوير مؤسسات وسلطات جديدة كانت تمثل تحدياً قوياً لسلطة الكنيسة الكاثوليكية، ومع نهاية السنوات العشر الأولى من القرن الخامس عشر الميلادي كانت سلطة الكنيسة قد انحصرت تماماً في كل من إنجلترا وفرنسا بحيث وقفت البابوية عاجزة عن فعل أي شيء إزاء هذه التطورات، وأخفقت في وقفها . كما أن الفضائح والإخفاقات التي حاقت بالقيادة الكنسية في ذلك الحين، خلقت الفرصة لوجة جارفة من موجات العداة لرجال الكنيسة الكاثوليكية سرعان ما تحولت إلى حركة لمعاداة سلطة الكنيسة مثلما حدث في القرن الثاني عشر قبل قرنين من الزمان ، بيد أن الانشقاق على الكنيسة (الهرطقة) في القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر وجد أقدر من يدافع عنه من أفضل المفكرين في الجامعات الأوروبية.

وتفكك عالم العصور الوسطى في أوروبا بسبب «عدم التسامح» الذي

رسته البابوية والكتيعة الكاثوليكية إزاء «الآخر» ، وتم تشجيع الفردية الدينية بفضل ذلك المذهب الخطير القائل بأن السلطة الدينية ينبغي أن تكون داخل الضمير القوي لكل إنسان . وكان هذا في الواقع هدمًا للكنيسة الكاثوليكية من ناحية، وتمهيداً لظهور البروتستانت من ناحية أخرى، وكان جون ويكلف (١٣٢٠-١٣٨٤م) الذي كان أستاذًا بارزًا من أساتذة اللاهوت في أوكسفورد من أهم من روجوا لهذه الفكرة . وقد كانت أفكار ويكلف هي الأفكار التي طرحها مارتين لوتر في القرن السادس عشر. وقد قامت ثورة الإصلاح الديني في القرن السادس عشر لتنتهي احتكار رجال الدين الكاوليك للزمامة الدينية، مثلما أنهت الدولة زعامتهم السياسية، وأنهت الجامعات زعامتهم الفكرية.

وعند بداية القرن السادس عشر كان هناك شعور واسع النطاق بأن النظام الاجتماعي يتطلب خضوع كافة الطبقات والطوائف ، والهيئات لسيادة القانون المطلقة. ومن ناحية أخرى سادت قيم جديدة ذات طبيعة دنيوية في الأوساط الاجتماعية، فقد كان الفرد يقوم بواجباته الدينية دون أن يرتبط ذلك بالمؤسسة الدينية وكان معيار انتساب المرء إلى الصفوة هو تعليمه وسلوكه وأسلوبه . وكان ظهور هذه الأخلاقيات الدنيوية مؤشراً على تدهور الزمامة البابوية ، وكان هذا يعني في التحليل الأخير «ذبول» موقف «عدم التسامح» الذي ميز العصور الوسطى، وصار «التسامح» آلية اجتماعية / ثقافية ضرورية لبقاء المجتمعات الأوروبية وتطورها منذ عصر النهضة.

## ( ٤ )

## النموذج المصرى

هناك أدلة عديدة تشير إلى أن مصر، بسبب ظروفها الجغرافية وطبيعة التطورات التاريخية التى جرت عليها، كانت أرضاً للتسامح . والتسامح هنا بمعنى قبول «الأخر» على الأرض المصرية واستيعابه داخل النسيج الاجتماعى والثقافى المصرى المتجانس . إذ إن هؤلاء الزراع الذين شادوا حضارة من أقدم حضارات الإنسان ، قد أدركوا أن التعاون والاعتماد المتبادل هو الصيغة المثلى للحياة فى مجتمع ينشد لنفسه ، مكاناً متميزاً بين المجتمعات الإنسانية ؛ فد قروض نهر النيل مصدر الحياة الأساسى فى مصر، نوعاً من ضبط الناس فى صيغة تعاونية تتطلبها الحياة فى الشطر المصرى من وادى النيل الذى كانت الزراعة قوامها وأساسها . وتتسم الطبيعة المصرية بقصر كبير من الاتساق والوحدة تركت تأثيراتها الواضحة على كل من سكن هذا البلد . طوال عصوره التاريخية.

فالحياة المصرية تقوم ، بالضرورة ، على التناغم والانسجام والتوافق بين سكان وادى النيل الذى يشبه فى شطره المصرى، من أسوان إلى سواحل البحر المتوسط ، شارعاً معتداً تتوفر فيه أسباب الحياة من خلال نهر النيل الذى يشق هذا الشارع المتخيل بطوله من الجنوب إلى الشمال ،

ولم يكن ممكناً أن يتفصل سكان جزء من هذا الشارع المتخيل عن بقية سكانه. ومن هنا جاءت المركزية السياسية التي تجسدت في أقدام حكومة في العالم، وانعكست على المجتمع في نوع من الوحدة الاجتماعية والثقافية لتجد لها مثيلاً في أي بقعة أخرى من كوكب الأرض، وبهذا كان قبول «الأخر» أول درس حضاري تعلمه المصريون. وقد أدى هذا، من ناحية أخرى، إلى أن يذوب كل القادمين إلى مصر في هذا المجتمع ويصيروا جزءاً من الكل المصري بعد جيل أو جيلين.

ولم تستطع القوى الخارجية التي لحقت بمصر عبر عصور تاريخها الطويل أن تفعل شيئاً أكثر من السيطرة السطحية على البلاد، ولم تتمكن من اختراق النسيج الاجتماعي والثقافي المصري. فالهكسوس، ثم البطالة والرومان، ظلوا يعيشون بعيداً عن الحياة المصرية بمستوياتها المختلفة، بيد أن كل من جاء إلى مصر مهاجراً أو مقيماً لقي هذا النوع من «التسامح» الذي اشتهر به المصريون تجاه الآخر. ومن ناحية أخرى استوعبت الثقافة المصرية كل العناصر الثقافية المصالحة الواحدة إليها من المنطقة العربية، أو من أفريقيا، أو من عالم البحر المتوسط في الشمال، ومزجتها في بوتقة الثقافة المصرية وتيارها العام.

وبعد الفتح الإسلامي لمصر في القرن السابع الميلادي، تجلى هذا التسامح بصورة واضحة وبشكل مطرد، إذ كان المصريون يعانون بشدة من جراء الاضطهادات للمذهبية التي مارستها عليهم السلطات البيزنطية. ومن الثابت تاريخياً، أن الفاتحين لم يتعرضوا لأهل مصر، الذين كانت

غالبيتهم من المسيحيين ، وكانت بينهم أقلية يهودية بشى من القيود على حرياتهم الدينية، ولما عرف «بنيامين» بطريك الأقباط آنذاك يقوم المسلمين استيئسهم بزوال الحكم البيزنطى وطلب من الأقباط أن يساعدوا المسلمين. وبالفعل أسهم الأقباط فى بناء الجسور والطرق وإقامة الأسواق لجيش الفتح الإسلامى، بل إن بعضهم أسهم فى عمليات القتال ضد البيزنطيين لاسيما فى المعارك النهرية التى جرت فوق مياه نهر النيل. وبعد الانتصار النهائى للمسلمين استقدم «عمر بن العاص» الأنبا بنيامين وأمنه ، فأخذ هذا البطريرك، الذى قضى الشطر الأكبر من حياته هارباً من اضطهاد البيزنطيين، يعيد بناء الأديرة والكنائس التى هدمها البيزنطيون ، أو كانوا قد هادسوها لحساب أتباع منذهبهم .

على الجانب الآخر بدأ المصريون يتجهون تدريجياً نحو الإسلام واللغة العربية . وقد تم تعريب مصر بصورة أسرع من انتشار الإسلام بها . إذ إن المسلمين لم يصيروا أغلبية فى مصر سوى بعد منتصف القرن الثالث للهجرة/ التاسع الميلادى ، ولكن اللغة العربية صارت لغة الإدارة والثقافة والحياة اليومية، بالنسبة لغالبية المصريين فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى لأسباب كثيرة ؛ أهمها أن اللغة المصرية واللغة العربية لم تكونا فى حقيقة الأمر سوى لهجتين فى شجرة اللغات السامية / الحامية تطورنا مع الزمن لتصبح كل منهما لغة مستقلة (وينبغى أن نتذكر هنا أن اللغة العربية الحالية ، التى نزل بها القرآن كريم هى فى الأصل لهجة قریش إحدى اللهجات العربية) . ويعتبر القرن الثالث الهجرى / التاسع

الميلادى أهم القرون فى تاريخ الثقافة المصرية العربية بوجه خاص ، فقد شهد هذا القرن اكتمال التفاعلات بين الموروثات الثقافية للبلاد التى دخلت تحت راية الإسلام ، وما جاء به الدين الإسلامى واللغة العربية. وفى داخل الإطار العام للثقافة العربية الإسلامية وجدت ثقافات محلية متنافسة فى مصر وبلاد الشام والعراق وبلاد المغرب العربى، وبلاد المشرق الإسلامى، وفى الأندلس وشرق أسيا . وقامت فى كل من هذه البلدان مراكز علمية وثقافية متنافسة ومتعاونة فيما بينها. وكانت حركة الترجمة المنظمة ، وألتي أشرفت عليها الدولة، قد أتت أكلها وبدأ الإسهام العربى الإسلامى الخالص فى تاريخ العلوم رحلته المعروفة.

كانت أهم سمات هذه المرحلة فى تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، أنها قبلت «الأخر» على أساس حقه فى الوجود والتعبير الفكرى والإسهام الثقافى والإفادة من إنجازات هذا «الأخر» . ولم تكن حركة الترجمة لنقل علوم القدماء من الهند والصينيين والفرس والسوريان والمصريين واليونان والرومان سوى نوع من «التسامح» الذى يقبل «الأخر» . وكان هذا الموقف مناقضاً تماماً لما حدث بعد انتصار المسيحية فى أوروبا حينما خاضم «آباء الكنيسة» التراث الكلاسيكى باعتباره «تراثاً وثنيّاً» . وتمثلت نتيجة هذا الموقف «التسامح» فى نمو الحضارة العربية الإسلامية وازدهارها، ولعبت أسماء كثير من اليهود والمسيحيين الذين كرسوا مواهبهم وعبقريتهم فى خدمة الحضارة التى لم تتبنهم وتبيرا منهم. لقد تعاملت الجماعة العربية المسلمة مع «الأخر» المختلف بيتياً على أنه جزء

من «الذات الثقافية» ، ولم يكن اليهود والنصارى وغيرهم ممن عاشوا في رحاب «دار الإسلام» يعتبرون «هم» سوى من التاحية الدينية، ولكنهم كانوا «نحن» من حيث انتمائهم إلى الحضارة العربية الإسلامية .

ومن المهم أن نشير إلى أن هذا الموقف لم يكن موقفًا مبنياً على فكرة «التسامح» إذ لم يكن ثمة خطأ ينسب إلى هؤلاء الذين يختلفون دينياً عن المسلمين، وإنما كان هذا موقفًا قائماً على أساس من الحقوق والواجبات التي حددها الفقهاء المسلمون في إطار ما عرف في الشريعة الإسلامية بعقد الزمة، وهو موضوع يخرج عن نطاق اهتمام هذه الدراسة إلى حد ما.

ولم تكن مصر استثناء في ذلك بطبيعة الحال، إذ إن المجتمع المصري ظل على تجانسه على الرغم من أن بعض المصريين كانوا يعتقدون ديانة تختلف عن ديانة البعض الآخر. ومن الناحية الاجتماعية تركت المسائل الداخلية في أوساط اليهود والمسيحيين للرؤساء القانونيين لكل منهما حسب ظروف كل من هاتين الجماعتين وفيما هذا ذلك أسهم المسيحيون واليهود، بقدر أو بآخر في المجرى العام للحياة الاجتماعية في البلاد، وعلى الرغم من أن السلطات الحاكمة سمحت للأقباط باستخدام لغتهم القبطية لأول مرة في الوثائق القانونية، وهو ما لم تصمح به الحكومة البيزنطية، كما تدل الشواهد سوى في أواخر العصر البيزنطي وفي نطاق ضيق للغاية هو القانون الخاص فقط. ولاشك في أن تعريب الإدارة الحكومية في مصر، منذ أواخر القرن الأول للهجرة ، قد نفعت الكثيرين من المسيحيين

المصريين واليهود إلى تعلم اللغة العربية حتى يمكنهم الاحتفاظ بوظائفهم-  
تقول إنه على الرغم من هذا، فإن الأقباط تخلوا عن لغتهم منذ أواخر  
القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي).

فمنذ ذلك التاريخ بدأت تظهر مؤلفات كتبها المسيحيون المصريون باللغة  
العربية في الموضوعات الدينية وفي التاريخ... وما إلى ذلك. فقد كتب  
«سميد بن البطريق» كتابه المعروف في التاريخ باللغة العربية، وهو من  
أقدم كتب التاريخ التي كتبها مؤرخون مسيحيون، كما أنه ألف عدة كتب  
للرد على أتباع المذهب النسطوري المسيحي، والرد على الأقباط اليعاقبة  
(أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة). كذلك كتب معاصره «ساويرس بن  
المقطع»، أسقف الأشمونين، تاريخه المعروف بعنوان «سير البيعة المقدسة»  
أو «سير الآباء البطارقة» باللغة العربية. ولهذا الرجل عدة مؤلفات أخرى  
باللغة العربية منها كتب في الرد على سميد بن البطريق دفاعاً عن مذهب  
الأقباط ومؤلفات دينية أخرى فضلاً عن مؤلفاته التاريخية، أما اليهود، فقد  
استخدموا اللغة العربية في حياتهم اليومية وفي معظم إنتاجهم الأدبي، بل  
إنهم استخدموا اللغة العربية في شروح التوراة والتعليق على التلمود.  
وظلت العبرية قاصرة على التراث الديني اليهودي فقط.

ومن ناحية أخرى، حظيت الأقليات الدينية في مصر آنذاك بضمنان  
حرية العقيدة بجانب حرية العمل وكسب العيش وتأمين الأرواح والأغراض  
والممتلكات. وتمثلت نتيجة ذلك في أن العلاقات الاجتماعية بينهم وبين  
المسلمين قد اتسمت بالود والتسامح. وبرزت من بين اليهود والمسيحيين



المصريين أسماء أفراد تميزوا في بعض المهن ذات المكانة الاجتماعية الراقية، مثل الطب والإدارة والمالية. .. وغيرها . وقد ظل المسيحيون واليهود المصريون يواصلون حياتهم داخل المجتمع المصري باعتبارهم جزءاً من الكل المصري. وكان المسلمون يشاركونهم الاحتفال بأعيادهم التي اكتسب بعضها طابعاً مصرياً عاماً، كما تركت تأثيراتها على عادات المصريين وتقاليدهم ، مثل عيد الغطاس المسيحي وقد عرف العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٤ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م) في أوساط المؤرخين عمومًا بأنه العصر الذهبي لليهود والمسيحيين المصريين. وقد وصل بعضهم إلى أرقى المناصب المالية والإدارية في الدولة، ولعل أشهرهم قاطبة هو اليهودي يعقوب بن كلس ، الذي أعلن إسلامه في أيام كافور الإخشيدي، ثم كان أعلى سلطة إدارية ومالية في مصر تحت حكم الخليفة المعز لدين الله الفاطمي ، وصار أول وزير للدولة الفاطمية في مصر في عهد الخليفة العزيز بالله ، ولم يكن هذا الرجل استثناء في ذلك ، فقد برزت أسماء «ملثا اليهودي» ، و«ابن نسطورس المسمي» ، و«الأفرم» المسيحي الذي استخدمه الخافظ لدين الله أميراً للنواوين .

وعلى المستوى الاجتماعي مارس اليهود والنصارى المصريون حياتهم الاجتماعية داخل السياق الاجتماعي المصري بفضل روح «التسامح» المصرية. فقد استمرت احتفالاتهم بأعيادهم ومواسمهم وشاركهم سائر المصريين الاحتفال بعيد الغطاس، وخميس العهد (التي كان المصريون يطلقون عليه اسم خميس العدن)، وعيد النيروز الذي كان احتفالاً مصرياً قديماً بموسم الربيع واستمر طوال تلك العصور.

وربما يكون مفيداً أن تقتبس كلام المؤرخ ابن إياس في وصفه للاحتفالات بعيد القطاس الذي كان يشارك فيه المسيحيون والمسلمون على السواء، إذ كانت الخيام تقام على ضفتي نهر النيل ، وتكتسي صفحة النهر بالعديد من الزوارق والمراكب التي تتلألأ بالمشاعل والألوان ليلاً... وكان يشعل على الشطوط في تلك الليلة أكثر من ألف مشعل وفانوس... ولا يخلق في تلك الليلة بكان، ولا عرب، ولا سوقي... ويتبادل المسلمون والمسيحيون الهدايا من أصناف الطعام والحلوى.

ولم يشهد العصر الأيوبي- الذي اتسم بالنضال المتواصل ضد الفرنج الصليبيين الذين احتلوا القدس سنة ١٠٩٩م، وأقاموا مملكة ومدة إمارات على الأرض العربية في فلسطين وبلاد الشام وحتى اقتلعهم للمماليك وقضوا على وجودهم بعد حوالي قرنين من الزمان- أي اختلاف في الأحوال الاجتماعية لليهود والمسيحيين المصريين . وقد عاش اليهود والمسيحيون المصريون حياتهم العادية.

وفي عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠-١٥١٧م) شارك اليهود والمسيحيون في الممارسات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية مشاركة إيجابية في معظم الأحيان باعتبارهم جزءاً عضوياً من الكل المصري. ولم يكن الاختلاف في الدين بينهم وبين المسلمين يحول دون قبولهم . ولم يكن هذا تابعاً من موقف «التسامح» إزاءهم باعتبارهم «الأخر» ، وإنما كان إقراراً بحقوقهم وواجباتهم باعتبارهم جزءاً من الذات الحضارية المصرية . فقد كانت الثقافة المصرية، ببعدها العربي والإسلامي

، تراهم جزءاً من «نحن» المصريين على مستوى البلاد المصرية، وجزءاً من «نحن» الحضارة العربية الإسلامية.

خضع للمسيحيين واليهود المصريون ، بطبيعة الحال، الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية نفسها التي خضع لها المجتمع المصري كله والتي شكلت ملامح الحياة في ذلك العصر من ناحية، كما أنهم تركوا بصماتهم وتأثيراتهم - مثل بقية المصريين- في مجريات الحياة المصرية ، وفي هادات المجتمع المصري وتقاليد من ناحية أخرى ، فقد شارك المسيحيون واليهود في المناسبات السياسية بحسب ما جرت عليه الممارسات السياسية آنذاك . كما أنهم كانوا عنصراً مهماً لاغني عنه في عصر لم تكن فيه مدارس أو معاهد أو جامعات متخصصة في تدريب الهيئات المالية والإدارية اللازمة للدولة، وإنما كانت العائلات المسيحية تتوارث هذه الخبرات في ميادين الحساب والمساحة والضرائب والإدارة المالية عموماً. وقد مارس اليهود والنصارى كافة أنواع النشاط الاقتصادي في عصر في ذلك العصر على نحو ما تشير إليه الوثائق وتؤكد المصادر التاريخية الأخرى، كما أنهم تملكوا العقارات في سائر أنحاء البلاد ومارسوا كافة الصرف والمهن وأسسوا الشركات فيما بينهم أو مع مواطنيهم المسلمين.

ومن الحقائق المهمة في هذا المقام ، أن اليهود والمسيحيين المصريين أسهموا إسهاماً إيجابياً في أنشطة المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، وقد شاركهم المسلمون الاحتفال ببعض أعيانهم بالشكل الذي

يؤكد أن هذا الموقف كان قائماً على أرضية من الاعتراف بحق أبناء هذه الطوائف في اختيار دينهم وحقوقهم في ممارسة حياتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية في سياق ثقافة لا تنفي حق الاختلاف ولا تجعل من هذا الاختلاف ذريعة للتعالي، ومن ثم فليست هنا ضرورة «التسامح» بالمفهوم الذي أقرته الحضارة الأوروبية الكاثوليكية على النحو الذي ناقشناه في الفصل السابق.

وقد تميز بعض اليهود والنصارى في مجالات الثقافة والعلم المختلفة. وذاعت شهرة كثير منهم في ميادين الطب والأدب والحساب والفلك... وما إلى ذلك . وإوأنهم اعتبروا «آخر» - على نحو ما حدث في أوربا العصور الوسطى - لما أمكن لهم أن يسهموا بمواهبهم في خدمة بلادهم ومجتمعاتهم والدليل على ذلك أن أوربا العصور الوسطى لم تسمح بظهور متميز لأي من اليهود الذين عاشوا في سائر أنحاء.

فهل كانت التجربة المصرية إزاء قبول التنوع والاختلاف والتعدد شذوذاً على مجريات الأمور في سائر أنحاء العالم الإسلامي أثناء فترات القوة والسيادة العربية الإسلامية ؟

إن خصوصية التجربة المصرية لا تنفي الأساس الذي قامت عليه، وهي النظرية السياسية للدولة الإسلامية التي لم تضع عقبات أمام رعاياها من غير المسلمين ، إذ اتحدت الدولة الإسلامية، بمفهومها الديني ، لرعاياها من اليهود ومن المسيحيين قنراً كبيراً من الحرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية يعاوى ما كان متاحاً لرعايا المسلمين بحكم أن الدولة

ونظامها الميامي قائمان على أساس الشريعة الإسلامية من ناحية، وأن المسلمين كانوا هم غالبية رعايا هذه الدولة الإسلامية من ناحية أخرى. وإذا أخذنا في اعتبارنا ظروف تلك العصور، التي كان الدين قوام الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فيها، وإذا أخذنا في اعتبارنا أيضاً أنه لا يجب إسقاط المفاهيم السياسية للعاصرة على عصور تاريخية كانت تحكمها مفاهيم سياسية مختلفة. فإن الأمر يصبح أكثر وضوحاً وقابلية للفهم. كذلك فإن الحقيقة القائلة بأن الحضارة الأوربية الكاثوليكية في العصور الوسطى لم تكن تقبل بوجود الآخر، أو «تسامح» مع اختلافه وغيروته، على نحو ما تكشف عنه مواقفها ضد المسيحيين الذين يغالفونها في المذهب، أو اليهود الذين عاشوا في مجتمعات الغرب الأوربي آنذاك، أو المسلمين، هذه الحقيقة تكشف من حقيقة مضادة تتعلق بالحضارة العربية الإسلامية.

فقد كانت الحضارة العربية الإسلامية حضارة «متسامحة» بالمعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي للكلمة، وكانت هي الحضارة التي «تسمح» بوجود الآخر داخل أراضيتها، وتقبل اختلافه وغيروته، وتسمح له أن يكون جزءاً عضوياً من مجتمعاتها وتمكنه من أن يستخدم مواهبه في خدمتها، باختصار لم تكن تعتبر «الآخر» اليتيم «آخر» على المستوى الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وإنما كانت تعتبره جزءاً من الذات الحضارية العربية الإسلامية، ولم تكن مصر لتتشذ عن هذه القاعدة الأساسية من قواعد هذه الحضارة.

بيد أن التجربة المصرية تحمل فوق هذا نوعاً من الخصوصية التي فرضتها حقائق التاريخ المصري، وطبيعة الجغرافيا المصرية. فمنذ البداية، منذ فجر التاريخ المصري، كان على الإنسان في مصر أن يتفاعل مع توجهات الجغرافيا المصرية، إذ إن الناظر إلى جغرافية مصر سيكتشف بسهولة أن هذه البلاد أشبه ما تكون بالواحة الفيضية التي كونها الفيضان السنوي لنهر النيل على أبواب أفريقيا الشمالية الشرقية. ولأن النيل يكاد يكون هو مصدر الحياة الوحيد، كان على المصريين أن يعملوا سوياً منذ بداية وجودهم لتطويع النهر وتطويع الأرض . وقد أدى هذا، في مسار التاريخ المصري إلى اندماج كل العناصر التي تعيش على هامتي النهر في شطريه المصري في تسييج اجتماع واحد، يفرض وحدة الذات الحضارية ، ويشكل ثقافة المجتمع ، ويزيد من قدرته على هضم واستيعاب كل العناصر البشرية والثقافية الوافدة، وهذا هو السبب في أن المجتمع المصري لا ينظر إلى المختلف على أنه «الآخر» ما دام يعيش في رحاب هذا المجتمع، ويرى «الآخر» خارج الحدود . فإذا كان «الآخر» عدوً عاملاً بما يستحقه ، أما إذا كان صديقاً أو جاراً قبل اختلافه وتعامل مع هذا الاختلاف على أساس من القبول والاعتماد المتبادل .

ومن الطبيعي أن يكون هذا المجتمع «المتسامح» مع الآخر عبر الحدود أكثر تسامحاً في تعامله مع الفئات التي يتكون منها الداخل . ودليلنا على ذلك هو موقفه من الماليك، فقد كانت مشاعر المصريين، مسلمين وغير مسلمين، تجاه الحكام الماليك مزيجاً من الولاء السياسي والديني ،

والكراهية الاجتماعية والثقافية . فقد كانت مؤسسة الحكم المملوكية حريصة على تأكيد مزاياها عن المجتمع المصري من خلال تلك الأعداد المتزايدة من المماليك الذين يجلبهم تجار الرقيق من الخارج ، ولكن السلاطين اكتسبوا شرعية صورية بإحياء الخلافة العباسية والواجهة الدينية التي تستروا وراءها . فقد كانوا يحكمون بتفويض من الخليفة العباسي في القاهرة، كما أعطوا حمايتهم على المقدسات الإسلامية في الحجاز وفلسطين . ولكن عزلتهم وممارساتهم القظة جعلت الناس يكرهونهم، بيد أن هذا الموقف لم ينسحب على أولاد هؤلاء المماليك . وقد عرف أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر ، ونشأوا على ترابها ، ولم يمسه الرق، باسم «أولاد الناس» في مصطلح ذلك العصر. وقد كانت لهم مكانة اجتماعية وسياسية أقل من مكانة المماليك، وغالباً ما كان «أولاد الناس» هؤلاء ينصرفون عن الحياة السياسية والعسكرية التي يحيا أبائهم في ظلها ، ويختارون لأنفسهم حياة السلم والإنتاج الحضاري التي يعيشها سائر المصريين وربما أسهم بعضهم في النشاط العام للمجتمع المصري، ولا سيما الجانب الثقافي والعلمي من هذا النشاط، وقد برز عدد كبير من المؤرخين اللامعين في تاريخ الكتابة التاريخية وفي تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، نذكر منهم على سبيل المثال «ابن أبيك الواداري» و«خليل بن شاهين الظاهري» و«صارم الدين بن دقماق» ، و«ابن إلياس»... وغيرهم . ويمكن تفسير ذلك في ضوء حقيقة أن المماليك لم تكن لهم حياة أسرية بالمعنى الذي عرفه المصريون وألقوه، إذ إن وجودهم في المجتمع المصري

كان هامشياً ، ولم يكن قائماً على أساس الأسرة بوصفها خلية أولية في البناء الاجتماعي، وإنما اعتمد على القوة العسكرية التي يحوزها الأمراء الكبار، ممثلة في ممالك كل منهم الذين كانوا سنده وعبته في الصراع الحزبي، على السلطة ، ضد غيره من الأمراء . ومن ثم ، كان السلاطين والأمراء يولون عنايتهم ورعايتهم الكاملة لماليكهم ، وهكذا لم يكن لديهم ما يكفي لرعاية أبنائهم الذين تركوهم لكي ينتقلوا في «حجر الحريم» على حد تعبير ذلك العصر .

كان هذا هو السبب الأساسي في اندماج «أولاد الناس» في النشاط العام للمجتمع المصري. وقد تقبلهم هذا المجتمع وامتصهم بحيث كانت الأجيال الثانية أو الثالثة منهم يتحولون إلى مصريين حقيقيين . وربما يكون مفيداً أن نشير إلى أنهم فقدوا امتيازاتهم الطبقية بمرور الزمن، كما تعرضوا لما تعرض له سائر المصريين لاسيما في سنوات التدهور الذي عانت منه الدولة والمجتمع في القرن الأخير من ذلك العصر المثير.

هكذا ، كان «التسامح» بمعناه اللغوي والاصطلاحي سمة الحياة المصرية عبر التاريخ المصري، وقد ساعد على هذا ورسخه أن عامة المصريين لم يكونوا على اتصال مباشر بالسلطات الحاكمة ، فقد كان لكل طائفة من طوائفهم من يمثلهم أمام السلطات . وكان من الممكن للفرد المصري أن يعيش حياته كلها، من مولده إلى وفاته، دون أن يضطر إلى التعامل مع الدولة.

وقد استمر هذا الموقف طوال العصر العثماني ، ولم يبدأ في التغير سوى في زمن الحملة الفرنسية التي حاولت سلطاتها التدخل في الشؤون



الخاصة للناس، ولكن وجودها القصير على الأرض المصرية حال دون ذلك. وتكرر الأمر بشكل تسبى في عهد محمد على بسبب مشروعاته لتحديث الدولة المصرية، والتجنيد الإجبارى الذى عرفه المصريون لأول مرة فى تاريخهم، ومحاولات حصر المواليد والوفيات. بيد أن الانفصال بين الحاكم والمحكوم ظل قائماً بشكل ما حتى بدأ العمل بنظام البطاقات الشخصية والعائلية بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م.

لقد ظل «التسامح» من خصائص المجتمع المصرى حتى جرى ما جرى فى سبعينيات القرن العشرين. وبرزت لأول مرة مشكلة «الطائفية» و«عدم التسامح» فى حياة المصريين، ولم يكن ذلك لأسباب اجتماعية وثقافية بقدر ما كان ناتجاً عن أسباب سياسية : داخلية وخارجية . ولم تتوقف حدود هذه «الطائفية» الطارئة عند الحدود النينية، وإنما تعمقتها إلى نبط من «الطائفية السياسية» ونوع من الطائفية الاجتماعية ، ثم صرورة من «الطائفية الثقافية» .

ذلك أن عدم الإيمان بالتعددية السياسية فى السبعينيات أدى بالضرورة إلى انتشار عنوى التسلط، والاستعلاء، وعدم الاعتراف بالآخر «السياسى» إلى الجوانب الأخرى من جوانب الحياة المصرية. كما أن الفكر العلفى البدوى ، الذى هبت علينا رياحه الفاسدة من مناطق عربية امتلكت الثروة، وظنت أن من حقها قيادة الأمة العربية والإسلامية ، ينكر حق «الآخر» فى الاختلاف وفى الوجود، ومن ناحية أخرى ، كانت هناك أنماط أصولية مسيحية تنتشر فى العالم وتترك بصماتها على بعض

المسيحيين المصريين - وكانت نتيجة ذلك كله موجة من «عدم التسامح» إزاء الآخر المختلف.

لكن على الرغم من كل ما حدث وما يحدث فلا بد أن نعترف أن «الطائفية الدينية» قد حوصرت في مهدها بفضل التراث التاريخي الطويل لمصر والمصريين في التسامح والاعتراف بأهمية الاختلاف المتبادل بين المصريين جميعا .

## تأملات وملاحظات ختامية

يشير سؤال «التسامح» بالضرورة ، أمثلة أخرى تنطق بحياتنا السياسية والثقافية الراهنة . فلاحظ في أننا نعيش أزمة ذات وهوية ، عنيفة في طبيعتها، عميقة في مداها . ولأنك أيضاً في أن هذه الأزمة لم تهبط علينا من السماء مع المطر الذي لا يهطل كثيراً على بلادنا . قد أسهمنا بجهد غير منكور وغير مشكور في صنع هذه الأزمة التي ازدادت وطأتها في زمن توالى فيه ضربات الأعداء واتهاماتهم ، وتكاثرت علينا لثاب لاتعرف «التسامح» .

فهل يمكن أن نشعر بالذات والهوية، ونحن نفتقر إلى الحوار والتسامح في داخل مجتمعاتنا .

وهل يمكن أن نشعر بالذات والهوية وقد رضينا لأنفسنا دور التابع المهزوم سياسياً وفكرياً، بعد أن تخلينا من مورثنا في صناعة حاضر البشرية ومستقبلها ؟

وهل نرفض دماوى «العولة» خوفاً من الهيمنة؟ أم نحاول أن نكسب من العولة التي ليست شراً كلها ؟ وهل نملك القدرة على هذه التفرقة والفرز في ضوء ظروفنا الراهنة؟

وأخيراً هل يمكن أن نشعر بالذات والهوية، ونحن نستهلك ما ينتج «الآخر» من إنتاج مادي ومن إنتاج فكري على السواء؟ أم تراثنا بحاجة

إلى أن نتج ما جعلنا شركاء «الآخر» في صناعة حاضر البشرية ومستقبلها حتى يتسنى لنا أن نطالب «الآخر» بالحوار «والتسامح» ؟ فما الذي يدفع «الآخر» على أن يرفع قوماً ارتضوا لأنفسهم نور والتابع والمستهلك والمهزوم إلى مكانة الشريك والمنتج والند ؟

لقد فرضت التطورات التاريخية مفهوم «التسامح» على الثقافة الأوروبية حين استطاعت القوى السياسية والاجتماعية والفكرية أن تقوض الزعامة الكنسية على أوروبا، كما كان «التسامح» من سمات الحضارة العربية الإسلامية عندما كانت قوية ومنتجة وذات إرادة قاطعة.

إن طبيعة الإجابة على الأسئلة السابقة هي التي سوف تحدد موقفنا من الآخر، وموقف «الآخر» منا، تسامح واعتماد متبادل أم «عدم تسامح» وإنكار وعداوة !!

## قائمة المصادر والمراجع

### المراجع العربية :

- ابن الأثير ، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد :  
- الكامل في التاريخ (القاهرة ١٢٩٠هـ) .
- ابن الأثير (محمد بن محمد بن أحمد القرشي ت ٧٣٧هـ) :  
- معالم القرية في أحكام المعصية (نشره ليفي كيردج ١٩٣٧م) .
- أسامة بن منقذ :  
- كتاب الاعتبار ، تحقيق فليبي حتى .
- ابن إياس (محمد بن أحمد الحنفى المصرى، ت ٩٢٠هـ) :  
- بدائع الزهور في وقائع الدهور (تحقيق د. محمد مصطفى  
جمعية المستشرقين الألمان القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٢م) .
- ابن بطريق ، أنيتشيسوس المكتى سعيد بن بطريق :  
- التاريخ المجموع على التصديق والتحقيق (بيروت ١٩٠٩م) .
- ابن قسيم، تقي الدين أو العباس أحمد بن عبد الطيم الحرانى :  
- الجواب المسميح لمن يدل بين المسميح ، ٤ أجزاء (القاهرة  
١٣٢٣هـ) .
- ابن جبير :
- رحلة ابن جبير (نشر وتحقيق د. حسين نصار) .

\* ابن الحاج (محمد بن محمد العبدى القاسى - ت ٧٣٧هـ) :

- المدخل إلى الشرح الشريف ( ٤ أجزاء - القاهرة ١٢٤٨هـ ) .

\* ابن الراهب ، أبوشاكر بطرس بن أبى الكرم المهتب :

- تاريخ ابن الراهب (نشره لويس شيخو ، بيروت ١٩٠٢م) .

\* رينيه تودى :

- المسلمون في الأندلس ، ج ١ : المسيحيون والمولدون . (ترجمة

وتعليق د. حسن حبشي ، الهيئة العامة للكتاب القاهرة

١٩٩٨م) .

\* ابن زين (أبو محمد عبدالله بن أحمد القاضي / ق ٩ هـ) :

- شروط النصارى (مخطوط بدار الكتب ١٢٠٩ تيمور) .

\* الطاهر أحمد مكى :

- ملحة السيد- دراسة مقارنة (ط. ثانية دار المعارف ١٩٧٩م) .

\* ابن شداد :

- النواذر السلطانية والمحاسن اليوسفية ( تحقيق جمال الدين

الشيال ، القاهرة ١٩٦٤م)

\* الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير :

- تاريخ الرُسل والملوك (ط. ثانية، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م) .

\* ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبدالله :

- فتوح مصر وأخبارها (نشره تشارلز تودى، لبنان ١٩٣٠م) .

## \* عبد اللطيف حمزة :

- الحركة الفكرية في مصر في العصورين الأيوبي والملوكي الأول،  
(دار الفكر العربي ١٩٦٨م).

## \* ابن العبري ( أبو الفرج جريجوريوس بن أهارون الملقب ٦٨٥هـ ) :

- تاريخ مختصر الدول (دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٧م).

## \* ابن العديم :

- زبدة الصلح من تاريخ حلب. (تحقيق سامي الدخان، دمشق،  
١٩٥١م).

## \* العماد الكاتب الأصفهاني :

- الفتح القسي في الفتح القدسي (تحقيق محمد محمود صبيح،  
القاهرة ١٩٦٥م).

## \* ابن العميد، المكين جرجس :

- تاريخ الأيوبيين ، (نشرة كلود كاهن C. Cahen) .

Bulletin d' étude Orientales, tom . 1995-57, Damas  
1958)

## \* ابن فضل الله العمري (شهاب الدين ت ٧٤٩هـ) :

- التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة ١٣١٢هـ).

## \* قاسم عبيد قاسم:

- الحملة الصليبية الأولى: نصوص ووثائق ، (دار عين للدراسات  
والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠٠٢م) .

- مافية الحروب الصليبية ، (دار عين الدراسات والبحوث  
الانسانية والاجتماعية ١٩٩٤م) .
- الخلفية الايدىواوجية للحروب الصليبية ، (دار عين للدراسات  
والبحوث الانسانية والاجتماعية ١٩٩٩م) .
- أهل الذمة في مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية المماليك،  
(دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية ، ٢٠٠٣م).
- «صورة المقاتل الصليبي في المصادر التاريخية العربية» ، (المجلة  
التاريخية المصرية ، مجلد ٢٧ ، سنة ١٩٨٠م)
- الشعر والتاريخ- دراسة تطبيقية على شعر الحركة الصليبية ،  
(المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٨ ، ٢٩ سنة ١٩٨١م،  
وسنة ١٩٨٢م)
- والحروب الصليبية في ألف ليلة وليلة ، (مجلة الماثورات الشعبية  
الصادرة عن مجلس التعاون لدول الخليج السنة الثانية، العدد  
السادس، أبريل ١٩٨٧م) .
- عصر سلاطين المماليك : التاريخ السياسى والاجتماعى ، (دار  
عين للدراسات) .
- ابن المقلاعى ، أبو يعلى حمزة : ذيل تاريخ دمشق ، (بيروت  
١٩٠٨م) .
- الفلقشندي، شهاب الدين أحمد بن على: صيغ الأمشا في صناعة  
الإنشاء ، (طبعة دار الكتاب المصرية بداية من سنة ١٩١٣م) .
- ابن قيم الجوزية (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر ت  
٧٥١هـ) :



- أحكام أهل الذمة (نشره صبحي الصالح بمشق ١٩٦١م) .

\* محمد سيد كيلاني : الحروب الصليبية وآثرها في الأدب العربي في مصر والشام ، (لجنة النشر للجامعيين ، مصر سنة ١٩٤٦م) .

\* الفضل بن أبي الفضائل : النهج السديد والنز الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، (نشره وترجمه إلى الفرنسية بلوشيه

E. Blouchet Patrologia Orientalis , toms XII , XIV , XXII , Paris 1919).

\* الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي: الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨هـ) .

\* المقرئ (تقى الدين أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ) :

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (طبعة بولاق ١٢٧٠هـ).

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة ومعيد عاشور دار الكتب المصرية حتى سنة ١٩٧٣م) .

\* ابن المقفع ، ساويرس أسقف الأشعورين:

- تاريخ بطاركة الاسكندرية (نشره يسى عبد المسيح وأسود برمستد، القاهرة ١٩٤٣م) .

\* لويس شيخو :

- شعراء القصرانية بعد الإسلام ، (بيروت ١٩٢٤).

\* ابن النقاش (أبو إمامة محمد بن علي ت ٧٧٣هـ) :

- الذمة في استعمال أهل الذمة (مخطوط بدار الكتب المصرية- ٣٩٥٢ تاريخ).

## \* نورمان كانتور :

- التاريخ الوسيط : قصة حضارة - البداية والنهاية، (دار عين للدراسات والبحوث، القاهرة).

\* النويرى (شهاب الدين عبد الوهاب ، ت ٨٣٢هـ) :

- نهاية الأرب فى فنون الأدب (١٨ جزءا طبعة دار الكتب المصرية والباقي مخطوط ٥٤٩) .

## \* الواقضى :

- فتوح الشام .

## \* يحيى بن سعيد الأنطاكي:

- تكملة تاريخ سعيد بن بطريق (بيروت ١٩٠٩م) .

## \* يوحنا النقيوسى :

- تاريخ يوحنا النقيوسى ، (ترجمة ودراسة عمر صابر عبد الجليل، دار عين ٢٠٠٢م) .

\* أنيف ليلة وليلة (طبعة محمد صبيح ، القاهرة دت) .

\* سيرة الظاهر بيبرس: تاريخ الملك المعادل صاحب الفتوحات المشهورة . (نشر عبد الحميد أحمد حنفى، القاهرة دت).

## المراجع الأجنبية

\* Anna Comnena :

- The Alexiade ,(translated form the Greck by : E.R.A. Sewter , Penguin 1970).

\* Anne wolff :

- How Many Miles to Babylon ? Travels and Adventures to Egypt and beyond : form 1300- 1640, (Liverpool University press, 2003)

\* Anonymous :

- The Chronicle of 754 in Conquerors and Chrolicles of Early Medieval Spain, trans. K.B. Wolf (Liver pool 1995).

\* Atiya , A.S. :

- The Crusades in the Later Middle Ages , (London 1938).

\* Anonymous :

- Gesta Francorum : The Deeds of the Franks and Other Pilgrims to Jerusalem , ( Edited by Rosalind Hill , ( New York . 1962 )

\* Bede :

- A History of The English Church and People , (Trans-

lated with an Introduction by : Leo Sherely - Price ,  
Penguin 1979 ) .

\* Brundage, J.A., (ed),

- The Crusades Motives and Achievements, (Boston  
1964).

\* Dionisius A. Agius and Richard Hitchcock (eds.) :

- The Arab Influence in Medieval Europe , ( Ithaca Press,  
U.K. 1997 ) .

\* Edward Peters :

- The First Crusade , the Chronicle of Fulcher of Charter  
and other Source Materials , ( the University of Penn-  
sylvania press , 1971 ) .

\* Einhard and Notker the Stammerer :

- Two Lives of Charlemagne , (Translated with an Intro-  
duction by : Levis Thorpe , Penguin , 1974 ) .

\* Predegar :

- The Fourth Book with its Continuation, trans. J. M.  
Wallace - Hadrill (London 1960) .

\* Fulcher of Charter :

- ■ History of the Expedition to Jerusalem 1099- 1127  
(translated with an introduction and edited by Harold  
S. Fink , Konnrxville , 1969 ) .

\* Gaston Paris :

- " Un poeme latin contemporain sur Saladin ," Archives de l' Orient Latin , tom I , (Paris 1889 ).

\* Hugh Kennedy :

- The Great Arab Conquests - How the Spread of Islam Changed the World we Live in (Weidenfeld and Nicolson , London 2007).

\* Joseph Bedier et Pierre Aubry :

- les Chansons des Croisades avec leurs melodies , ( Paris 1959 ; Hitkine Reprints 1974).

\* Gregoire le Prêtre , RHC , Doc. Arm., I.

\* Joinville and Villehardouin :

- Chronicles of the Crusades , ( translated with an introduction by : M.R.B. Shaw , Penguin 1973).

\* Lewis A.M. Sumberg :

- La Chanson d' Antioche : Étude Historique et Littéraire , (Paris 1968 ).

\* Matthiew d' Edesse . in RHC , Doc . Arm ., I .

\* Michel le Syrien:

- Chronicle, Traduite par LB. Chabot, 4 toms. (Paris

1899-1924).

\* Michael Routledge :

- " Songs " in Jonathan Riley - Smith (ed.) , the Oxford Illustrated History of the Crusades, ( Oxford University Press 1995 ) .

\* Norman Daniel :

- The Arabs and Medieval Europe . ( 2 nd ed ., Longman, London and New York . 1979 ).

\* Norman F.Cantor :

- Medieval History ; the Life and Death of a Civilization, (2nd ed . Macmillan , New York 1969 ).

\* Ronald C. Finucane :

- Soldiers of the Faith ; Crusaders and Moslems at War , ( New York , 1983 ) .

\* R.W. Southern :

- Western Views of Islam in the Middle Ages ( Harvard University Press , 1962 ) .

\* Paul Meyer :

- " Fragment d' une Chanson d' Antioche en Provinciale " , Archives de l' Orient Latin , tom . I , (Paris 1884 ).

\* Sebeos :

- The Armenian History, trans . R.W. Thomson 2. vols, (Liverpool 1990).

\* Sebeos L' évêque :

- Histoire d' Eracules , ( Traduit de l' Armenien et annotée par : Frédéric Macler , Paris 1904 ) .

\* Theophanes :

- The Chronicle of Theophanes, transl. C. Mango and R. Scott (Oxford 1997).

\* Theophanis :

- Chronographia , vol . I , in : Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , ( Bonnæ 1839 ).

\* Walter E. Kaegi :

- Byzantium and Early Islamic Conquests (Combridge University Press 1992) .

\* Zonaras :

- Epitomae Historiarum libri , T. 3 in : Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , (Bonnæ 1897 ) .





## محتويات الكتاب

٣	مقدمة .....
---	-------------

## القسم الأول

## المسيحيون والفتوح الإسلامية

(بيزنطة وشرق المتوسط)

٧	١- المشهد المسيحي قبيل الفتوح الإسلامية .....
٢٢	٢- الهيزنطيون .....
٣٥	٣- السُريان .....
٤٩	٤- النسطوريون .....
٥٢	٥- الأرمن .....
٥٦	٦- الأقباط .....
٦٤	٧- الخاتمة .....

## القسم الثاني

## أوروبا والعالم الإسلامي

٧١	مدخل .....
٧٦	١- تأثير حركة الفتوح الإسلامية .....
٨٩	٢- المشكلة المعرفية .....
١٠٠	٣- التصورات والمفاهيم الأيديولوجية والحقائق التاريخية .....
١١٣	٤- التطورات التاريخية قبيل الحروب الصليبية .....

١١٩	٥- صورة المسلمين في كتابات النعاية الصليبية .....
١٤١	٦- الموقف في العالم المسلم .....
١٥١	٧- ما بعد الحروب الصليبية .....
١٦٢	خاتمة .....

### القسم الثالث

## مفهوم التسامح بين ثقافتين : أوروبا والعالم الإسلامي

١٧١	مقدمة .....
١٧٣	١- في معنى التسامح .....
١٨٢	٢- الأنا والآخر ... أو «نحن» و «هم» .....
١٩١	٣- في تاريخ عدم التسامح .....
٢٠٩	٤- النموذج المصري .....
٢٢٥	تأملات وملاحظات ختامية .....
٢٢٧	قائمة المصادر والمراجع .....

رقم الإيداع ٧١٤٣ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولي 5- 236 - 322 - 977 L.S.B.N.

مطبعة صحوة

٧ شارع اسماعيل رمضان - الكوم الأخضر - فيصل

تليفون وفاكس / ٣٣٨٧١٦٩٣ - ٩٦٧٨ - ١٠١٠٠





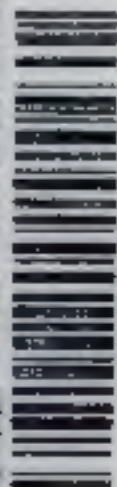
مكتبة الإسكندرية  
Alexandria Library

# السياسة و أوروبا

الكتاب: السياسة و أوروبا  
المؤلف: محمد عبد الحليم



Bibliotheca Alexandrina



0672982



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية  
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES